الدكتور محمد الجوادى

مذكرات

أساتذة الطب



أقوى من السلطة



مذكرات

زكى سويدان ■ مصطفى الرفاعى ■ مصطفى الديوانى

ارنست شلبى ■ دمرداش أحمد



مذكرات
أساتذة
الطب

أقوى من السلطة

هذه بعض مذكرات الأطباء المصريين المعاصرين التى نشروها فى بعض من فترات حياتهم وممارساتهم، وهى نموذج لما هو متوقع من مذكرات هذه الطائفة التى قُدر لها أن تحتل وضعا مميزا فى عهد الثورة كنتيجة طبيعية لاستبعاد سياسى لطوائف مهنية أخرى، وهو استبعاد فرضته ظروف العدول عن الليبرالية، وعما تتطلبه من فكر قانونى.

هى مذكرات طائفة من أبناء الشعب تتأمل حياته فى هدوء، وتلزم نفسها بدور طليعى تجاه هذا الشعب، وإن كانت فى الوقت نفسه لا تبخل عليه بما قد يتطلبه من عون أو علاج أو تنبيه أو تنويه إلى الوقاية على أبعد تقدير.

ولا تخلو هذه المذكرات من طابع سياسى يحفظ عليها التواصل مع الحياة من ناحية، والتواصل مع التاريخ من ناحية أخرى، لكنها فى الوقت ذاته لا تصور نفسها جزءا من السياسة ولا من التاريخ، وهى فى الوقت ذاته لا تنفى عن نفسها أن تستخدم فى مثل هذا الغرض إذا أراد ذلك قارئها.

ولا تخلو هذه المذكرات من أصداء عميقة لما أصاب الوطن من أحداث، ولما أصابه من جراء السياسات المختلفة، بيد أن الأمر يبدو وكأن المذكرات تتقبل فى سلام حدوث مثل هذا الذى حدث على نحو ما تتأمل المرض.. نعم قد تجزع المذكرات لذكر هزيمة قاسية مثل هزيمة ١٩٦٧، وقد تفرح لذكر نصر وحيد مجيد كنصر ١٩٧٣، لكنها فى فرحها وجزعها تعبر عن إحساس ناضج: يتألم فى نضج، ويفرح أيضا فى نضج.

مذكرات أساتذة الطب

مذكرات
أساتذة الطب

أقوى من السلطة

د . محمد الجوادى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٥

الإخراج الفنى : مادلين أيوب فرج

الإهداء

إلى صديق العمر الأخ الفاضل

الدكتور محمد فتحى برتخ

نموذج الود الصادق والوفاء النادر

د. محمد الجوادى

هذا الكتاب

هذه بعض مذكرات الأطبــاء المصريين المعاصــوين التى نشروها فى بعض من فترات حــياتهم وممارساتهم، وهى نموذج لمــا هو متوقع من مذكرات هذه الطائفة التى قُدر لها أن تحتل وضعــا مميزا فى عهد الثورة كنتيجــة طبيعية لاســتبعاد سيــاسى لطوائف مهنية أخرى، وهو استــبعاد فرضته ظروف العدول عن الليبراليــة، وعما تتطلبه من فكر قانونى، فإذا طبقة مــهنية متميــزة تتراجع إلى حين، وإذا طبقة الأطبــاء تتقدم (بحكم طبائع الأشــياء وتقاليد الطبــقات) إلى المكانة التى لابد أن تُشغل طبــقا لآليات شغل المواضع المــتاحة من فراغات المجــتمع، وربما أن طائفة الأطباء لم تضع هذا التــقدم فى اعتبارها بقــدر ما وجدت نفسهــا تتقدم تلقائيا وباطراد طيلة ذلك العهد.

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن هذه المذكرات لا تُعنى من قريب ولا من بعيــد بهذا المعنى، فليس هذا المــعنى مما يشــغل بال الأطباء وهم

الذين يكونون ثقتهم فى أنفسهم ومكانتهـا على نحو لا يعول كثيرا على الصـراع السيـاسى أو الاجتـماعى، ولا يعنى من قـريب ولا من بعـيد بالحـراك الاجتمـاعى، ولا بالتطور الاقتـصادى، إنمـا هم فى الأغلب الأعم يرون أنفسهم، لأسـباب إنسانية وأخرى نفسيـة، فى قمة السلم، سواء اعترف لهم الآخرون بهذا أم لم يعترفوا، وهم لا يطلبون من أجل هذه المكانة نفعا مـحددا ولا غير محدد، ولا يطلبـون سيادة فكرية ولا يشجعونها، إنما هم فى واقع الأمر مسـتمتعون بهذه المكانة، منشرحون لها إذا تطورت فى اتجاه صـاعد أو متوسع أو متعـمق، وهـم حريصون على بقاء القـدر الكافى من حسن العلاقة بالسلطة دون أن ينـزعجوا من ضعف بـعض جوانب هذه العـلاقة فى بعض الأحـيان، فـقد علمـتهم الحياة أنهـا، أى الحياة نفسـها، قد تعوضهم عن هـذا الضعف قوةً فى موضع آخر عن قريب.

وواقع الأمر أن هذه مذكرات طائفة من أبنـاء الشعب تتأمل حياته فى هدوء، وتلزم نفـسهـا بدور طليعى تجـاه هذا الشعب، وإن كـانت فى الوقت نفسه لا تبـخل عليه بما قد يتطلبه من عون أو عـلاج أو تنبيه أو تنويه إلى الوقاية على أبعد تقدير.

لا تخلو هذه المذكـرات من طابع سياسى يحفظ عليـها التواصل مع الحيـاة من ناحيـة، والتواصل مع التاريخ من ناحـية أخـرى، لكنها فى الوقت ذاته لا تصور نفسها جزءا من السياسة ولا من التاريخ، وهى فى الوقت ذاته لا تنفى عن نفسها أن تسـتخدم فى مثل هذا الغرض إذا أراد ذلك قارئها.

ولا تخلو هذه المذكـرات من أصداء عمـيقة لمـا أصاب الوطن من أحداث، ولما أصابه من جـراء السياسات المختلفـة، بيد أن الأمر يبدو وكأن المذكرات تتقبل فى سـلام حدوث مثل هذا الذى حدث على نحو ما تتأمل المرض.. نعم قـد تجزع المذكرات لذكر هزيمة قاسـية مدمرة مثل هزيمة ١٩٦٧، وقـد تفرح لذكر نصر وحيد مجـيد كنصر ١٩٧٣، لكنها فى فـرحها وجزعهـا تعبر عن إحسـاس ناضج: يتألم فى نضج، ويفرح أيضا فى نضج.

وتُعنى هذه المذكرات دون إعلان بأن تـقدم صورة الوطن فى مراحل تطوره المتـتالية، وهى حـين تفعل ذلك تقدم صـورة صادقة خـالية من مكسبـات الطعم واللون والرائحة، وإن لم تكن بالطبع خـالية من اللون والطعم والرائحة، كأنما أريد أن أقول إنها تقدم صورة أقرب إلى الطبيعة منها إلى الصناعـة، وأقرب إلى الفطرة منها إلى الأيديولوجـية، وأقرب إلى الاستدعاء الحر منها إلى التأطير المر..

ومع هذا فـلا تخلو مثل هذه الصـورة من ميل مع الـمشاعـر أو مع الهوى، ومن أملٍ فى الحـاضر أو فى تكرار المـاضى، ومن خوف من المستقبل أو من تكرار الأخطاء.

ومَع أنى قدمت مذكرات بعض الأطبـاء فى فصول من كتب أخرى، إلا أن هذا التقديم ارتبط بما قـدمته هذه المذكرات نفسها من مـضمونها ومن مـحتـواها، فقـد حـرص الدكتـور عبـد الوهاب البـرلسى، الذى تدارست مذكراته فى كتابى «مذكرات وزراء الثورة»، على أن يقتصر فى

مذكراته على التركيز على علاقته بنظام الرئيس عبد الناصر وعلى نشاطه السياسى التالى للوزارة، والممهد للوزارة، ولأنه لم يكن من الأطباء المعالجين فقد غلب عليه وعلى مذكراته طابع الأساتذة الأكاديميين حتى جاءت مذكراته بعيدة عن المرض والمستشفيات والأدوية والعلاج والكشف والشكوى.

وعلى هذا النحو من الابتعاد عن المهنة إلى الحياة السياسية، فعلت الدكتورة نوال السعداوى فى كتابها «مذكرات طبيبة» الذى تدارسته فى كتابى «الثورة والحرية.. مذكرات المرأة المصرية».. ومن الجدير بالذكر أنها نشرت مجموعة متداخلة من كتب المذكرات، لكنها عنيت فى المقام الأول والأخير بتجاربها السياسية والاجتماعية بعيدا عن المهنة، وإن لم تكن نشاطاتها الأخرى بعيدة عن الهموم، ولا عن المهنة.

وشأن هذين الكتابين من كتب المذكرات نجد مجموعة أخرى من هذه الكتب التى تعنى بالسياسة فى المقام الأول، أو التى تركز على فترة محددة أو على علاقة محددة، ومن الخير أن أعترف بأنى شرعت فى مدارسة كثير من هذه المذكرات، لكنى لم أصل فيها بعد إلى المرحلة التى أدفع بها إلى المطبعة أو إلى النشر.

وقد تخيرت المذكرات الخمس التى يتدارسها كتابى هذا واضعا فى حسبانى أن أقدم صورة متعددة الأوجه للحياة الاجتماعية والفكرية والتربوية فى مصر المعاصرة من خلال ما يرويه خمسة من الأطباء

البارزين عن تكوينهم الأول، وعن تجاربهم الأولى، وعن نجاحهم الأول أيضا، ومن خلال ما يرويه هؤلاء عن مسار حياتهم فى عصر هيأ لهم الصدارة من دون أن يفيد منهم الإفادة المواكبة لمثل هذه الصدارة.

والحاصل أن المذكرات التى يتدارسها هذا الكتاب تتناول عن غير قصد معظم الأحداث التى مرت بالوطن فى القرن العشرين من منظورات مختلفة لكنها متكاملة، وربما تعرض هذه المذكرات، أو تلك، الحدث الواحد بطريقتين مختلفتين من حيث الرأى، لكن الحقيقة تبقى واحدة فى الحالين، ونحن نرى بوضوح طبيعة العناصر التى ساعدت هذا الوطن على الاحتفاظ بهويته، فيروعنا أن نطالع أو نسمع فى أيامنا هذه كثيرا من الآراء المنقولة نقلا حرفيا عن مجتمعات لاتحبنا ولاتحب مستقبلنا بالقدر الكافى، ويروعنا أكثر أن مثل هذه الآراء قد جُربت من قبل فأثبتت فشلها ولم يبق منها فى تكويننا إلا ما كان يستحق أن يبقى منذ البداية.

والحق أن مدارسة مذكرات الأطباء التى يضمها هذا الكتاب، كفيلة بأن تطلعنا على وجه الحق والصواب فى كثير من القضايا الخلافية التى نتصورها قضايا سياسية بينما هى فى المقام الأول والأخير قضايا حياة أو موت. وبوسعنا على سبيل المثال أن نتأمل بعض نظرات الدكتور مصطفى الرفاعى العميقة إلى التحولات التى مرت بوطنه على مدى حياته، وهو يعبر عنها فى صورة انطباعات شعورية متدفقة على فترات متباعدة بدءا من طفولته وحتى كتب مذكراته، ونستطيع أن نلحظ

الدكتور زكى سويدان وهو يتأمل الجوانب المختلفة للأطباء وللحياة من خلال مقارنات ومن خلال محاولات للفهم وللوصول إلى جوهر الأشياء، ونستطيع أن نلمح حديثا عن الذات للدكتور الديوانى يتصل بالمجتمع بوشائج قوية فى كافة الميادين، ومع كل هذا نجد الدكتور أرنست شلبى وهو يحدثنا عن بيئات مختلفة حديث المصرى الذى يجد نفسه مصريا وقادرا فى كل هذه البيئات، كما يجد بعض ما هو جديد عليه فى بعضها.

كما نجد الدكتور دمرداش أحمد وهو يروى تجربة مهمة من تجارب الصدام مع الأجنبى والانتصار عليه، وقد جرت أحداثها على أرض الوطن.

ونحن نرى صورة أخرى من صور هذا الصدام وقد أجاد الدكتور أرنست شلبى تصويرها فى مراحلها المختلفة وقد شهدت صدامه مع ممرضة إنجليزية متعجرفة أبت أن تترك المريض المصرى الفلاح ينام على الأرض حتى الصباح وهو الذى جاء من قريته لا لشىء إلا للعلاج.

والشاهد أن المذكرات التى نتدارسها فى هذا الكتاب حافلة بكثير جدا من الطب والعلم الطبى الذى لابد لجمهور القراء من أن يلموا به إلمام المثقف القادر على معالجة وضع المرض أو حالة المرض، وإن لم يكن مسئولا عن معالجة المرض نفسه.

وفى المذكرات تصوير دقيق لجانب من التاريخ الاجتماعى يتمثل فى أمراض الشعب وهمومه المرضية، وسبل علاجها، وتصدى الدولة لها،

وهو حديث مهم ومتشعب تمثل مثل هذه المذكرات مصدرا أصيلا ومهما من مصادره. وفى مذكرات الدكتور الديوانى حديث طويل عن تاريخ شلل الأطفال وصعوده وهبوطه، وحديث عابر عن كثير من صور الأمراض الأخرى. كذلك فإن الدكتور زكى سويدان يحدثنا باستفاضة عن تطورات المرض الأشهر فى مصر وهو مرض الكبد الناشئ عن البلهارسيا، وهو يستعرض بدقة شديدة مراحل علاج الفنان عبد الحليم حافظ بما ينبئ عن صور متباينة ومتكررة من مسارات هذا المرض، كما يتحدث عن علاجه، بل عن الآراء المختلفة فى أفضليات وأولويات علاج بعض مراحله.

ولا تخلو مذكرت الديوانى من وصف دقيق لحالات شيقة من التى لاتزال نقابلها فى الممارسة الطبية، أما الدكتور الرفاعى فإنه بحكم شاعريته ووطنيته حفىٌّ بالإشارة إلى بعض الحالات الطريفة التى تنشأ نتيجة عادات شعبية كرسها الجهل والفقر، وهو يصور لقطات من حوارات له مع أساتذة أجانب كانوا عاجزين عن أن يتصوروا أسباب حدوث مثل هذه الحالات فى مثل هؤلاء المرضى، كالذين يصابون بكسور الحوض نتيجة التسطيح على القطارات...

ويحكى الدكتور دمرداش أحمد بعض تجارب يعرفها الأطباء المتمرسون جيدا، لكنها لاتزال - بسبب الجهل وانعدام الوعى والتسرع - تسبب حوادث قاتلة فى ظل الإيمان الحرفى لبعض المجتمعات بالشرف وقيمته، وبالإضافة إلى هذا كله فإن الدكتور أرنست شلبى يروى كثيرا

من طرائف العلاج والتشخيص والحوار مع المرضى وهى طرائف عاشها بنفسه فى مصر وفى الولايات المتحدة الأمريكية.

وتحفل المذكرات التى نتدارسها بكثير من الآراء الناشدة للتقدم فى الطب والتعليم الطبى والبحث العلمى والحياة الفكرية على وجه العموم، ونحن نرى كثيرا من الانتقادات والتوجيهات التى يحفل بها كتاب زكى سويدان، كما نرى حفاوة الديوانى بالمؤتمرات العلمية والاتصال بالمجتمع الدولى، كما نرى عناية مصطفى الرفاعى بالأخلاق الفردية والوطنية وأثرها فى رفع مستوى نتائج العمل الطبى فى جميع مستوياته، ونرى دمرداش أحمد وهو يدلنا بصورة واضحة ومباشرة بل «ممعنة فى المباشرة» على ضرورة التمسك بأهداب الفضيلة تمسكا مطلقا، وذلك من خلال تجارب رآها بعينى رأسه فى مراحل مبكرة من حياته.

ونرى أرنست شلبى معنيا كل العناية بتصوير الأثر الجوهرى للتربية المدرسية أو الموازية للمدرسة فى مؤسسات تربوية خاضعة للنظام والأصول، وهو يجيد الحديث عن أثر المربى الكبير يعقوب فام فى جيله، وعن طلائع أبناء جيله ممن كونوا مع بعضهم جماعة «للنظام» مكنتهم من الثقافة، ومن الفكر، ومن فهم الحياة وممارستها وتوجيهها على نحو أفضل.

□

ومع كل هذا لا تخلو مدارستنا لمذكرات الأطباء من رواية وقائع ذات أهمية، ليست بالقليلة ولا بالضئيلة، فيما يتعلق بالسياسة والتاريخ

السياسى، وليس حديث زكى سويدان عـن عبد المنعم رياض وغيره من القادة العسكريين هو كل ما فى مذكراته، وما فى مـذكرات غيره، ففيها وفى غيرها تفصيلات كثيرة ذات قيمة عن التطور الاجتماعى تحت حكم الوفد، وفى عهد الليبرالية، وفيها آراء قيمة لأرنست شلبى عن توجهات الرئيس عبد الناصر، وفيها شكوى فريدة مغلفة بكل ما يمكن من تغليف ذكى أجـاده الدكتـور الديوانى وهو يتحـدث (حين كـتب مذكـراته فى ١٩٦٥) باقتدار حـذر عن محنة الحرية الفكرية والعلمية فى عـهد الثورة بطريقة ذكية لا يدركها إلا الذين ألموا بأطراف المحنة ومدى ما تغلغلت إليه.

والحاصل بعد هذا كله أننا نرى مـذكرات حافلة بكل ما يثـير التأمل وبكل ما يسـاعد على الحكم على الأمور، وهى مع كونهـا ذكريات لا يوميات، ومع كونهـا معتمدة على إستدعاد الذكـريات فى معظمها، إلا أنها أكـبر من الشهـادات وأكبر من المـعلومات، وهى حـافلة بالحديث الدقيق عن كثير من الشخصيات التى قُدر لها أن تلعب دوراً فى العصور القريبة التى عشناها أو عاشـها آباؤنا، وهى كفيلة بأن تدين مَنْ تريد وما تريد دون أن تدخل نفسها فى دائرة سلطة الاتهـام، وهى أيضا كفيلة بأن تبرئ مَنْ تريد أو ما تريد دون أن تخرج نفسـها من تلك الدائرة نفسها، ذلك أنها تنزع نزوعا إنسانيا يرى الخطأ خطأ حتى إن وجد له المبررات، ويصور الخطأ خطأ حـتى لو رأى أنه لا يستحق العـقاب، لكنه مع هذا يصور الحق حقا والباطل باطلا دون أن يسـتغل مهارات أخرى فى قلب

حقائق الأمور عما هى عليه، ولعل هذا الخلق فى مذكرات الأطباء وفى أغلب تعامـلاتهم هو ما يجعل المجـتمع الواعى يطمئن إليـهم، ويفتح لهم الأبواب، ويفتح لهم أيضا ما هو أهم من الأبواب وهو الآذان.

□

لست أنكر بعـد كل هذا أننى مـشوق إلى أن أنـتهى عن قـريب من مذكرات الدكتور محمود جـامع ومن مذكرات الدكتور منصور فايز ومن مذكـرات الدكتـور شريف حـتاتة ومن مـذكرات غـيرهم مـمن كتـبوا مذكراتهم الذاتية.

ولست أنكر أنى لا أجد الشجاعة حتى الآن لتناول كتب أولئك الذين عهدوا إلى بعض الذين يقدرون على الكتابة ليكتـبوا لهم أشباه مذكرات يضمونها إلى فصول قصيرة كتبوها ليكونوا منها مذكرات ليس من حظها أن تؤثر، ولا أن تعبر، ولا أن تذكر، ولا أن تفكر، وإن كان من حظها أن تنكر وأن تستنكر.

وفى كل الأحوال فإنى أدعو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى لإتمام ما بدأته، وأن يعيننى على استكمال ما شـرعت فيه، وأن يقينى شر الجهل والغـرور والعجب والادعـاء والتحـيز، وأن يمكننى من أن أكـون على الدوام عبـدا مطيعا، وأدعوه سـبحانه وتعالى أن يرزقنى التـقى والهدى والعفاف والغنى، وأن يغفر لى ذنوبى وهى كثـيرة، وأن يمتعنى بسمعى وبصرى وأن يجـعلهمـا الوارث منى، وأن يتغمـدنى برحمـته وتوفيـقه

وفضله الذى لست أهلا له، ومـع هذا فإنه يفيض فى عطائه لى ونعـمه علىّ، وأنا أضعف من أن أكون عبداً شكوراً أو ذكوراً.

د. محمد الجوادى

المحتويات

الباب الأول: مشوار حياتى وملخص أحداث القرن.. مذكرات الدكتور محمد زكى سويدان

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● صاحب المذكرات تمتّع بشخصية قوية فرضت نفسها فى محيط الجامعة والتعليم الطبى ● المذكرات تقدم صورة دقيقة ومعبرة عن مجتمع كبار الأطباء فى عصر زكى سويدان، وما حفل به هذا المجتمع من صراعات معلنة وخفية ● اعتزاز زكى سويدان بنفسه وشخصيته، وضيقه فى الوقت ذاته من أن يتخطاه تكريم الدولة له فلا بمنح جائزة الدولة التقديرية التى نالها زميله التالى له فى الأقدمية العلمية والوظيفية ● صاحب المذكرات يعبر عن سعادته بكثير من صور التقدير العلمى والدولى التى نالها ● نواله درجة زمالة الكلية الملكية للأطباء الباطنيين بلندن ● إثبات مهارته الإكلينيكية من خلال نجاحه فى علاج حالة الشيخ محسن، على الرغم من فشل غيره من الأطباء فى علاج هذه الحالة ● كان متيما بكل مَنْ كانوا مثله فى قوة الشخصية والقدرة على قول الحق بقوة، والتعبير عن المعتقد بلا خوف ● أساتذة طب قصر العينى يسخرون من كلية الطب الجديدة الناشئة فى جامعة إبراهيم (جامعة عين شمس فيما بعد) ويسمونها باسم الحى الفقير الذى نشأت فيه ● يصور لنا الطريقة التى كان يتعامل بها مع زملائه حتى آخر يوم فى خدمته ● قصة تهديده لأستاذ الفسيولوجيا فى قصر العينى وكان هو العالم الدولى الكبير أنرب وذلك بسبب رفض هذا الأستاذ الموافقة عودة صاحب المذكرات للعمل فى وظيفته السابقة كمعيد فى قسم الفسيولوجى ● يتحدث عن أستاذه أنرب بما ينصفه من حيث هو عالم كبير ● يروى واقعة مهمة تبين أنه لم يكن يوائم فى رأيه بين ما يعتقده صوابا وبين رغبات أى شخص بما فى ذلك الملك فاروق نفسه ● تمكن من فرض

رأيه العلمى الصائب فيما يتعلق بحالة واحد مـن المقربين من الملك فأجريت له جراحة عاجلة على يد الدكتور مورو، على الرغم من أن الملك كان قد أمر بتسفير المريض إلى الإسكندرية ● يذكر أنه لم يكن يقوم بأى مجاملة روتينية ذات قيمة من أى نوع للملك على الرغم من أن كبير الأمناء كان قد أشار عليه بـمثل هذه المجاملات ● يروى أنه رفض منصب الوزارة كـما رفض منصب السفير وذلك من أجل البقاء فى عمله الذى كان يخصص له حياته ووقته ● وجهة نظره فى رفضه العمل طبيبا خاصًا للملك فاروق ● مدى وعيه لقيمة العلم والممارسة الطبية ولعيوب السياسة ودسائس القصور ● قوله لمديره: إنه لا يعرف إذا كان قد تربَّى أم لا؟ ● يعترف بفضل صديقه الدكتور رفـاعى كامل صديقه الدكتور يوسف رشاد فى حمايـته من احتمال بطش الملك به ● فى بداية حياته الجامعية هدد عميد الكلية بالاستقالة من التدريس فى الجامعة لو أنه طلب منه اعتزال العمل فى العيادة ● موقفه مع الوزير كمال الدين حسين بعد أن حكم له القضاء ● حديثه عن الاختبارات الإيمانية والنفسية التى كانت تُفرض على صاحبها فرضا فيما يتعلق بأدائه لمهنته ● يعترف بأنه عانى من النظم البيروقراطية والشمولية التى سيطرت على الحياة فى مصر فى الستينيات ● واجه الإحباط من مقابلته لصديقه الوزير المسئول عن التعليم العالى، لكنه لا يقف عند هذه الحدود البيروقراطية، وإنما يفكر فى حل آخر من خلال وزير آخر ● يذكر موقفه من صديقه القديم عبد العزيز السيد وزير التعليم العالى، وكيف أنه كان حريصا على أخذ حقه منه ● تأتى للدكتور زكى سويدان فرصة ثانية للانتقام أو لإظهار موقفه من صديقه القديم الوزير السابق ● كان يعانى نفسياً ووجدانياً وفكرياً من الأساليب الإدارية فى تسيير الأمور فى هذه الحقبة ● سبب استقالته من عضوية مجلس إدارة مستشفى العجوزة ● السبب الذى جعله ينسحب من عضوية اللجان العلمية الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين فى الجامعات المصرية، وهو يرى أن هذا الانسحاب قد تم منذ تاريخ مبكر بالنسبة لعضويته بها (١٩٦٩م) ويقلل أسباب هذا الانسحاب ● يحرص على رواية كثير من متاعبه من النظام السياسى على الرغم من أنه كان يحتل مكانة متميزة بين من تعاونوا مع النظام السياسى فى عهد الثورة، لكنه مع هذا يشكو بمرارة من كثير من التصرفات ● نماذج من الجوانب المتعددة فى علاقته بمرضاه ● علاقته بعدد من الفنانين الكبار ● تفصيلات مرض الفنان عبد الحليم حافظ والعلاجات والآراء التى أبديت فى تشخيص حالته، والتدخلات السياسية المتعددة فى مثل هذا العلاج ● تواريخ نوبات النزيف التى عاناها عبد الحليم حافظ ● جراحة فتق فوق السرة أجريت لعبد الحليم حافظ فى صيف ١٩٥٨ ● انتهز فرصة وجوده فى لندن لدعوة زميله الدكتور رياض فوزى للسفر إلى لندن للترويح عن نفسيهما فى ظل اهتمام المسئولين بعلاج عبد الحليم حافظ وأذنهم

لمثله ولمثل زميله بالسفر من أجل هذه الغاية ● تكفل في عام ١٩٥٩ بمصروفات إقامته في لندن من أجل الإشراف على علاج عبد الحليم حافظ ● سفر عبد الحليم حافظ إلى لندن في أبريل ١٩٦١ ● استؤصلت مرارته ● يكرر الإشارة إلى أن الكشف قد أثبت نجاح الجراحة الأولى التي أجريت لعبد الحليم حافظ في ١٩٥٦ ● يروي ملخصا لآراء المتابعة التي أبداها الأطباء في حالة عبد الحليم حافظ ● يستعين بفقرات مكتوبة في صحافة السنوات اللاحقة على تسجيل التاريخ المرضي لعبد الحليم حافظ ● يشير إلى أنه لم يفد ماديا من علاجه لعبد الحليم حافظ، بل إنه تكلف بعض النفقات في سبيل هذا العلاج وفي سبيل سفره إليه ● قصة إلغاء الورقة ذات المائة جنيه ● كان حريصاً على أن يستمسك بحقه أو بما يراه حقه ويجاهد من أجله، وقد كان يمثل هذا السلوك يضيف كثيراً إلى صورته القوية في أذهان الناس ● يشير إلى بعض رسائل الشكر التي تلقاها من عبد الحليم حافظ ● يلخص معاناته مع الآراء والأنباء الصحفية التي كانت تتحدث عن علاجات مختلفة لمرض الفنان عبد الحليم حافظ ● يفصح عما لا توافقه عليه مما يسميه هو «دور الصحافة في إشعال الخلاف حول الآراء الطبية المختلفة في الأسلوب الأمثل لعلاج عبدالحليم حافظ» ● ما صادفه من متاعب متعددة في علاج عبد الحليم حافظ ● يروي هذا كله بقدر من المعاناة والضيق النفسي ● إيثاره الاعتذار عن علاج الفنان محمد عبد الوهاب ● يقدم صورة بديعة في وصف حالات الهلع التي كانت تصيب الفنانة فايزة أحمد وتجعلها جزعة قلقة على الدوام ● يروي تفصيلات الجهد الطبي الذي بذله الأطباء المصريون في علاج حالة الفنان أنور وجدي ● كان أحد المشاركين في هذا العلاج قبل أن يسافر أنور وجدي إلى السويد ● يتطرق دون أي خوف أو وجل أو حرج إلى نشر بعض أسرار المرض والعائلة ● يروي تفاصيل علاج الفنان أنور وجدي في السويد بالذات دون غيرها، وما تم له من علاج هناك، وكيف تخوف أحد الأساتذة المصريين من السفر مرافقا للفنان ● نماذج لبعض الوقائع المهمة لتاريخنا السياسي والاجتماعي التي مر بها الدكتور زكي سويدان من خلال عمله كطبيب مرموق ● وفاة أحمد حسنين المفاجئة حدثت بعد شفائه من مرضه بالقلب، وأن حالته ظلت غير مطمئنة طوال ثلاثة شهور ● حقيقة مرض البطل معروف الحضري الذي لعب أدوارا بطولية في حرب فلسطين وفي عهد الثورة ● يروي انطباعه عن الشيخ عيسوي صقر عضو البرلمان عن دائرة قطور، وكان أكبر أعضاء البرلمان سناً ● حديثه عن الخبرات الطبية الشخصية التي اكتسبها ودورها في تنمية علمه بالأمراض وبالممارسة الطبية ● يروي قصة نجاته من حادث ترام في أثناء فترة دراسته ● يروي قصة إصابته بالبلهارسيا وذلك بسبب ممارسته للسباحة في القرية ● تجربته المبكرة مع الاستحمام في نهر النيل على الرغم من تحذير «سيدنا» واتخاذه الإجراءات الكفيلة بعدم ممارسة

الصبية لهذا الاستحمام ● قصة جرح عينه وما نشأ عن هذا الجرح من ضعف فى الإبصار فى عينه اليسرى ● يتحدث عن إصابته بالتزيف بسبب نقص فيتامين (س) ومحاولة علاج التزيف بالفيتامين دون جدوى ثم بحثه الدءوب عن الخضراوات الطازجة ذات السعر المناسب وشفائه فى اليوم الثالث ● مرض والدته بالفشل الكلوى ● يذكر الأعراض التى كانت تعانيها على الرغم من اعترافه بعدم استيعابه للصورة كاملة فى ذلك الوقت المبكر ● استطاع فى ١٩٥٧ أن يشترى جهاز كلى صناعية وقد وصل الجهاز إلى مصر ١٩٦١ واستعان به فى عمله ثم أهداه إلى القوات المسلحة، كما اشترى للكلية جهازا آخر فى ١٩٦٣ ● بعض تفاصيل تاريخ الحياة العلمية لصاحب المذكرات كنموذج لأساتذة الطب فى جيله ● تفصيلات مهمة عن فترة تأهله بالشهادات الطبية العليا فى بريطانيا ● يتحدث بثقة شديدة، ودون حرج، عن مرات الرسوب فى الامتحان وعن أسباب الرسوب ● اثنان شجعاه على السفر: الدكتور مورو باشا والسيدة باميلا حرم الدكتور محمد عبد المنعم لبيب ● تفصيلات طريفة عن الإجراءات الروتينية التى كانت متّبعة من أجل التقدم للامتحانات والتحويلات المالية التى كان على المتقدم أن يتمّها ● مدى سعادة الدكتور سويدان وانفعالاته تجاه نتائج الامتحانات التى قدر له أن يجتازها فى البلاد البريطانية ● مدى اعتزاز السيدات الإنجليزيات ببلادهن رغم ظروفها الصعبة، وقد أدرك زكى سويدان المعنى واعترف به ● موقفه من الامتحانات المتتالية ● نجاحه فى امتحان عضوية الأطباء الملكية بلندن: نرى الفرحة تشع من بين سطوره ومن حديثه، ونرى شكر الله يتمثل فى صور عديدة.. ونراه بعد هذا سعيداً بأنه نجح على الرغم من أنه لم يكن يملك ثمن تذكرة رجوعه إلى وطنه ● قدرته المبكِّرة على اتخاذ القرار الحاسم فى الوقت المناسب ● كان واعيا لقيمة العلم ولقيمة التأهل بشهاداته العليا، لهذا فإنه لم يكن يبخل على هذا الهدف بأى شىء يملكه أو يقتنيه، ومن ذلك قراره ببيع سيارته للسفر إلى بريطانيا لأداء امتحان عضوية كلية الأطباء الملكية ● تفصيلات تمويله لنفقاته ● كان يعوّل على الاقتراض ممن كانوا يملكون المال من الأصدقاء فلما خذله اثنان منهم لم ييأس ولم يغير ظاهر معاملته لكنه أصبح يأخذ أجره منهما بعدما كان يتنازل عن هذا الأجر ● بعض الظروف التى واكبت كفاحه من أجل إتمام التعليم ● تفصيلات حصوله على درجة الدكتوراه المصرية التى كان قد تقدم للامتحان بها قبل حصوله على عضوية الكلية بلندن، عاود التقدم لها بعد تأهله بالدرجة البريطانية من باب إثبات الذات ● حرصه الشديد على استكمال الامتحانات اللازمة لحصوله على درجة الدبلوم فى علم وظائف الأعضاء الذى كان قد عمل معيدا فى قسمه فى قصر العينى ● دور الواسطة فى نظم امتحانات كلية الطب المصرية ● يشير إلى أن طريقه فى الترقيات التى يمر بها أعضاء هيئة التدريس فى

كادرهم العلمى والوظيفى كان طريقاً شاقا أيضا ● جاهد عن طريق القضاء لينال درجة الأستاذية فى الجامعة، وقد أنصفه القضاء كما أنصفه الوزير المسئول عن التربية والتعليم ● يروى أنه كان أول مَنْ طبق عليه نظام اللجان العلمية لترقيته فى ١٩٥٦ ● كان أول مَنْ نجا من النظام الذى كان يقضى بإعادة سنة دراسية بأكملها، وقد كانت هذه النجاة بفضل قرار سعد زغلول باشا بإتاحة الملحق للراسبين، وهو ما أدى إلى أن يوفر سنة دراسية كادت تضيع من عمره بسبب مضاعفات مرض التيفود الذى كان قد أصيب به ● كان ضمن طلاب أول دفعة طبق عليها النظام الجديد فى المرحلة الثانوية من التعليم العام ● برامج التربية الرياضية فى التعليم العام فى ذلك الوقت ● نرى مدى الاهتمام بالتربية الرياضية فى المدارس حتى إن زملاء زكى سويدان فى الخديوية كانوا نجوم مصر فى ذلك الوقت وفيما بعد ذلك فى كرة القدم على سبيل المثال ● الاشتراك فى حمام السباحة التابع لوزارة المعارف كان ميسرا ● إتقان تعلم السباحة فى هذا الملعب ● المظاهر الإيجابية التى جناها هو وأبناء جيله من عناية الدولة بتكوين شخصياتهم على نحو متكامل، فضلا عن الالتزام بالسلوك التربوى ● لا يقدم تفصيلات كثيرة عن جهوده فى التعليم الطبى أو الإدارة الصحية والطبية، لأنه لم يكن من المعنيين بشغل وقته بمثل هذه الأمور، فقد كانت ممارسته للمهنة فى المستشفى الخاص وفى عيادته تأخذ جل اهتمامه ● خدم من خلال مستشفى الجامعة وعيادته جموعا كثيرة من المواطنين ● يروى بقدر واضح من السعادة مشاركته فى إنشاء كلية طب الزقازيق ● حريص على الإشارة إلى سفره بنفسه إلى الزقازيق للإشراف على امتحانات البكالوريوس ● رأى ذاتى: إنشاء كلية الطب يسهل إنشاء الجامعة ● يشير بكل وضوح إلى معاناته هو نفسه من كثير من أزمات التعليم الطبى والتطور الطبى ● يبدو فى بعض مواضع من مذكراته حريصا على المفاخرة بحرصه على السرية الطبية، وهو يذكر أنه كان يلتزم بهذا المبدأ حتى على مستوى أسرته ● يضرب مثلا آخر بحرصه على أسرار المرضى، وهو فى هذه الحالة يتعلق بالرئيس عبد الناصر نفسه ● يعترف فى مذكراته بما قد يبدو وكأنه متناقض تماماً مع التزامه بهذا المبدأ ● كان يشير بالطبع إلى الأسرار الطبية لكثير من مرضاه ● يعترف بكل صراحة بفشله فى مراقبة واحد من أقرب مساعديه وهو ممرض العيادة الذى تمكن من أن يسرق جهده(!!) على مدى سنوات مستمرة، وهو حريص على أن يروى تفصيلات القصة متضمنة كل ما اتخذه بعد هذا من احتياطات إجرائية وقانونية ● شخصية الرئيس عبد الناصر فى مقدمة الشخصيات التى تجنب صاحب المذكرات أن يصدر عليها حكما واضحا محددا ● كان متيما بكل مَنْ كانوا مثله فى قوة الشخصية والقدرة على قول الحق بقوة، والتعبير عن المعتقد بلا خوف ● يروى ملامح كثيرة من شخصية الشهيد عبد المنعم رياض ● ذكرياته عن قيادة جبهة

الأردن في حرب ١٩٦٧ ● يلخص قصة استشهاد عبد المنعم رياض على نحو ما يكتب تقريراً طبياً ● حرصه على إحياء ذكرى صديقه الشهيد عبد المنعم رياض بطريقته الخاصة ● يحرص على تكرار الإشارة العابرة إلى الشكوك التي ثارت حول مصرع عبد المنعم رياض وأن هناك احتمالاً قوياً باغتياله بإعلام العدو بتواجده في مكان إصابته ● يقدم فقرات كثيرة في الثناء على المشير أحمد إسماعيل ودوره في المخابرات العامة ● ذكرياته عن اللقاء مع المشير أحمد إسماعيل في السبت السابق مباشرة على اندلاع حرب أكتوبر ١٩٧٣ ● المذكرات تقدم عن الفريق أول محمد أحمد صادق أفضل فقرة منصفة أو مكتوبة في المذكرات المصرية ● يشهد للفريق محمد أحمد صادق بأنه ظل يعمل من أجل القوات المسلحة على الرغم من معرفته بأنه لن يستمر طويلاً في القيادة ● يشهد للفريق صادق بأنه لم يشارك في التحريض على السادات قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ ● يعبِّر عن إعجابه بعدد من الشخصيات السياسية في العصور التي عاشها ● يبدو إعجابه بأقوياء الشخصية سابقاً على كل إعجاب آخر ● يشير إلى إصرار إسماعيل صدقي وهو رئيس للوزراء على احترام اللغة العربية والتمكين لها بكل صورة في المعاملات والتعاملات حتى في العلاقات التي يكون الأجانب وسفاراتهم طرفاً فيها ● يعترف بفضل سليمان عزمي عليه في إلحاقه بالعمل بمستشفى الدمرداش بعد حصوله على عضوية كلية الأطباء الملكية بلندن ورفض كلية طب قصر العيني عودته لوظيفة معيد للفسيولوجيا ● كان محباً للرائد المصري للعلم الذي نبغ فيه (علم الأمراض الباطنة العامة) وهو الدكتور سليمان عزمي ● يثني على كثير من زملائه ● ينتبه إلى كثير من نواحي العبقرية في شخصية هؤلاء ● ثناؤه على وزير المواصلات الأسبق الدكتور محمود رياض الذي كان يدرس للدرجات العليا في الهندسة في بريطانيا ويسكن مع بعض الأطباء الذين يحضرون للدراسات العليا في الطب، وقد استوعب أسئلتهم وامتحاناتهم ● الضيق النفسي الذي اعترى صديقه عند خروجه من الوزارة، وكيف كان أخوه الشهيد عبد المنعم رياض أكثر وعياً منه بالحياة السياسية وتقلباتها ● يروي قصة صنع محمود رياض لطائرة استطلاع بدون طيار، وهو الإنجاز الذي ينسب إلى شقيقه الشهيد عبد المنعم رياض في كثير من الروايات ● معلومات عن صاحب بعثة الجامعة المصرية إلى أوروبا، فلما اعتذر أتيح للمرشح الاحتياطي أن ينال البعثة بدلاً منه، وكان هذا العضو الاحتياطي هو الدكتور طه حسين نفسه ● تفصيلات مهمة يرويها عن مظاهرات سنة ١٩٦٨ التي اشترك فيها ابنه المهندس حمدي ● الحوارات التي دارت بينه وبين كل من وزير الداخلية شعراوي جمعة، ووزير الإدارة المحلية حمدي عاشور ● يشير إلى طبيعة معاملة المسئولين عن الهزيمة للطلاب، وإلى صورة اطلع عليها من أصل خطاب لاذع كتبه ابنه حمدي إلى محمد حسنين هيكل يعنفه

فيه ● تخوف الدكتور زكي سويدان من نتائج هذا الخطاب الذي عنف فيه ابنه هذا الذي وصفه بأنه ظل الرئيس عبد الناصر ● سيطرة الروح البوليسية على أجهزة الدولة يورد هذه الإشارات ضمن تفصيلات مهمة يرويها فيما يتعلق بالانتخابات البرلمانية التي أجريت قرب نهاية عهد الرئيس عبد الناصر في أعقاب مظاهرات الطلبة ● ذهب [كوسيط] يشكو رئيس مدينة المنزلة إلى حمدي عاشور فاتصل الأخير بوزير الداخلية شعراوي جمعة فإذا بهذا الأخير [وزير الداخلية] يطلب من زكي سويدان أن «يتلهى» [أي ينشغل] في ابنه ولا يطلب شيئا ● ينتقم لنفسه ولابنه من وزير الداخلية ● ذكرياته وانطباعاته عن أحداث يومي ٩ و ١٠ يونيو ١٩٦٧، وهو يشير بوضوح إلى ما يمسه من أن هذه المظاهرات كانت مدبرة ● يسجل انطباعات ثلاثة من كبار أطبائنا عن نهاية أيام الحرب ● يعبر عن سعادته بنصر أكتوبر ويروي انطباعه بعد زيارته لخط بارليف ● يعبر عن إعجابه الشديد بخطوة الرئيس السادات الشجاعة في مبادرة السلام، وهو حريص على أن يثبت في مذكراته نص برقيته التي أرسل بها للرئيس السادات بعد المبادرة التي قام فيها بزيارة إسرائيل ● الدور الذي قدر له أن يقوم به هو وزملاؤه في فضح الاعتداء الثلاثي ● يروي أنه آثر أن يرشح الدكتور بول غليونجي لرئاسة بعثة مصر إلى أمريكا، على أن يتولى هو رئاسة البعثة المتوجهة إلى الدول الاسكندنافية ● يقدم تقريرا عن رحلته إلى السويد ● تطوع الدكتور زكي سويدان للاشتراك مع المتطوعين المسافرين إلى حرب ١٩٤٨، ولكن طلب تطوعه رفض ● قصة لقائه بشابين فلسطينيين كانا يعملان كبائعين متجولين وكانا يريان أن هناك غيرهما من يقوم بالدفاع عن بلدهما ● المذكرات تحفل بكثير من الانتقادات للإجراءات الاستثنائية التي شهدها عصر الثورة ● ما يرويه عن قصة اعتقال صديقه فهمي سماحة بسبب تشابه أحرف أسمائه الأولى مع متهم آخر، وهو الأمر الذي لم تكتشفه السلطات المسئولة إلا بعد أن كان هذا الصديق قد أوذي في صحته وعانى التعذيب المفاجئ والمستمر لمدة ستة أسابيع ● يبدي انتقادات عديدة لكثير من مظاهر الإدارة العامة في عهد الثورة ● يتحدث عن سوء حالة السفارة المصرية في لندن بسبب تصرفات العسكريين المقربين وهي التصرفات التي لم تكن تراعي أي درجة من درجات الوعي بالحضارة ● يعبر عن شعوره بالأسى الشديد عند قيامه برحلة إلى سيناء فيما قبل ١٩٦٧، وكأنه كان يستشرف بعض ما حدث في ١٩٦٧ ● يتحدث بأسف شديد عن حادث احتراق الأوبرا مبديا ملحوظة مهمة وهي أن إدارة مطافئ القاهرة لا تبعد عن دار الأوبرا أكثر من بضعة أمتار ● يصور بعض ما شهده من مآسي التأميم، لكنه يشير إلى أنه نجا من مأساة تأميم أسهمه بسبب أنه أحس بالقلق ● بعض ملامح التكوين النفسي والثقافي والاجتماعي لصاحب المذكرات ● حديثه عن نشأته ● اعتزازه بالاسم القبطي لقريته ومعنى هذا الاسم والدلالات الأخرى للوحدة الوطنية التي كانت موجودة معنى قبل أن يتشدق باسمها ● يبدو واعيا في كثير

من المواضع إلى عمـوميات الصحة العامـة، وهو ينبه على سبيل المثال إلى خطـأ وجود مآخذ مياه الشرب فى روض الفرج ● يعبر عن وعيه بخطورة البِرك على الصحة العامة وتفشِّى حمى الملاريا وفضل محمد محمود باشا فى ردمها ● يضمِّن مذكراته كثيراً من الحديث عن المتاعب الشخصية التى صادفهـا فى مقتبل حياته ● ما وعته ذاكرته عن انطبـاعاته أو انفعالاته تجاه هذه المتاعب بثقة شديدة فى النفس ● قصة معرفته بزواج أبيه من غير أمه ورغبته فى الانتقال المبكر إلى المعيـشة فى القاهرة ● مغامرة طريفة من مغـامرات الصبا: مشى هو وأخوه إلى طنطا على الأقدام ٣٥ كيلومترا ووجدا أمهما أو وجدتهما فجأة ● يجيد تقديم صورة من صور اجتهاده هو وأخيه وممارسـتهما التنافس المتكرر ● أبرز ما يدل على تغليبه للجوانب الإنسـانية فى معرفته بالناس قصته مع صديقه الخواجة موسكو ومشاركته له فى إحدى فترات حياته ● تفصيلات مهمة عن مسارين للسكة الحديد المتوجهة من مدينة ميت غمر للقاهرة ● ذكرياته المهمة عن وسائل المواصلات فى القاهرة ● يورد حديثا شيقـا عن كثير من هذه الوسائل ● وصفه لوظيفة البغل الثالث ● يتحدث عن طرائف خطوط الترام الأولى فى مصر الجديدة، وشارع الأهرام ● حديث مهم عن الملابس التى عاصر أهل القاهرة والأقاليم فيها ● يروى تجربته الشخصية مع الملابس بدقة ذاكراً تكاليف الملابس ومحلاتها المختارة ● الاعتراف الواضح بأنه كثيرا ما كان يلجأ إلى الحلول التى يطلق عـليهـا تجاوزاً اسم «الفتـاكة المـصرية»، وهى حـلول خطرة من الناحيـة الأخلاقية لكنها تحظى فى كثير من الأحيـان بالتقدير والامتنان نظرا لما توفره من حل للمشاكل ● الطبق الذى احتفظ به ودفع ثمناً مقابلاً له ● يقدم فى مذكراته حديثا شيقا ومفيدا عن تجربة استزراع الأراضى فى ليبيا، وهى التجربة التى قام بها الوزير المصرى السابق عبد العزيز عبد الله سالم ● يجد فى بعض أقوال من عاصرهم ومن عرفهم مصدراً للحكمة يعود إليه من آن لآخر ● يسجل فى مـذكراته بعض الحكم التى تعلمـها ● الإشارة المتـعمدة إلى أجزاء حـذفها من المذكـرات، ومن هذا حديثه عن عائلة الخليـفة فى قطور ● نعـجب لدقتـه فى ذكر التـواريخ التفصيلية لكثير من الأحـداث التى تبدو لنا وكأنها هامشية ● تحفل المذكرات بكثير من وقائع الخبرة التلقائية والخبرة المنظمة كما نسميها فى الطب الإكلينيكى ● يروى من نوادر هذا الباب الكثير على مدى صـفحات مذكراته، ومن هذه الأمثلة الكثيرة التى يرويهـا حديثه عن قتل كلب مسعور على يد رجل مسن سريع البديهة ● يشير باعتزاز إلى رأى الأستاذ إحسان عبد القدوس الثاقب فيمـا يتعلق بالوحدة مع سوريا وكيف أنه نبه من أن هذا الشعـور الجارف أمر يخشى منه ● يظن نفسه كان سببا فى نكبة الدكتور رشوان فهمى ● يتذكر الزمن القديم ويقارن بينه وبين الزمن الحاضر.

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● مكانة صاحب المذكرات المرموقة بين أساتذة المسالك البولية فى مصر ● خواطره تتوزع على عوالم الأدب والسياسة والاجتماع والرياضة والتاريخ ● يعبِّر فى وضوح شديد عن مأساة الجيل الذى ينتمى إليه، وهو الجيل الذى شارك فى صباه وشبابه فى الحركة الوطنية حتى استشهد بعض طلائع هذا الجيل، وأصيبوا فى المظاهرات والاحتجاجات ● يتذكر زملاءه السودانيين الذين زاملوه فى الدراسة والتخرج فى مصر ● يتأمل فى أكثر من موضع المواقع المرموقة التى وصلوا إليها فى السودان، حتى إن أحدهم أصبح سفيراً للسودان فى مصر، لكنه عاد مرة أخرى إلى الطب وترك السياسة ● يعبِّر بكل وضوح عن أساه وأسفه لضياع الفرصة على وطنه فى مصر والسودان بعدم وصول هذا الجيل المتميز للحكم هنا أو هناك ● يبدو وهو فى هذه السن المتقدمة وقد وصل إلى كثير من أسرار الحياة، وهو الذى مارس الرياضة والعلم والطب ● يقف وقفة المؤمن الصادق الإيمان أمام كل ما هو خارج عن نطاق إدراك الإنسان ● يروى قصة «دودة الإسكارس» التى وجدها المريض وقد خرجت من مجرى البول والأطباء الشبان يظنون بالمريض الخبل، بينما الحقيقة أن دودة الإسكارس هذه وصلت إلى هذا المجرى عبر ناسور كان أحد مضاعفات الإصابة بالبلهارسيا ● المذكرات جاءت كتاباً فى الوطنية والسبب واضح وبسيط وهو أنه مهموم إلى نخاعه بقضايا وطنه، وهو طيلة حياته شأن المهنيين الناجحين يتمنى لهذا الوطن الرفعة، ويبحث عن الأسباب التى حالت بين الوطن وبين تحقيق أمانيه ● يقدم لوحة من أدق ما يمكن لشعور جيله بالغربة فى الوطن حين كان تصنيف المواطنين قد بدأ يخضع للتقارير والأهواء ● تبدى مشاعره فى دأبه على انتقاد كل ما هو خاطئ من تصرفات وأخطاء تدمر مستقبل هذا الوطن ● يصور مأساة التعليم العام فى مصر ● يجيد تصوير نفسه فى صورة الشاب الذى شارك فى مظاهرات ١٩٣٥ فى المنصورة: فإذا احتج عليه والده بأن نصحه ألا يشارك فى المظاهرات لم يكن جواب الفتى إلا أن أباه نفسه شارك فى مظاهرات ١٩١٩ ● يسجل من ذاكرته أسماء الشهداء والمصابين فى ذلك اليوم العصيب ● مشاركته فى إضراب الأطباء فى عهد وزارة الوفد ● يذكر أنه فى أعقاب هذا الإضراب رد على وزير الصحة الوفدى ردا منطقيا ولكنه قاس، وأن هذا الرد قد نشر فى بعض الصحف، ومع هذا فإنه لم يتعرض للاضطهاد بسبب هذا الهجوم الواضح على وزير الصحة الوفدى ● يروى دور رشوان فهمى فى بداية عهد الثورة مفصلاً القول فى الجهد الذى بذله هذا الرجل العظيم ● حقيقة مأساة رشوان فهمى مع نظام الحكم فى عهد الثورة ● أحد المواقف

النبيلة التى كان الدكتور رشوان يقفها وهو على علاقة جيدة بالسلطة وبرجال الحكم ● يروى ما حدث للدكتور رشوان فهمى بعد ثورة التصحيح فى مايو ١٩٧١ ● ينقل بعض فقرات من خطبة رشوان فهمى فى حفل تكريمه ● يروى أنهما كانا يلتقيان فى القطار حين كان كلاهما منتدبا للتدريس فى كلية طب طنطا ● مقتطفات من كلمته فى تأبين رشوان فهمى ● تحفظه على تصرفات ثورتنا المصرية دفعه إلى أن يعبر بالإسقاط عن إحساسه بالراحة من حديث استمع إليه من طبيب أمريكى بارز ينتقد الثورة الفرنسية ● تحظى المهنة الطبية ممارسة وتعليما باهتمام بالغ من صاحب هذه الخواطر ● تجربته التعليمية المبكرة فى كلية طب طنطا حيث أتيح له وهو أستاذ للجراحة أن يتولى تدريس علم التشريح وعلم الأجنة لطلاب السنة الأولى ● مذكرته فى علم الأجنة لا تزال تحظى بإقبال الطلبة ● بعض ممارساته الإكلينيكية المتميزة التى يحدثنا عنها كجراح للمسالك البولية ● ظاهرة التسطيح على القطارات ● إصابة الأطفال بكسور فى الحوض العظمى وقطع فى مجرى البول الخلفى، وهى إصابة خطيرة من الصعب إصلاحها ● حديث صاحب الخواطر عن سكان المقابر ● نجاحه فى وصف كثير من معاناته فى مهنته ● قصر فى أن يوفى المعاناة النفسية العميقة حقها الذى وفاه حينما تناول المعاناة العقلية فى ممارسة المهنة، وقد كان فى وسع صاحب المذكرات أن ينمى فكرة مهمة وردت بصفة عارضة فى خواطره حين تحدث تحت عنوان «أحلام اليقظة» عن بعض المعاناة التى نكابدها جنينا ● نموذج للمفارقات الطريفة التى يقدمها صاحب المذكرات ● قصة المصرى اليهودى زكى شالوم زميل دراسته فى الزقازيق الثانوية، وقد عين بعد ١٩٦٧ حاكما لغزة وسيناء، فما كان منه - رغم هذا الموقع القيادى فى السلطة الإسرائيلية - إلا أن أحسن معاملة الأسرى المصريين من أبناء الشرقية لأنهم بلدياته، وكلفهم بأن ينقلوا تحياته لبلدياته القديم محمود العسال ● أصبح محمود العسال بسبب هذا الموقف بمثابة الشخص المرغوب من هذا التصرف.

الباب الثالث: قصة حياتى: مذكرات الدكتور مصطفى الديوانى

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● للدكتور مصطفى الديوانى مكانة كبيرة بين أساتذة طب الأطفال فى مصر والعالم العربى ● يذكر فى مقدمته لمذكراته أن هذا الكتاب هو نصيف حياته ● الكتاب لا يمثل على طريقة الدكتور الديوانى فى الحساب إلا ربع حياته فحسب ● تجربته مع مرض شلل الأطفال، عاصر صعود هذا المرض وبدء انحساره فى مصر ● الاعتراف بالفضل للدور الذى ساعدته به الصحافة فى تصديه لهذا المرض، وفى بنائه للوعى الصحى ● قصة

دعوته لوزارة الصحة أن تقبل استعمال الطعم الواقى ● جهوده فى التوعية على مستوى المسئولين ● قيادة فريق بحثى فى قسم الأطفال بقصر العينى إلى اكتشاف فصيلة من فصائل الثالاسيميا ● الخبرات الطبية التى يقدمها عن حب للاحقين من تلاميذه وأبنائه ● رعاية أستاذه الدكتور إبراهيم شوقى له فى أول عهده ● يجيد تصوير نصح استاذه له وتوجيهه ● كان يصف المصل المضاد لثلاثة أضعاف من يحتاجون ذلك المصل بالفعل ● قصة إصابته بحمى التيفود ● شعوره بالذنب تجاه شقيقته التى ماتت بعد هذا بالتيفود ● يعتقد أنه كان السبب فى موت شقيقته بما نقل إليها من جرثومة التيفود ● يستكنه الأسباب التى رفعته إلى القمة فى تخصصه ● يقارن بين سلوكه وسلوك زميله بول غليونجى من ناحية، وسلوك زميلهما خليل مظهر من ناحية أخرى ● تكوينه النفسى والعلمى ● نشأته خالية من العقد ● الإشادة بفضل والديه عليه ● رسوبه فى إحدى سنوات دراسته الابتدائية واضطراره لإعادة السنة كله ● تفوقه المتصل فيما بعد رسوبه فى تلك السنة ● تخرجه فى كلية الطب فى يونيو ١٩٢٩ ● اكتشافه المبكر لأهمية الاتجاه للعمل الطبى الخاص من خلال العيادة ● كان العمل الخاص فى واقع الأمر هو المحدد الأول للنجاح المهنى فى جيل الديوانى ● البعثات التى كانت متاحة لطلاب البكالوريا للابتعاث مباشرة إلى أوروبا لمدة ست سنوات ● كان يتمتع بوعى خاص يجذبه إلى لقب الدكتور! وإلى مهنة الطب، لكنه لم يجد فى نفسه الشجاعة للسفر من خلال هذه البعثة التى كانت متاحة له ● يعترف بالفضل الأكبر لأستاذه إبراهيم شوقى فى تشكيله العلمى والإنسانى ● كان عجينة غير مجربة فصورها الدكتور شوقى كما شاء هواه ● خلق «النسيان الاختيارى»، وخلق «النسيان العادل» ● إعجابه بالدكتور سليمان عزمى أستاذ الأمراض الباطنة ● صاحب المذكرات يبدو فخوراً بأنه كان زميل دفعة للدكتور بول غليونجى الذى ظل متفوقاً عليه على الدوام ● يصور شخصية زميله وصديقه فى حديث الصديق المتيم والزميل المعتز بزمالة زميله ● متانة علاقته بزميله الدكتور غليونجى على مدى الأيام ● حديثه عن تلميذه النبوى المهندس: يبدى غاية الاعتزاز بهذا الطبيب الإنسان العبقرى ● ابنه الروحى ● الروابط الروحية التى ربطت بينه وبين النبوى المهندس ● يصفه بأنه كان «أنسه وبهجة نفسه»! ● تلميذته الدكتورة زهيرة عابدين ● يذكر أسماء كل تلاميذه فى قسم الأطفال فرداً فرداً ● كان منبهراً تماماً بزعامة سعد زغلول وشخصيته ● ندمه على أنه لم يعرف الأستاذ العقاد حياً ● يصف شخصية الرئيس الفرنسى شارل ديجول على نحو ما تراءت له فى اتصاله بالمجتمع الفرنسى: يتمتع بشعبية الشخص الذى تكره أن تحبه وتحب أن تكرهه ● الموسيقار محمد عبد الوهاب يمثل أحد الأبطال المهمين فى المذكرات ● يلخص ما يسميه بالعوامل الأربعة التى كفلت لعبد الوهاب هذا النجاح الساحق ● ذكرى أول حفل شاهد فيه

الفنان محمد عبد الوهاب ● الإعجاب بالفنان محمد عبد الوهاب تمكن منه ومن قلوب زملائه من طلبة الطب بعد عام واحد من هذا اللقاء المبكر بعبد الوهاب ● معرفته الشخصية بالموسيقار عبد الوهاب بدأت بعد عشر سنوات من اللقاء الأول الذى استمع فيه إليه ● ذكرياته مع اسطوانات عبد الوهاب حين اصطحبها معه فى بعثه إلى إنجلترا فكانت عاملاً من عوامل رفع معنوياته ● يأخذ على عبد الوهاب إفراطه فى الاهتمام باللحن، وبروفاته، ويذكره بأن الموسيقارين العظيمين السنباطى وبليغ لا يفعلان مثل ما يفعل من هذا التعذيب النفسى ● ما يستنكره على صديقه الشاعر أحمد عبد المجيد من ابتعاد عن تأليف الأغانى ● تحفظ المؤلف على كاتب الذكريات ● مدى العنت الذى كان يلاقيه الأطباء والعلماء إذا ما اعتزموا المشاركة فى مؤتمر من المؤتمرات الدولية ● أمنيته فى أن يرى عدداً أكبر من أطبائنا وهم يحضرون المؤتمرات العلمية فى الخارج ليرضعوا لبن العلم ● الحلول «التوفيقية» التى كان كبار الأطباء من أمثاله يلجأون إليها من أجل تسهيل اشتراكهم فى المؤتمرات العلمية ● يصف زيارة قام بها ضمن وفد من الأطباء إلى «بيت صفافة» فى فلسطين المحتلة حيث اكتوى بمشاهدة السلك الشائك الذى يفصل بين النصفين أو القطاعين العربى والإسرائيلى من هذه القرية ● هذا الواقع المر الذى صوره الدكتور الديوانى فى لمحة خاطفة كان غائبا عن وعى جماهيرنا، بل سياسيينا كذلك ● هذا الرأى سجله الدكتور الديوانى ورواه ونشره قبل وقوع حرب ١٩٦٧ وما قادت إليه من نتيجة كارثية ضاعفت هذه الآلام ولا تزال تضاعفها أضعافا مضاعفة ● المذكرات تحفل بكثير من الحديث ذى الشجون وذى الهموم عن المصائب أو الهزات العاطفية التى اعترت حياة صاحب المذكرات ● يفيض فى الحديث عن آلامه ووصف هذه الأيام، وآثارها فى عقليته ونفسيته وجسده، وصفه المؤثر لفقده لأخيه محمود ● الصورة غير الموفقة التى يظن صاحب المذكرات أنه يعبر بها عن حزنه بطريقة صادقة، بينما الصورة موحشة وغير لائقة بل هى منفرة ● يذكر أخاه حين يجيئه طيفه فى المنام ● الديوانى يعبر عن مشاعر عدمية تنتابه من حين لآخر حتى ليكاد يفضل أن تكون الحياة بلا أصدقاء ● يعبر عن حيرته الشديدة تجاه الحياة وتقلباتها وهو يعترف أنه أصبح لا يفهم سر الحياة والوجود ● إشارة صاحب المذكرات إلى مروره بتجربة العلاج الروحانى عند ذكره وفاة أخيه ● الرومانسية تطل فى كثير من الفقرات ● من أكثر فقرات مذكرات الدكتور الديوانى مدعاة للعجب وللدهشة تلك التى يحدثنا فيها عن تمسكه بأهداب الفضيلة فيما يتعلق بتقديسه للزوجات والأمهات اللائى كن يترددن عليه بحكم مهنته ● ومن الغريب أنه يورد هذا الحديث مختلطاً بحديث آخر ينقل فيه مع تظاهر شديد بالدقة فى الرواية، ملحوظات زوجين أمريكيين صديقين عن انتقاد زملاء الدكتور الديوانى الكبار

للفضيلة والخلق الحسن فى معاملتهما ووقوعهما فى براثن «الطفولة الجنسية» ● عنايته الفائقة بالحديث عن النهـايات: نعرف أنه ألف كتاباً عن نهاية نابـليون الذى كان مغرمـاً به، وقد جعل عنوان هذا الكتاب «نابليـون فى فراش المرض» ● عُنى الدكتور الديوانى فى مواضع مـتفرقة من مذكراته أيضا بوصـف نهايات الحياة ● نراه فى حديثه عن أسرته الصغيرة مـغرماً بتفصيل القول فى الصورة التى انتهت عليها حياة كل منهم ● يخصص فقرات للحديث عن وفاة الدكتور على باشا إبراهيم فيجيد تصوير هذه النهاية وكذلك يفعل فى كثير من حديثه عن كثير من الشخصيات ● تحفل مذكرات الدكتور الديوانى بكثير من العبارات الإنشائية التى يحاول أن يصور بها المعانى الإنسانية والتجارب الحياتية التى مرّ بها ● نشعر باللذة من التصوير وتسجيل المفارقات وبراعة الانتقال بين المشاعر المختلفة.

الباب الرابع: يوميات طبيب فى الأرياف: مذكرات الدكتور دمرداش أحمد

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● المذكرات تخلو من الطعن فى الثورة وعهدها، كما تخلو من الهجوم على الثورة وإنجازاتها أو أخطائهـا، مع أن صاحب هذه المذكرات كان واحداً من الذين أوذوا فى عهد الثـورة إيذاء شديداً حتى إن نجيب محفـوظ يضرب به المثل فى الإيذاء الذى نال ذوى الكفايات الفنية لا لشىء إلا لأنهم أبدوا رأيهم الفنى ● المذكرات تسجل بكل ذرة من كيان صاحـبها روحـاً وطنية مـتعلقة بالوطنيـة إلى أبعد حـدود، حتى إننا نرى الطابع المـسيطر على المذكرات هو الانتصار للمصرى فى مـواجهة الأجنبى، وليس الشكوى من ظلم المصرى لأخيه ● قصة صراع صاحب المذكرات مع شركة أجنبية كانت تمارس نشاطها الاقتصادى بالقرب من عيادته التى افتتحـها فى قرية قريبة من القاهرة ● قصة المريض الذى أصر عـلى أن يختصر مدة بقائه فى العيـادة من أجل الجراحة، لأن الشركـة التى يعمل بها لم تكن تعطى إجازات مـرضية وإنما تخصم من المرتب مـقابلا للغياب ● الشركة الأجنبيـة تكيل بكيلين، توفر للخواجة كل أسباب الرفاهية والنعيم: من فيلات أنيقة، إلى مـرتبات ضخمة، إلى عمل سهل ميسور، وتوفر للمصرى أشق أنواع الكد والكدح مـقابل قروش لا تكاد تقيم الأود ● يحلل حالته النفـسية بعد هذا التفكير والتـأمل فيقول: إنه كان مـوزع القلب، مشتت الفؤاد بين توفيـقه فى عمله فى هذه القرية الصـغيـرة، وبين هذه الشركـة الأجنبية التى تجـاهلت وجوده كـما تجاهـلت كل ما هو مصـرى، هل يصطدم بها دفاعـاً عن كرامته وقـوميتـه، أو يخلد إلى الدعة والراحة قـرير العين بدخله الكبير من عـيادته الناجحة ● صاحب المذكرات يروى قصة طلـبه المشورة من أصدقائه الذين أشاروا عليه بالتروى، وحذروه من سلطة مدير الشركة العام القادر على أن يؤذيه فى عمله

إيذاء شديداً، لكنه صمم على أن ينتصر فى النهاية على الخوف ويتقدم لمنازلة الشركة من قبل أن يدرى أى سلاح سيستخدمه فى هذا الصراع ● نهاية الصراع النفسى الذى عاناه طيلة ثلاثة أسابيع ● يفكر فى سبيل يمكنه من أن يثأر لنفسه ولوطنه من عجرفة هذه الشركة وغطرسة موظفيها، ها هو يجد السلاح الذى سوف يمكنه من النصر فى هذه المعركة ● الطب يسعفه بما لم يكن ينتظره حين يكتشف عجز طبيب الشركة عن تشخيص الطاعون أو الإلمام به ● هكذا يتاح له سلاح ثان يمكنه من الانتصار فى الحرب بينه وبين الشركة الأجنبية ● معاملة الشركة تتغير بعد هذا الحادث الذى ساقته مهارة الطبيب فى اكتشاف الوباء ● الشركة تبدأ فى التودد له ● المفاجأة التالية: يمرض أحد الأطفال الفرنسيين بالطاعون ويمارس صاحب المذكرات بعض سلطاته فى فرض الرقابة الصحية المشددة على المريض ● يروى نجاحاته الطبية التى لم يكن يتوقعها والتى جاءته واحدة بعد أخرى ● يبلور وصف سعادته بالنجاح الذى تحقق له فى أقل من ثلاثة أسابيع ● يستدعى من قراءاته مضمون قصة سان ميشيل الشهيرة حيث كان الحظ ولا شىء غير الحظ هو سبب سعادته ● تحفل اليوميات بكثير من صور التاريخ الاجتماعى للفترة التى كتب فيها مذكراته فى مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين ● يصور فى عبارات شائقة مجتمع النخبة فى قرية مصرية صغيرة، كما يصور مكانة البقال اليونانى فى القرية على أنه مندوب الحضارة فى القرية لا مندوب الأمة اليونانية فحسب ● يجيد تصوير كثير من الشخصيات الكاريكاتيرية التى قابلها فى القرية التى افتتح فيها عيادته ومارس مهنته ● عبد الإله أفندى بطل المبالغات التى انتهت مبالغاته بموته ● ذكرى الواقعة القاتلة التى قضى فيها عبد الإله أفندى حين كان يروى قصة من قصصه استنكرها السامعون ● حديثه عن التناول العنيف لقضايا الشرف وما يرتبط بهذه القضية من حوادث فاجعة يكون المسئول فيها هم الأهل أنفسهم دون أن يملكوا دليلا للاتهام الذى يستدعى هذا العنف ● قصة فتاة دفعت حياتها ثمنا لورم ليفى فى الرحم، وكان هو أول طبيب عرضت عليه الحالة، وقد أحسن التصرف على حين لم يحسن من تبعوه التصرف، وكانت النتيجة أن فقدت الفتاة حياتها وهى التى لم تفقد عذريتها من قبل ● صاحب المذكرات يعترف بكل وضوح أنه كان موشكا على الوقوع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه زميله الثانى وأدى إلى المأساة على نحو ما صورها هو ● لا تخلو المذكرات من رواية لكثير من المواقف الطبية التى كان صاحبها موفقاً فيها من حيث لم يكن يتوقع التوفيق، ومصادفاً للصعوبة من حيث لا يمكن للصعوبة أن تقدر ابتداء ● يجيد ويبدع فى تصوير قصة اكتشافه لخراج فى صدر سيدة بدينة ويجعلنا تصويره نعيش معه لحظات الكشف عن هذا الخراج لحظة بلحظة ● تصوير الأثر النفسى الذى أحدثه نجاحه فى علاج هذه السيدة وكيف عاد هذا الأثر عليه بمزيد من النجاح ● لا تخلو المذكرات من تصوير دقيق لوقائع تاريخية ● فساد الذمم عند بعض

المصريين الحكوميين ● يلجأ إلى رواية بعض الوقائع على لسان دبلوماسى شاء حظه هو وزملاؤه أن يجالسوه فى قطار متجه إلى بورسعيد ● يدين الدولة العثمانية فى عبارات قصيرة محملة بأكثر العبارات تركيزا فى وصف أسباب انهيار هذه الدولة ● يعترف بفضل الله عليه فى كل النجاحات التى حققها ● يحرص بكل ما أوتى من قوة على أن يؤكد أهمية الاستقامة الخلقية، وعلى أن هذه الاستقامة تمثل أهم المفاتيح المتاحة للطبيب من أجل النجاح والتوفيق ● يبالغ فى وصف جمال بنت من بنات الهوى لا لشىء إلا من أجل تحقيق الغرض «الوعظى» الذى يقدم من أجله هذه القصة التى مرت بها ● صاحب اليوميات يقدم الموعظة بطريقة مباشرة، لا تلجأ إلى أى نوع من أنواع الدراما أو الحبكة.

الباب الخامس: أقاصيص.. وأقاصيص.. مذكرات الدكتور أرنست شلبى

● التعريف بالمذكرات وصاحبها ● يشير إلى صاحب الفضل فى دفعه إلى خوض هذه التجربة بتسجيل تجربته الإنسانية للقراء من أمثالنا وهو الدكتور سمير حنا صادق ● امتنانه للسيدة سامية صادق زوجة الدكتور سمير حنا التى قامت بدور كبير فى المساعدة على خروج كتابه إلى النور ● يحتفظ د. أرنست سليمان بأقصى درجات المودة والامتنان العميق لزوجته السيدة سميحة توفيق نسان ● يتحدث عن زواجه من هذه السيدة بكل ما يمكن للزوج المحب أن يتحدث به عن زوجته، وتعاونها وإخلاصها وذكائها ● قيمة القدوة التى يمثلها الوالد المربى ● يروى موقف والده من ناظر المدرسة التوفيقية الذى أراد معاقبة صاحب المذكرات ككبش فداء لزملائه ممن شاركوا فى مظاهرات الطلبة فى ذكرى وعد بلفور، فما كان من الأب إلا أن وقف من ناظر المدرسة موقفا حازما رافضا أن يقوم، وهو الأب، بضرب ابنه، وطالبا إلى الناظر ألا يستدعيه لمثل هذا السبب مرة أخرى لأنه مشغول بعمله ● روايته عن أداء والده لعمله كناظر لمحطة السكة الحديد فى القرية الصغيرة ● كيف كان ملتزما تماما بالعمل، وكيف أنه لم يسمح فى زمن الاحتلال لبريطانى متغطرس أن يغير من مواعيد القطار من أجل طلب شخصى ● تلخيصه لخبرته فى الحياة الأمريكية والتزام الأمريكيين بالعمل ● حديثه عن وفاة والده بكامل ملابسه مما مهد لقرار الأسرة بدفنه بهذه الملابس ذاتها ● قصته مع الممرضة الإنجليزية فى قصر العينى تدلنا دلالة واضحة على أنه طُبع بالقدرة على الانتصار لوطنيته متى تمكن من هذا الانتصار، مع كظم الغيظ حين لا يستطيع تحقيق هذا الانتصار ● لا يخفى عجزه عن إدراك سر الحياة وفلسفة القدر، وهو يضرب مثلين صادفهما فى حياته الطويلة، المثل الأول عاشه هو نفسه مع أمه، والثانى قرأه فى مجلة ● القصة المؤثرة التى يرويها نقلاً عن مجلة بريطانية: أراح الجميع ضمائرهم وبقيت الأم معذبة ● ما يرويه من أمر الكوليرا والوسائل الكفيلة بتقليل الوفيات الناشئة

عن هذا الوباء ● تجربته فى مكافحة وباء الكوليرا ● علاقة صاحب المذكرات بالأساتذة الذين صادفهم فـى حياته ● تعمد ألا يذكر لنا اسم أستاذه فى الأمـراض الباطنة ولا اسم رئيس قسـمه ولا اسـم مَنْ منحه درجة الدكتوراه وإهماله الحديث عن أى دور لهم فى حياته أو تعليمه ● مع هذا فإننا نراه حفياً بالحديث عن الأستاذ الذى تولى تربيته فى مرحلة سابقة على الجامعة، وهو الأستاذ يعقوب فام ● إعجابه بالتومرجى «الكبير» الذى تعلم منه الكثير، حيث يتحدث عنه وعن خبراته بامـتنان كبير لفضله، وبتـقدير واضح لقدراته ● سرعـان ما يتحـفظ على هذا النوع من الطب القائم على الخبرة دون علم ● الدكتور أرنست شلبى لا يبدى فى هذه المذكرات اعتزازه إلا بعدد قليل من أساتذة الطب الذين تلمذ لهم، وهو لا يخصص من كتابه حديثا إلا عن اثنين من هؤلاء الأساتذة، وأول هذين هو الدكتور محمد كـامل حسين الذى فتح عينه فى زمن مبكر على ما نسـميه فى العلم: ظاهرة التزامن العشوائى ● يحدثنا عن أستاذ علم الفسيولوجيا الشهير «أنرب»: يقدم لحديثه عن هذا الأستاذ بما هو معروف من تاريخه العلمى، وذكرياته عن تلمذته لـه ● يتحدث عن أحد أساتذة أنريب وهو الفيلـسوف الفرنسى الشهير كلود برنار ● يعـوضنا صاحب المذكرات عن نقص الحـديث المفتقد عن أساتذته بحـديث جميل وطريف وموحٍ عن مجموعة أصدقائه ● حديثه عن مجموعة «العظام» ونشاط كل عضو من أعضائها ● صورة من صور التفوق الثقافى والحضارى الـذى تمتع به جيل أرنست شلبى، وهو التفوق الذى ساعدهم على الاحتفاظ بمكانتهم فى المجتمع على الرغم من توالى الأجيال المتعاقبة ● المؤلف يعقب برأيه فى أن التكوين الثقـافى واسع الأفق يظل حاضراً فى أذهان أصحـابه بكل تفصيلاته مـهما تقادم بهم العمر ● لا تخلو المذكرات من إلمام طبى بمشكلات المجتمع الحادة ● على الرغم من أن صاحب هذه المذكرات لم يكن مـضطراً إلى إبداء آرائه الشخصية أو المهنية فـيما يتعلق بالمخدرات، نراه حـريصاً على أن يرفع صوتا خفيـفا يطالب فيه أو يطالب من خـلاله بمحاولة تغيير نظرة المشرع المصرى إلى بعض المواد المصنفة على أنها مخدرات ● يحاول أن يؤصل للفكرة التى يدعو إليـها فى التساهل مع الحـشيش ● رأيه فى السـبب الذى وقف فى وجـه «المحاولة العلمية» للإفادة من الخواص الطبية لمادة الحشيش ● صاحب المذكرات يتوافق مع فلسفـته الليبراليـة فى التعامل مع المـخدرات، يتقـد فى أدب شديد القانون الذى سنـه الثورة لمحاربة المخدرات لافتا النظر بطريقة ذكيـة إلى الآثار العكسيـة والتلقائية للقوانين المتشددة ● يدعو إلى إخراج الحشيش من دائرة التجريم ● يحاول فتح أعيننا على الصورة الأخرى من صور التعـامل «الرسمى» مع المـخدرات ● تـمثل هذه الصـورة فى الآراء الجريئـة المنادية بإطلاق المخدرات جميعا ● يحذرنا من أن نفرط فى التفاؤل والتعويل على إمكان الاقتناع «الحكومى» بمثل هذه الآراء، ويجـمل الأسباب المنطقـية فى عبـارة قصيرة مـحملة بكل معـانى الحقيـقة

وجوانبها ● تعقيب المؤلف بمقال فى جريدة الحياة عن دور مصر فى فرض تجريم الحشيشة ● نظرات مهمة فى تأمل تاريخ الطب ● يشير إلى أنه قد اكتشفها بخبرته الطويلة وبممارسته للتعليم الطبى ● التفاته إلى أحد عوامل نجاح وتفوق الطب الفرعونى وهو ممارسة التشريح ● تحفل المذكرات على قصرها بروح الأستاذ القادر على نقل خلاصة تجربته لتلاميذه ● يبدو هذا الخلق أكثر وضوحاً فيما يتعلق بالفترة التى قضاها صاحب المذكرات طبيبا فى الولايات المتحدة الأمريكية ● ينهبنا إلى خطورة ما قد لا نلتفت إليه فى بعض الأحيان من ضرورة إجراء التحليلات المؤيدة لقراراتنا التشخيصية والعلاجية مهما كانت هذه التشخيصات بدهية ● ينبهنا إلى ما قد تجلبه الخلفيات الناشئة عن الالتزام بالقيم الأخلاقية التقليدية أو الشرقية من طغيان على السلوك المهنى الذى لابد من الالتزام به ● ينبهنا من خلال قصة طريفة سريعة إلى خطورة الاستنتاج القائم على خلفياتنا الثقافية وافتراضاتنا المبنية عليها دون إدراك للخلفيات الثقافية التى تحكم علاقات الآخرين ● المذكرات تتضمن كثيرا من الطرائف التى صادفها صاحبها فى ممارساته الطبية الطويلة كأستاذ وكمعلم للأمراض الباطنة ● قصة «الفلاريا» التى لا يُمكن أن تُرى إلا ما بين الساعة الثانية والثالثة صباحا ● قصة الأستاذ الإنجليزى السير هنرى تايدى الذى أراد أن يشاهد هذه الظاهرة وكيف صحبه إلى إحدى قرى الجيزة ● يعرض علينا فى تواضع شديد تفسيره هو لهذه الظاهرة، وهو يعترف أنه لم يختبر هذه الفكرة بطريقة علمية ● يبدو حريصا على ألا يخلو كتاب مذكراته من بعض الحديث عن أخلاقيات الطب والممارسة الطبية ● ينبهنا إلى تجربة شخصية له مع التصريح بالتشخيص الطبى فى مواجهة المريض الأمريكى، وربما يعجب بعض القراء مما تتضمنه هذه القصة وهم يعرفون أن الأطباء الأمريكيين قد اعتادوا مصارحة مرضاهم بحقيقة المرض، وهذا صحيح، لكن التصريح [وهذا هو ما لا نعرفه] لا يمتد إلى ما قبل مرحلة التشخيص ● المذكرات تحفل بتوجه واضح نحو ممارسة الثقافة العلمية وبخاصة فيما يتعلق بتبسيط المعلومات الطبية المعقدة، وهو على سبيل المثال يضرب ثلاثة أمثلة طريفة يقرب بها لقرائه أو لمرضاه فهم أثر الكوليسترول على الأوعية الدموية ● المذكرات لا تخلو من بعض الآراء السياسية الصريحة أو المقنعة ● يحاول أن يقيم شخصية الرئيس عبد الناصر وسلوكه وتردده ما بين الاستبداد والديمقراطية ● حديثه عن تشريح الموتى فى مدينة نيويورك ● الاسم البديل الذى كان من الممكن أن يتسمى به ● صاحب المذكرات يمثل نموذجا للشجاعة الأدبية فى مواجهة النفس وذكر الأخطاء التى كاد أن يقع فيها، أو التى وقع فيها بالفعل ● يصل إلى درجة من العظمة لا يصل إليها فى رأى أستاذنا العقاد إلا من استطاع أن يسخر من نفسه، ومن ذلك ما يرويه عن أخوته فى الرضاعة لبعض الكلاب.

الباب الأول

مشوار حياتى وملخص أحداث القرن
مذكرات الدكتور محمد زكى سويدان

(١)

احتل الدكتور زكى سويدان موقع الطبيب الباطنى الأشهر فى القاهرة عاصمة مصر والبلاد العربية، وظل رئيسا لقسم الباطنة العامة فى كلية طب عين شمس منذ تولاه حتى إحالته للتقاعد، وتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة يكفى لتصويرها أن الاتفاق على غناء أم كلثوم من ألحان محمد عبد الوهاب للأغنية التى سميت بـ«لقاء السحاب» قد تم فى بيته، ونحن نعرف كيف يتم لقاء السحاب فى موضع مرتفع بعيدا عن الأرض وأهل الأرض.

وقد تمتع الدكتور سويدان بشخصية قوية فرضت نفسها فى محيط الجامعة والتعليم الطبى، وكان نموذجا لعصر أنصاف الآلهة الذين يحرصون على أن يمضوا كلمتهم وعلى الا يجعلوها تُرد أو تُعدل!

كان من حسن حظ المكتبة العربية أن الدكتور سويدان كتب مذكراته، أو بعبارة أدق جمع مادة لها كى يكتبها، فلما لم يجد الوقت لكتابة مذكراته نشر مادتها على نحو ما جمعها، وربما يقال إنه لم يجد فى

نفســه القدرة على كتابة المــذكرات لا الوقت فحسب، فـآثر أن ينشرها على هذا النحو الذى تخـتلط فيه ذكريات شخـصية بيوميـات ومذكرات بقصص مكررة بـقصاصـات مهمـة من صحف يوميـة جهـزها صاحب المذكرات ليستند إليها كمرجع أو مصدر فلم يجـد مانعا من أن ينشرها ضمن مذكراته بدون تقديم أو تعليق أو تعقيب، معولا على فهم القارئ لسبب إيراده لهذه القصاصات.

وهو يصف الكتاب الذى نشر فيه مذكراته هذه فى نهايته فيقول:

«ياكتابى. . أنجبتك فى حوالى ثمـانين عاما بالجهد والعناء والدراسة والتضحـية بعد عدة مـؤلفات وبحوث تجاوز الثمـانين عدا عن تدريس الطب لأولادى الأطبـاء المنتشرين فـى مصر والبـلاد العربيـة، ومرورا بالحوادث والأمراض والتـجارب، ولقاء المشاهـير الراحلين، وأحداث التاريخ فى هذه الفترة. وأدعو الله سبحـانه وتعالى أن يحفظك [الضمير يعـود على الكتـاب] لتكون مرجـعـا ومرشـدا وناصحـا أمـينا لأبنائى الأطباء».

(٢)

ربما كان من حسن حظنا أن هذه المذكرات نشرت على هذا النحو، ذلك أنها تقدم لنا صورة دقيقة ومعبرة عن مجتمع كبار الأطباء فى عصر زكى سويدان، وما حفـل به هذا المجتمع من صراعات معـلنة وخفية، وما حـصل عليـه هذا المجـتمع من امـتيـازات، وما حـققه صـاحب المذكرات من إنجازات شخصية ضخمة.

كذلك تدلنا مذكرات الدكتور زكى سويدان على كثير من الحقائق فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعى للفترة المعاصرة لكتابتها، بل إن المذكرات تقدم كثيرا من التفصيلات عن جوانب الحياة اليومية فى هذه الحقبة، بل ربما تصبح هذه المذكرات - على سبيل المثال - بمثابة المصدر الوحيد لوصف مسارات خطوط سكة حديد الدلتا فى تلك الفترة المبكرة من حياة زكى سويدان، وهى الخطوط التى تعرَّض بعضها للإلغاء.

ومن الإنصاف أن نشيد بدور الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود فى نصح صاحب هذه المذكرات أن يتمسك برغبته فى كتابتها، وبمشروعه فى نشرها، وقد نصحه النصيحة التى أخذ صاحب المذكرات بالجزء الأول منها فحسب حين قال له: «اكتب ما تريد ثم دع الترتيب والانتقاء لمرحلة تالية».

وقد نفذ الدكتور زكى سويدان الشق الأول من النصيحة .وليس من حقنا أن نقول: ياليته أخذ بالشق الثانى أيضا.

على أن الشىء الطريف فى مذكرات الدكتور زكى سويدان أنه لم يلجأ إلى المنهج والمنهجية، وربما كان هذا من حسن الحظ، فلو أنه لجأ إلى هذا الطريق فلربما كانت مذكراته تفتقد كثيرا من روحها وكثيرا من شخصيتها المعبرة تماما عن شخصية صاحبها بكل ما فى هذه الشخصية الفريدة من سمات.

(٣)

لعلى أبدأ عرضى هـذه المذكرات بفـقرة مخـتارة تبين اعـتزاز زكى سويدان بنفسه وشخصيـته، وضيقه فى الوقت ذاته من أن يتخطاه تكريم الدولة له بمنحـه جائزة الدولة التـقديرية التى نالهـا زميله التـالى له فى الأقدمية العلمية والوظيفية وخلفه فى رئاسة أقسام الباطنة العامة فى طب عين شمس الدكتور ياسين عبـد الغفار، وحين أحس زكى سويدان بهذا التوجه قبل وقوعه فـإنه نادى بأن يتم التحكيم للجائزة على يد محكمين أجانب، فليست جائزة الدولة فى العلوم ـ على حـد تعبيره ـ بأقل قدرا من مبـاراة كرة القدم بين نادیی الأهلى والزمـالك، وهو يكتب عن هذا المعنى للمسئولين وينشر ما كتبه فى مذكراته ويقول:

«لقد قمت فى حياتى الجامعية ببـحوث رائدة ومؤلفات طبية باللغتين العربيـة والإنجليزية. وفى الـمباريات المـهمـة لكرة القدم خـاصة بين الأهلى والزمالك تسـتقدمون حكامـا من الخارج مشـهوداً لهم بالنزاهة التامة والحيدة برغم توافر أمثـالهم فى مصر، وهذا الإجراء يُتبع لتجنب سوء الظن. ويا حبذا لو كان يتبع هذا الإجراء فى اللجنة الطبية، خاصة أن المنافسة كانت فى فرع واحد هو الأمراض الباطنة».

وهو يلخص ما حدث فى هذه الفترة بقوله:

«كنت أول المرشحين لجائزة الدولة التقديرية من جامعة عين شمس كما جـاء فى جريدة الأهرام فى ١ يناير ١٩٨٧ ، وقد سبـق أن رشحتنى الكلية فى عام ١٩٦٢ لهذه الجـائزة ، أى من ربع قرن وظهرت قرارات

اللجان فى جلسة ٢٣ مايو ١٩٨٧ وحاز عليها السيد الأستاذ التالى للأمراض الباطنة».

ويبدو لقراء المذكرات بوضوح أن قوة شخصية زكى سويدان وسطوته كانتا سببا مباشرا من الأسباب الكفيلة بأن تتجاوزه هذه الجائزة.

(٤)

ومع هذا لا يخلو الكتاب من تعبير صاحبه عن سعادته بكثير من صور التقدير العلمى والدولى التى نالها، ولعل قمة هذا التكريم، فى رأيه، تتمثل فى منحه درجة زمالة الكلية الملكية للأطباء الباطنيين بلندن:

«... وفى عام ١٩٦٩ وصلنى من كلية الأطباء الملكية بلندن خبر ترشيحى لدرجة الزمالة، وهى أقصى ما يصبو إليه أى طبيب فى الأمراض الباطنة، وسافرت إلى لندن واستقبلنى السيد السفير الأستاذ أحمد حسن الفقى وأمر أن أكون ضيفه فى السفارة، وكنت أنا وسيادته طلبة فى المدرسة الخديوية فى أواخر العشرينيات، فكنا أصدقاء من هذه الفترة، ولهذا قبلت دعوته».

هكذا يعلل هذا الرجل قبوله لمثل هذه الدعوة من هذا السفير، وهو ما يعنى بمفهوم المخالفة أنه لم يكن ليقبل غيرها من الدعوات.

ومما يجدر بنا ذكره هنا أن درجة « زمالة » الكلية الملكية للأطباء الباطنيين أعلى بكثير من درجة « العضوية » ، وكان الدكتور سويدان قد

حصل على درجة العضوية فى الأربعينيات، وتناظر درجة عضوية الكلية الملكية للأطباء البريطانيين درجة الدكتوراه المصرية، ومن الطريف فى هذا الصدد ما تعوده البريطانيون أنفسهم من أن يسموا الدرجة المناظرة (لعضوية كلية الأطباء الملكية) بالنسبة للجراحين بزمالة الكلية الملكية للجراحين.

وهكذا نرى أن «زمالة» الباطنيين، أعلى بكثير من «زمالة» الجراحين التى توازى «عضوية» الباطنيين فحسب.

□

على أن الأهم من هذا فى نظره.ونظر أطباء جيله وتلاميذه كان هو إثبات مهارته الإكلينيكية من خلال نجاحه فى علاج حالة الشيخ محسن، على الرغم من فشل غيره من الأطباء فى علاج هذه الحالة، وقد أفاد الدكتور زكى سويدان من واقعة نجاح تشخيصه لحالة مريض مهم أن أشيد بذكره فى مجتمع الأطباء الكبار حتى إن أحد أساتذة الأمراض الباطنة المرموقين قال له: إن نجاحه فى هذه الحالة يفوق حصوله على درجة الدكتوراه المصرية التى كان قد تقدم لها بعد حصوله على عضوية كلية الأطباء الملكية بلندن، وهو يقص القصة على النحو التالى:

«فى عام ١٩٤٦ كنت أمضى بعض الأمسيات فى قهوة سان سوسى، ومعناها قهوة «بدون آلام» فى ميدان الجيزة. وجاءنى صديقى المرحوم

محمد الشوربجى وقال لى: أنت هنا وعمك الشيخ محسن تعبان؟ (وهو - أى الشيخ محسن - شيخ الإمامين: الشافعى والليث)، وصاحب مكانة مرموقة فى الدولة، سواء لدى الملك أو رؤساء الوزراء أو السفارة البريطانية)، وحملنى صديقى فى سيارته، إذ كنت لا أملك واحدة، وقمت بالكشف عليه فوجدته مصابا بخراج كبير جدا حول الكلية اليمنى، وكان يعالج باعتباره مريضا بالسكر والروماتيزم، مما سبب انحناء جذعه، وقلت: إن الشيخ يحتاج إلى مبضع الأستاذ الدكتور مورو باشا فى الحال، وجاء سيادته ووافق على التشخيص، وحاول العلاج بالبنسلين فقلت: إن هذا لا ينفع، ولن ينفع إلا الجراحة التى تمت وخرج حوالى لتر أو أكثر من الصديد، واختفى السكر واختفى الروماتيزم فى حوالى أسبوعين، إلا أنه فى هذه الفترة أقبل على الشيخ علية القوم يهنئونه بالسلامة، ومنهم الأستاذ الدكتور على باشا إبراهيم الذى خالف أوامر الأطباء بعدم مغادرة الفراش لإصابته بجلطة بشرايين القلب، وطبعا انتشر اسمى بين هؤلاء القوم، وظهر خطأ الطبيب المعالج، وهو الأستاذ الممتحن لى فى الدكتوراه. وتقدمت لامتحان الدكتوراه ورسبت، وكانت هذه أول مرة يرسب فيها حاصل على عضوية كلية الأطباء الملكية بلندن فى هذا الامتحان، وقد واسانى أستاذى الفاضل المرحوم الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم بقوله: ماتزعلش يازكى.. أنت كنت عال العال، وأخذت شهادة فى عمك الشيخ محسن أحسن من الدكتوراه».

(٥)

ويبدو لنا من مطالعـة الذكريات أن زكى سويدان كان متـيما بكل مَنْ كانوا مثله فى قوة الشخصية والقـدرة على قول الحق بقوة، والتعبير عن المعتـقد بلا خوف، ومن هنا يأتى - على سبـيل المثال - إعجـابه بعبد المنعم رياض وإسماعـيل صدقى وغيرهما من ذوى الشخـصيات القوية مع اختلاف تقديرنا لهذه الشخصيات وأثر قوتها فى المجتمع.

كذلك يبدو لنا بوضوح أن الدكتـور زكى سويدان كان قد تمكن منذ مرحلة مـبكرة من حيـاته وممـارساته المهنـية من أن يطبع شخـصيـته وصورتـها المتـكونة عنها فى أذهان الناس بهـذا الطابع، ومن ثم فـقد سيطر اعـتزازه بنفسـه وعلمه ووقته عـلى معاملته لمـرضاه مهـما يكن شأنهم، وعلى سـبيل المثال فإنـنا نراه لا يعنى بأى قدر من التلطف فى تشخـيص حالة أحـد رؤسائه المـهمـين فى مطلع حيـاته العلمـية وهو الدكتور العجـاتى الذى كان بمثابة أحد مؤسسـى كلية طب عين شمس حيث بدأ الدكتور زكى سويدان عمله فى هيئة التدريس:

«. . . وبقى الأستاذ العجاتى من هذا اليوم لا يلقانى أو يخاطبنى مدة حوالى ثلاثة أسـابيع، ثم بلغنى أنه أمس فى أثناء عمله بعيـادته أصيب بألم مفاجئ شديد فى صدره ثم انتشـر إلى الخلف فى العمود الفقرى، ومنه أخذ ينزل إلى أسفل فى حلقات متتابعة من الألم تلف حول صدره من الخلف إلى الأمام، وأخذت حلقات الألم تنزل تدريجيا إلى أسفل، وكانت مـصحـوبة بضيق التنفس والعـرق يتسـاقط من وجهـه، هذا ما

سمعته فى الصباح. . فتوجهت إلى حجرته وبادرته بالتحية، فلقينى بالصد وطلب منى ألا أكشف عليه وأن أغادر الحجرة. وقد عاده اثنان من الأساتذة الاخصائيين فى نفس اليوم، وفى صباح اليوم الثانى، حين سألهم المرحوم الدكتور فؤاد رشيد مدير المستشفى عن الحالة، أجابوا بأنهم لا يمكنهم الجزم بمرض ما».

«ولكنى أجبت أن المرض هو إصابته بانفجار تشريحيقصد: تسلخى لجدار الأورطى. فالرجل فى العقد السادس، والمعروف أنه كان يعانى من ارتفاع فى ضغط الدم، وأن الألم حدث فى أثناء قيامه بالعمل، وأن انتشار الألم بهذه الطريقة لابد أن يكون من انفصال طبقات جدار شريان الأورطى».

«وانتشر رأيى، ولكن بالتهكم، خاصة فى وسط كلية طب قصر العينى التى كانت تسمينا كلية طب المحمدى».

. . . .

يشير زكى سويدان بهذا إلى ما هو معروف من أن أساتذة كلية طب قصر العينى كانوا يسخرون من كلية الطب الجديدة الناشئة فى جامعة إبراهيم (جامعة عين شمس فيما بعد) ويسمونها باسم الحى الفقير الذى نشأت فيه، وهو يعقب على هذا الاستهزاء فيقول:

«فلما بلغنى هذا الاستهزاء أجبت أن الوفاة ستحدث خلال هذا الأسبوع، وسيكون هذا درسا تعليميا لزملائنا الألداء. وحدثت الوفاة، وشارك الجمعان [أى أساتذة الكليتين] فى الجنازة، والكل يعرف التشخيص الجديد».

(٦)

وهذا هو الدكتور زكى سويدان حريص على أن يصور لنا الطريقة التى كان يتعامل بها مع زملائه حتى آخر يوم فى خدمته، فهو يورد فى المذكرات نص خطاب بعث به إلى زميله عميد الكلية (وكان هذا العميد زميلا له فى قسم الأمراض الباطنة) يستنكر فيه على العميد أن يطلب إليه إخلاء الطرف بالطريقة التقليدية، وهو يقول فى خطابه:

«ردا على خطاب الكلية فى ٢٤ مارس ١٩٧٣ بشأن استيفاء إخلاء طرفى. أفيد سيادتكم علما أن البيانات المدونةلإثبات إخلاء طرفى من متعلقات الكلية والأقسام التالية وعددها ١٤ ومن أصل وصورتين مذيّلة باعتماد من السيد المراقب العام. وهذا الوضع يذكرنى بمهمة الحانوتى مع فارق بسيط أن السيد الحانوتى هو الذى يتولى الإجراءات المطلوبة. ولذا أرجو سيادتكم تكليف السيد المراقب العام بأداء هذه المهمة إذ أنها من اختصاص سيادته».

□

كما يروى لنا الدكتور زكى سويدان بالتفصيل قصة تهديده لأستاذ الفسيولوجيا فى قصر العينى وكان هو العالم الدولى الكبير أنرب وذلك بسبب رفض هذا الأستاذ الموافقة على عودة الدكتور سويدان للعمل فى وظيفته السابقة كمعيد فى قسم الفسيولوجى، وذلك بعد أن عاد من بريطانيا بعد نجاحه فى الحصول على عضوية الكلية، ونحن نرى الدكتور سويدان لا يقف عند حد فى تهديده لرئيسه بكل ما أمكنه تسجيله عليه من أخطاء، ومن المدهش أن زكى سويدان كان قد تمكن

من تجميع كل هذه المخالفات، سـواء كانت شائعات أو حقائق، ولسنا ندرى هل كان زكى سويـدان يتمتع بكل هذا القدر من التـربص بأستاذه على نحو ما رواه فى هذه المذكرات:

«... وتوجهتُ إلى الأسـتاذ أنرب وأخـبرته برأى السيـد العمـيد، فأجابنى بأنه مستعد لعمل أى شىء إلا أن يعيننى عنده [أى يعيده للعمل فى قسم الفسيـولوجيا]، ولم أتمالك نفسى وأسمعتـه فضائحه: بدءا من أخذه شـقة [مجـانا] فى الإسكندرية من طبيب يهـودى غنى «مزراحى» نظير رسالة يعاونه فيها، وكيف يستقبل الخراف فى منزله بالزمالك شارع القديس يوسف من الطبيب فرانسيس، وكيف يحصل مجانا على طوابع البريد المصرية النادرة ليصبح صاحب ثانى مجموعة بعد الملك».

....

هكذا يتواصل سيل اتهامات الدكـتور سويدان لأستاذه حتى يصل إلى واقعة محددة كانت بمثابة الاتهام المدبر الذى دبره زكى سويدان للإيقاع بأستاذه، ولنقرأ كيف أتم صاحب المذكرات [المعيد الشاب] صناعة هذا الشرك:

«... وكيف أنه أعطى أسـئلة الدكتوراه فى الفـسيولوجـيا لمن يريد قبل الامـتحان. وبمـا أنى كنت معيـدا فى هذا العلم فكان نجاحى فـيه مضمـونا، وكان لا يهمه (أى أنه لا يخـشى) أن أعرف الأسئلة، ولأنى كنت أريد إثبـاتا [أى على فسـاد ذلك الأستـاذ] فقد كـتبت إلى زمـيلى الدكتـور رفاعى كامل الأسئلة علـى «كارت بوستال» وأرسلتـه بالبريد،

ووصله الكارت وعليه ختم البريد بتاريخ سابق على الامتحان، فكان هذا مستندا فى يدى لاتهامه بذلك».

ثم يمضى الدكتور سويدان فى تعداد ما هدد به أستاذه أنرب:

«هذا علاوة على الشكوك التى تدور حوله من أنه قتل زوجته بعقار «خانق الذئب» ثم حاول ذلك مع الدكتور عدلى سمعان المرشح لخلافته رئيسا للقسم».

ثم يحدثنا الدكتور سويدان عن رد فعل الأستاذ، ومن العجيب أن رد الفعل أخذ مرحلتين متعاقبتين من باب المناورة، الأولى خضع فيها لزكى سويدان وأبدى له الموافقة، والثانية استعان فيها بالأساتذة الإنجليز ليتخلص من وجوده معه:

«. . . وما أن فاجأته بهذه الاتهامات حتى انهار أمامى قائلا: ما كنت أدرى أنك تعلم كل هذا. . اذهب إلى السيد العميد وأخبره أنى قبلتك معيدا بالقسم، وكان هذا فى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد ظهر الخميس ١٥ مايو ١٩٤٦، ووصلت إلى مكتب العميد فوجدته قد غادر الكلية إلى عزبته فى الهرم، ورجعت إلى الدكتور أنرب فقال: فلتنتظر إلى يوم السبت، وذهبت فى صباح السبت ١٧ مايو ١٩٤٦ إلى السيد العميد فبادرنى بقوله: أنت عملت لى ثورة فى الكلية، ولا يمكن أقبلك هنا، اذهب إلى السيد وزير الصحة لعله يأخذك إخصائيا فى الدمرداش التى ستصبح كلية طب. . إنما هنا. . لا يمكن. وعلمت فيما بعد أن

الأساتذة الإنجليز اجتمعوا يوم الجمعة وقرروا: إما هم، وإما أنا فى الكلية.. وطبعا هم».

□

ومع هذا كله يستطرد الدكتور سويدان إلى الحديث عن أستاذه العالم الكبير أنرب بما ينصفه من حيث هو عالم كبير فيقول:

«ومن الجدير بالذكر أن أنرب هذا الروسى الأبيض تلميذ بافلوف أستاذ علم الدراسات التجريبية، سواء على القلب أو الجهاز الهضمى، أو الانعكاسات العصبية، ثم هاجر أنرب إلى إنجلترا فى عام ١٩١٧، ونبغ فى دراسة دورة القلب التاجية، وأصبح عضوا من هيئة كبار العلماء».

من الجدير بالذكر هنا أن نشير إلى الإنصاف الذى لقيه هذا العالم فى مذكرات الدكتور إرنست سليمان شلبى.

(٧)

ويروى زكى سويدان واقعة مهمة تبين أنه لم يكن يوائم فى رأيه أيضا بين ما يعتقده صوابا وبين رغبات أى شخص بما فى ذلك الملك فاروق نفسه، وقد تمكّن من فرض رأيه العلمى الصائب فيما يتعلق بحالة واحد من المقربين من الملك فأجريت له جراحة عاجلة على يد الدكتور مورو، وذلك على الرغم من أن الملك كان قد أمر بتسفير المريض إلى الإسكندرية، وهو يروى هذه القصة فيقول فى روايته:

«طلبنى فى أحد الأيام عام ١٩٤٩ المرحوم محمد بك زكى، المندوب السفرى لجلالة الملك، (وهو الذى يرسم كيفية سير القطارات فى أثناء رحلة الملك فى القطار لأى جهة)، وكان يشكو من آلام حادة بالبطن، وشخَّصتها فتق سرى مختنق ولابد من إجراء العملية فورا، وأبلغ الأمر إلى جلالة الملك فأجاب: احملوه إلى الدكتور النقيب فى الإسكندرية، وأخذ رأيى فقلت: لابد من إجراء العملية فورا، ولاينقل نظرا لأن المريض جاوز الخامسة والستين، وأرى ضرورة استشارة أستاذى الدكتور عبد الوهاب مورو، وأبلغ الأمر إلى جلالة الملك الذى كان قد ذهب إلى دار الأوبرا لحضور فرقة موسيقية نمساوية فوافق جلالته».

«وجاء مورو باشا وأجرى العملية فى الحال، وياليت الشباب من الجراحين يعلمون كيف قام مورو باشا بالعملية، لم تستغرق دقائق، إذ فتح الاختناق وأسقط الأمعاء التى كانت مختنقة فى داخل البطن، وأقفل الجرح وشُفى المريض والحمد لله. أما أنا فكنت أشعر بالسعادة داخل نفسى، أولا لسلامة المريض وكنت أحبه، وثانيا لأنى نفذت رأيى على صاحب الجلالة بدلا من أن أكون تابعا له فى معيته».

□

وفوق كل هذا يشير الدكتور زكى سويدان إلى أنه لم يكن يقوم بأى مجاملة روتينية ذات قيمة من أى نوع للملك على الرغم من أن كبير الأمناء كان قد أشار عليه بمثل هذه المجاملات:

«في عـامى ١٩٤٩ و١٩٥٠ قـمت بتـأليف أربعـة كـتب بالتـوالى: التمريض ـ الإسـعاف ـ الصحة ـ الأمراض الباطنة، وكنت أقـوم بتقديم نسخة بعـد طبع كل كتاب إلى الملك عن طريق المرحـوم عبد اللطيف باشـا طلعت كـبيـر الأمناء، ويصلـنـى رد جلالة المـلك بالشكر. وفى الكتـاب الثالث ثم الرابع أبلغنى عـبد اللطيف باشـا أن من المناسب أن أشيد بالملك فى المقدمة، فأجـبته بأن العلم لا يشترط ذلك، ولم أذكر شيئا عن جلالته فى أى مقدمة».

(٨)

ويبدو الدكتور زكى سويدان واعيا كل الوعى لمكانته كطبيب ممارس للطب وصاحب عيادة، ولهذا فـإنه يروى فى بساطة وبوضوح شديد أنه رفض منصب الوزارة كما رفض منصب السفير وذلك من أجل البقاء فى عمله الذى كـان يخصص له حيـاته ووقته، وسـنرى أيضا أنه رفض فى شبابه المبكر العمل كطبيب للملك:

أما قـصة رفضــه الوزارة فيرويهـا الدكتور زكى سـويدان على النحو التالى:

«فى عـصر يوم ٢١ أكـتوبر ١٩٥٥ جـاءنى السـيد إبراهيم مـصطفى بغدادى الذى صـار فيمـا بعد محـافظا للقاهرة، زائرا فى عـيادتى، ثم فاجـأنى بأنى مطلوب لكى أكون وزيرا للصحـة، فقد كان الدكـتور نور الدين طراف ـ الذى كان يشغل هذا المنصب ـ قد أصـبح رئيسا أو قائما بأعمال رئيس الوزراء، وطلب منى السيد إبراهيم بغدادى أن أرد عليه فى

خلال ٢٤ ساعة، فأجبته أن ردى هو الآن.. إنى لا أقبل هذا المنصب لأنى واثق أن عملى بالسماعة أحب إلىّ من أى منصب آخر، بل هو الأبقى لى والأفيد للمجتمع، ولهذا فإنى أشكر سيادة الرئيس وأرجو قبول اعتذارى».

....

ربما نتوقف هنا لنشير إلى أن نور الدين طراف قد أصبح رئيسا للمجلس التنفيذى للإقليم المصرى فى أكتوبر ١٩٥٨، ولسنا ندرى هل كان الدكتور زكى سويدان يقصد ١٩٥٨ وحُرفت الأرقام فى الطباعة إلى ١٩٥٥ وبخاصة أن تاريخ اليوم والشهر مضبوطان، أم أنه يتحدث عن ظروف واقعة أخرى حدثت فى ١٩٥٥.

....

أما واقعة رفضه العمل سفيرا فى السويد، فإنه يرويها فى إطار حديثه عن صداقته لكمال رفعت، وهو يروى القصة فيقول:

«... وقد سبق لى معرفته فى عام ١٩٥٧ (يقصد كمال رفعت) حين حضر إلىّ فى العيادة السيد سامى شرف سكرتير السيد الرئيس جمال عبد الناصر وطلب منى الاستعداد للسفر مع السيد كمال رفعت إلى استكهولم، وكانت علاقتنا بإنجلترا مقطوعة بعد حرب ١٩٥٦، وقال لى: إن السيد كمال رفعت قام بعمل نشيط جدا فى الخلفيات، وأن السيد الرئيس يطلب له العلاج بكل السبل الممكنة، وقد أصيب

فجأة بالتهاب فى عصبى النظر فضعف بصـره ضعفا شديدا، وقام مبدئيا الأستـاذ الدكتور عـبد المـحسن سليمـان بالكشف عليه، وقـرر وجود التهاب بعصب العين، وأنه سيـشفى إن شاء الله، وفى هذا اللقاء سألنى السيد سامى شرف إن كنت أوافق على تعيـينى سفيرا لمصر فى السويد، فاعتذرت قـائلا: إن سماعتى هى خير وسيلة لـلاتصال بالعالم، ووافقت على السفـر مع السيد كمـال رفعت، وفعـلا قمت معه إلى اسـتكهولم ومعنا الأستاذ عباس شوقى لمساعـدة السيد كمال رفعت فى السير، وقام الأطباء بفحص العين وانتهى التشخيص بعد حوالى خمسة أيام إلى نفس تشخـيص الأستـاذ الدكتـور عبـد المحـسن سليمـان الذى تم فى بضع دقائق، الذى أخبره أنه سيتحسن بالتدريج، وهذا ما لاحظته على سيادته فى الرحلة».

(٩)

كذلك يحـدثنا الدكتور زكى سـويدان فى هذه المذكرات عن وجـهة نظره فى رفضه العمل طبيبـا خاصًا للملك فاروق، ويبدو من حديثه فى هذه الجزئية مدى وعيـه لقيمة العلم والممارسة الطبية ولعـيوب السياسة ودسائس القصور، ويصوِّر الدكتور سويدان القصة والحوار بطريقة رائعة وبخاصـة عند قوله لمديره: إنه لا يعرف إذا كـان قد تربَّى أم لا؟، ومع هذا يعترف زكى سـويدان بفضل صديقه الدكتور رفـاعى كامل وصديق صديقه الدكتور يوسف رشاد فى حمايته من احتمال بطش الملك به:

«. . . عدت بعد ذلك إلى مقر عملى فى مـستشفى الملك بالمنيرة،

وذات صباح طلبنى على استعجال السيد الدكتور مدير القسم العلاجى بوزارة الصحة الدكتور عارف الذى تتبعه جميع مستشفيات القطر. فتعجَّبت لهذا الاستدعاء المفاجئ، وقبل دخولى إليه سألت السيد مدير مكتبه الأستاذ الصبان عن سبب هذا الاستدعاء العاجل فأخبرنى أنى مرشح لأكون طبيب الملك بدلا من المرحوم الدكتور فؤاد رشيد المحال للمعاش. [فاستعديت] نفسيا لهذا اللقاء، ودخلت إلى السيد المدير الذى بادرنى بعدة أسئلةمنها:

«س: مَنْ والدك؟».

«جـ: متوفى».

«س: هل عندك دخل غير المرتب؟».

«جـ: ولا مليم».

«س: كيف اتربيت؟».

«جـ: لا أعلم إن كنت قد تربيت أم لا، إنما الحكم لكم».

«س: الموضوع أنك مطلوب طبيب لجلالة الملك فاروق بمرتب ٨٠ جنيها فى الشهر، ولك امتياز سيارة القصر الحمراء».

«جـ: أنا لا أنفع لمثل هذا العمل، لأنى لم أترب لأتحمل العيش فى هذا الإطار».

«فبادرنى بقوله: حتروح، وقال الآية: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله﴾».

«وأجبته أني أعمل بـما يرضى الله، وكنت أعلم من بعض أصدقائى مدى الدس والنفـاق داخل القصر، ولما غـادرت مكتب المدير داخلنى الخوف من بطش الملك إذا علم بالرفض، فلجـأت إلى صديقى وأخى الدكتور رفاعى كامل، وكان صديقا للمرحوم يوسف رشاد طبيب الملك الخاص وصـديقه الشـخصى، وشـرحت له ظروفى،وأن ما أنـشده فى حيـاتى هو الاستمرار فى العلم والـتعلم، وأخشى أن ينهرنى أحـد فأرد النهـر، ثم أسجن أو أقذف فى الـشارع، والحق أقول إن هـذا فضل لا أنساه للدكتور رشاد».

«وذات يوم فى عام ١٩٤٦ كنت أقوم بعملى بقسم الأمراض الباطنة، وإذا بالدكتور فؤاد رشيد الإخـصائى الباطنى الذى كنت أعرفه منذ كنت معيداً إكلينيكياً فى مستـشفى الدمرداش يقبل علىّ ويسألنى: أين الدكتور سويدان؟ وأجبته: أنا يادكتور فؤاد بك، فقال: أنى أشكو من صداع من فتـرة، وطلب منى الكشف عليـه فقـمت بفحـصه، وبعـد أن تم ذلك فاجأنى بـسؤالى: لماذا رفضت أن تعـمل بالسراى؟ فأجبـته: تعرف أن كرسى القهوة البلدى المـضفَّر الذى أجلس عليه هنا ـ وهو أمامنا الآن ـ أطيب لى من الجلـوس على فراش وثـير، وأن العـمل هنا يسـعـدنى. فتـعجَّب وقال إنى صـغيـر كى أصل إلى هذا القرار، وهناك الكثـيريون يتطلعون إليه، فـقلت: هنيئاً لهم، أما أنا فإن هدفى هو اسـتمرار العلم وملازمته، فـقال: إنى أهنئك على هذا القرار، وسوف أهنئك بمسـتقبل باهر، فسألته: ولكن كيف علمت برفضى وأنا أحتفظ به سرًا ؟ فأجاب:

لى مصادر كثيـرة، ومنها زوج شقيقتى مراد باشا مـحسن ناظر الخاصة الملكية، فشكرته وانصرف».

«فى سبتمبر ١٩٦١ كنت أطوف العـالم، واستضافنى فى نيويورك ثم فى كناتيكت صـديق يهـودى أمـريكى عنده فى مـنزله الريفى، ورأيت صورة للدكـتور يوسف رشاد مع زوجة الصـديق وهو مع الملك فاروق فى رحلة الصـيف فى «دوفيل فى فـرنسا» وسـمحت لى الزوجـة بأخذ الصورة التى أهديتها بعد عـودتى للدكتور يوسف رشاد، إن لم تكن ردا لبعض الجميل فهى للذكرى».

(١٠)

وفى مقـابل هذا كله يتجلّى تمسك الدكـتور زكى سويدان بعـيادته، حتى إنه فـى بداية حياته الجـامعـية هدّد عمـيد الكليـة بالاستـقالة من التدريس فى الجامعة لو أنه طلب منه اعتزال العمل فى العيادة:

«. . . وكنت أمارس التـدريس يوميـا حوالى من ٦ إلى ٨ سـاعات لطلبة البكالوريوس، وقد لمست فيهم حـبهم لى مما شجعنى على بذل هذا المـجهود. وفى أحـد الأيام وأنا أقوم بالـتدريس قدّم لى الـساعى منشورا من السيد العميد المرحوم الأستاذ محمود عزمى القطان، يمنعنى من فتح عـيادة بالخارج، فأخـذت المنشور وغادرت الطلبة إلى الـسيد العـمـيد، وقـلت له: الأفـضل أن تغلق الكليـة فى وجـهى ولا أغلق عيادتى، فابتسم رحمـه الله وقال لى: هذه منشورات. . أنا أعلم مقدار ما تبذل، وعدت إلى الطلبة».

ويتأكَّد هذا المعنى أيضا فى موقفه مع الوزير كمال الدين حسين بعد أن حكم له القضاء فى جنحة أقامها على مدير الجامعة فى ذلك الوقت:

«. . . وأدخل بيتى فى أحد الأيام وإذا بالسيد عضو مجلس قيادة الثورة وزير التعليم السيد كمال الدين حسين يطلبنى تليفونيا لمقابلته فورا، فنزلت مع صديقى الدكتور رفاعى كامل وذهبنا إلى السيد الوزير، وكان يسكن فى ثكنات منشية البكرى، ومعه سكرتيره الأستاذ عبد المجيد شديد، وفاجأنى سيادته قائلا: كيف تجرؤ على رفع دعوى جنحة على مدير الجامعة؟ فقلت له: لقد أبلغته قرار المحكمة منذ عشرة أشهر ولم ينفِّذ الحكم، فقال: لم لم تخبرنى وأنت ترانى عدة مرات؟ فقلت له: إنى طبيب، وآتى إليكم للعلاج، ومع ذلك لقد أرسلت إليكم برقيتين معى صورة لكل منهما، ولم أسمع شيئا، فأجاب: أنا لا يمكننى الاستغناء عن مدير الجامعة، وأقل شيء بالنسبة لك هو النقل إلى جامعة الإسكندرية، فأجبته: فيه مكان واحد لن أنتقل منه وهو عيادتى ١ ميدان سليمان باشا بالقاهرة، فاستمهلنى قائلا: لم لا تذهب إلى المدير وتعتذر له؟ فقلت: أخشى إن أنا ذهبت إليه الآن أن يرفض لقائي، وأرى أن تبلغه سيادتك أولا كى تمهِّد لى الطريق فوافق. . . وانصرفت».

(١١)

ولا تخلو المذكرات من حديث متعدِّد عن الاختبارات الإيمانية والنفسية التى كانت تُفرض على صاحبها فرضا فيما يتعلَّق بأدائه لمهنته

وأرباحه منها، وهو ـ على سبيل المثال ـ يذكر واقعة تبين صدق العقيدة القائلة بأن الرزق يوصل من ناحية إذا قطع من ناحية أخرى:

«. . . وكنت لا أزال فى ضيق مالى. . واختارنى العميد لأكون طبيب الطلبة بمرتب عشرة جنيهات فى الشهر. . نعمة والحمد لله، وبعد حوالى ستة أشهر أبلغت أن هذا العمل أوكل إلى زميل آخر. . أقول الحق إنى لم أشعر بأى ضيق وقلت: ربنا يبارك له، وبعد خروجى من الكلية إلى عيادتى، وفى نفس اليوم، جاءنى خطاب من سفارة باكستان كى أكون طبيب أفرادها، وكان هذا يدر دخلا شهريا يبلغ حوالى ستين جنيها. . والحمد لله».

(١٢)

ومع كل هذا الحرص على إبراز الشموخ ومع كل هذا القدر المتحقِّق من الشهرة والنفوذ فإن زكى سويدان يعترف فى كثير من المواضع فى مذكراته بأنه عانى من النظم البيروقراطية والشمولية التى سيطرت على الحياة فى مصر فى الستينيات، ومن الجدير بالذكر أنه يذكر (ولا نقول يعترف) بتفصيلات ما كان يفعله أو يلجأ إليه من أجل التغلب على هذه العقبات، وقد كان يتغلب على مثل هذه العقبات بفضل علاقاته المتشعبة، ولعل القصة التالية تبين لنا طبيعة هذه الأجواء والظروف التى عاشها زكى سويدان فى فترة من الفترات وهو يتحدث فيها عن اعتزامه حضور أحد المؤتمرات الدولية فى خارج مصر فيقول:

«. . . كان قد قُبل لى بحثان فى هذا المؤتمر، ووضع اسمى فى

برنامج المؤتمر، وطبعا كان المتبع فى الموافقة على السفر «بدون تحويل عملة»، أى أن صاحب البحث المقبول يتكفّل بمصاريف السفر، ومصاريف الإقامة، ومصاريف الاشتراك فى المؤتمر ليلقى بحثا من مصر، ويُرفع فى المؤتمر علم دولة كل باحث، وتمت الإجراءات للسماح لى بالسفر من جامعة عين شمس، ولكن لابد من عرضها على السيد الوزير الدكتور عبد العزيز السيد للموافقة، وكان صديقا لى قبل الوزارة، فقابلته فى الوزارة الساعة ٧ مساء حسب موافقة سابقة، وكان العجب أن سيادته وضع طلب الجامعة فى الدرج وقال لى: سأنظر فى حالتك، ولم أجد مبررا للجلوس دقيقة واحدة فانصرفت».

. . . .

هكذا نرى الدكتور زكى سويدان وقد واجه الإحباط من مقابلته لصديقه الوزير المسئول عن التعليم العالى، لكنه لا يقف عند هذه الحدود البيروقراطية، وإنما يفكر فى حل آخر من خلال وزير آخر، وهو يروى فيقول:

«. . . وذهبت إلى الأستاذ الدكتور النبوى المهندس، وشرحت له الموضوع فكتب خطابا إلى السيد وزير الداخلية الذى صرح لى بالسفر، وفى اليوم التالى ذهبت إلى رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور محمد مرسى أحمد، وطلبت منه صورة من خطاب الجامعة إلى وزير التعليم العالى، فأمر بإعطائى صورة، فلما تسلمتها أخبرته أن هذا الخطاب بموافقة الجامعة يكفينى وأعتز به، أما موافقة السيد الوزير فلا تهمنى إطلاقا،

وأرجو سيادتك ـ وهو صديق لك ـ أن تخبره بأنى أخذت الفيزا، وليحتفظ سيادته بخطاب الجامعة فى درج مكتبه».

«وسافرت إلى البرازيل، ولكن فى طريقى كتبت رجاء إلى أحد المسئولين فى دول الخليج أرجو منه أن يرسل لى أتعاب علاج بعض المرضى بالجنيه الاسترلينى، ولقد وفَّى وأرسل لى أربعمائة جنيه استرلينى، أطال الله عمره ووفقه دائما، وطبعا هدأت وتفرغت للاجتماع العلمى».

«وكانت صعوبة الحصول على العملة الصعبة هى محور تفكير كل باحث يرغب فى الاستزادة العلمية، سواء من حضور المؤتمرات أو الاجتماعات العلمية بالخارج، وقد كان قصورى فى هذه الناحية سببا فى تعذُّر حضورى مؤتمر الجهاز الهضمى فى اليابان عام ١٩٦٦، رغم قبول بحث مهم لى عن مفاجآت تليف الكبد المنتشر فى مصر خاصة».

«وكثيرا ما كان يخطر فى فكرى أن الإخصائى المجتهد هو مصدر عملة صعبة لبلده، فكان الدكتور الكبير ـ إخصائى العيون فى أسبانيا ـ يسمح له بمقدار كاف من العملة الصعبة فى عهد الدكتاتور فرانكو، لأن كثيرا من المرضى يزورون أسبانيا للعلاج وطبعا كان هذا مصدرا للعملة الصعبة ».

ولا ينسى الدكتور زكى سويدان أن يعقِّب على هذه القصة بذكر موقفه من صديقه القديم عبدالعزيز السيد وزير التعليم العالى، وكيف أنه كان حريصاً على أخذ حقه منه!!:

«. . . وتشاء الظروف أن تجمعنى بالسيد وزير التربية والتعليم السيد يوسف فى منزل المرحوم الأستاذ عبد الحميد الحديدى فى ليلة رأس السنة لعام ١٩٦٧ [ربما نتوقف هنا لنشير إلى أن عبدالعزيز السيد عمل وزيراً للتعليم العالى حتى أكتوبر ١٩٦٥، ثم عاد إلى الوزارة ليخلف السيد يوسف كوزير للتربية والتعليم ما بين يونيو ١٩٦٧ ومارس ١٩٦٨]، وإذا بالسيد وزير التعليم العالى يجىء ويجلس بجوارى، ويضع يده على كتفى، فلم أعطه أى اهتمام، وإذا بالسيد يوسف يقول لى: يازكى، وزيرك بجوارك، فأجبته أن الأستاذ زكى سويدان ليس برأسه أى وزير، فقال لى: الدكتور عبد العزيز السيد بجوارك يازكى، فقلت له: إنى لا أعرف أحدا بهذا الاسم، ولا تسرنى معرفته، فخجل السيد يوسف ولم يتكلم، فقال لى الدكتور عبدالعزيز: أنت زعلان منى يازكى، أنا أعتذر لك، فقلت له: إن موعد الاعتذار قد فات وتركت مكانى إلى أصدقاء آخرين، فقدم الوزيران ورجوانى فى قبول اعتذار الدكتور عبدالعزيز فقلت: من أجل خاطر السيد يوسف سأقبل هذا الاعتذار، فقال لى: نحن أصدقاء من زمان يازكى، فقلت له: سبق أن رفضت أنا الوزارة، ويجب أن يعلم كل منا مكانه فى المجتمع».

وتأتى للدكتور زكى سويدان فرصة ثانية للانتقام أو لإظهار موقفه من صديقه القديم الوزير السابق:

«ومضت الأيام وإذا بى ـ وأنا أعمل فى مستشفى المعادى للقوات المسلحة ـ أن أُحضر الدكتور عبد العزيز السيد مريضا، وأبلغت بطلب

الكشف عليه وأنا أتابع السيد عباس رضوان وزير الداخلية السابق، فاعتذرت عن الاشتراك فى هذا العمل، ولكن السيد عباس رضوان قال لى: لا.. أنت طبيب قبل أى شيء، فاقتنعت بأنه على صواب، واشتركت فى لجنة الكشف عليه».

(١٣)

ويبدو بوضوح أن الدكتور زكى سويدان كان يعانى نفسياً ووجدانياً وفكرياً من الأساليب الإدارية فى تسيير الأمور فى هذه الحقبة، ولعل هذا هو ما جعله حريصاً على أن يبقى بعيدا عن المناصب الإدارية على الرغم من مكانته العلمية المرموقة، ويكفينا للتدليل على معاناته من هذه النظم ما يرويه عن ذلك القرار الذى كان عليه أن يوافق عليه (كعضو فى مجلس إدارة أحد المستشفيات) وهو قرار توزيع الأدوية غير الصالحة إجباريا:

«... ورأس الاجتماع فى إحدى المرات المرحوم الدكتور محمد النبوى المهندس وزير الصحة، وأخذ النقاش يمضى كالعادة، خاصة فى حوافز العمل، وكيف أن المستشفى يضطر لأخذ أدوية مضى زمن صلاحيتها، وإلا فيحرم من الحصول على باقى ما يطلبه من الأدوية من الهيئة العامة للأدوية».

....

وفى موضع آخر يروى الدكتور زكى سويدان باختصار سبب استقالته من عضوية مجلس إدارة مستشفى العجوزة فيقول:

«وإذا برئاسة المجلس تستبعد موضوع الجزاءات عن الإهمال أو السرقات، فقدمت استقالتى من المجلس».

□

وفى نفس هذا الإطار يروى الدكتور زكى سويدان السبب الذى جعله ينسحب من عضوية اللجان العلمية الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين فى الجامعات المصرية، وهو يروى أن هذا الانسحاب قد تم منذ تاريخ مبكر بالنسبة لعضويته بها (١٩٦٩)، ويعلل أسباب هذا الانسحاب فيقول:

«بدأت اللجان العلمية وبدأت عملها، وأصبحت أنا فى عام ١٩٦٧ عضوا بها، لكن لأن الخلل قد أصابها، خاصة لعدم وجود محاضر ثابتة، وعدم إثبات بحوث المتقدمين إلى الترقية إلى وظيفة أستاذ مساعد، فقد طلبت إعفائى منها فى عام ١٩٦٩، فقد كان المتقدمون للأستاذية يتقدمون ببعض بحوثهم التى سبق أن تقدموا بها إلى وظيفة أستاذ مساعد، كما أن جميع البحوث التى تعرض على اللجان العلمية كان لا يستفاد منها فى حل مشكلات مصر واقتصادياتها».

(١٤)

ويحرص الدكتور زكى سويدان على رواية كثير من متاعبه من النظام السياسى على الرغم من أنه كان يحتل مكانة متميزة بين مَنْ تعاونوا مع النظام السياسى فى عهد الثورة، لكنه مع هذا يشكو بمرارة من كثير من التصرفات، وقد أشرنا إلى شكواه من عقم أسلوب الموافقة على سفر

الأساتذة لحضور المؤتمرات، كما رأينا شكواه من فساد القرارات التى تحكم مجالس إدارة المستشفيات، ومن سوء الأداء فى اللجان العلمية الدائمة لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين، وقد واجه هذا كله بالاستقالة والاحتجاج، وها نحن نراه حريصاً على الإشارة إلى مدى التعنت الذى كانت الجهود الأهلية تُواجه به فى حقبة الستينيات، وهو يقدم لهذا المعنى قصة مطولة عن انتوائه المساعدة فى بناء مسجد الجامعة وما صادفه هذا المشروع من مماطلة وتأجيل عاما بعد عام حتى اضطر اضطراراً إلى سحب مشروعه والتوقف عن الجهد الذى بذله:

«. . . فى عام ١٩٦٢ طلبنى السيد رئيس الجامعة، المرحوم الأستاذ الدكتور أحمد بدوى، فلما ذهبت إليه عرض علىّ فكرته، وهى إنشاء مسجد لجامعة عين شمس فى أرض السراى المطلة على نفق العباسية، وطلب منى جمع التبرعات، فوافقت لأنى استحسنت الفكرة».

«وبدأت فى جمع التبرعات من معارفى وأصدقائى، فمثلا ساهمت السيدة أم كلثوم بـ ١٥٠ جنيها، والأستاذ محمد عبد الوهاب بـ ٢٠٠ جنيه، والأستاذ عبد الحليم حافظ بـ ١٠٠ جنيه، والأميرة حصة بنت الملك عبد العزيز آل سعود بـ ٢٠٠ جنيه، والمرحوم الشيخ محمد سرور الصبان بـ ٥٠٠ جنيه، وإحدى الحاجات من جنوب إفريقيا ـ وهى فى طريقها إلى مكة ـ وقد استدعتنى لمرضها فعرضت عليها الفكرة فتبرعت بـ ١٠٠ جنيه استرلينى، ثم تبرع السيد وزير الأوقاف أحمد طعيمة بـ ١٠٠٠ جنيه».

«وقدمت هذه المبالغ إلى السيد الأستاذ محمد مرسى أحمد رئيس جامعة عين شمس، إذ أن الأستاذ الدكتور أحمد بدوى كان قد نقل رئيسا لجامعة القاهرة».

«ولما لاحظت أنه لا توجد أى مبادرة لتنفيذ المشروع طلبت من السيد رئيس الجامعة البدء فى إقامة المسجد، ولو بإقامة الأعمدة الخرسانية، حتى تعود الثقة إلى مَنْ تبرَّع، وحتى يمكن استزادة التبرعات، ولما تلى ذلك من تجميد الموضوع رأيت البدء فى إقامة الأعمدة، كما عرضت ضم مرتبى الشهرى إلى تكاليف المشروع لتكملة نفقات إقامة الأعمدة، وعرض هذا الرجاء على مجلس الجامعة فرفض هذا العرض».

«ثم جاء المرحوم الأستاذ الدكتور إسماعيل غانم رئيسا لجامعة عين شمس، فما كان منه إلا أن حول جميع أموال التبرعات إلى وزارة الأوقاف قائلا: إن هذا الموضوع من اختصاص وزارة الأوقاف».

«وتاهت أموال التبرعات حتى عام ١٩٧٣، حين اتهمت الجامعة بتبديد أموال سلمتها إليها، وأما من ناحيتى فقد رجوت المرحوم العالم الجليل الدكتور عبدالحليم محمود - وكان وزيرا للأوقاف فى ذلك الحين - أن ترد هذه الأموال إلى جامعة عين شمس، فقام بإصدار الأمربذلك . . رحمه الله».

«ولم تجد الجامعة بدا فيما بين عامى ١٩٧٣ و١٩٧٦ من صرف هذه المبالغ فى عمل مماثل، وهو إقامة مسجد بكلية طب عين شمس».

(١٥)

ونأتى إلى بغض نماذج من الجوانب المتعددة فى علاقة الدكتور زكى سويدان بمرضاه، ونبدأ بعلاقتـه التى تحظى بشهرة واضحة نجد صداها فى الكتب التـاريخية والفنيـة، وهى علاقـته بعدد من الفنانـين الكبار. ولعل من أهم مـا ترويه هذه المذكـرات تفصـيلات مـرض الفنان عـبد الحليم حـافظ والعـلاجات والآراء التى أبديت فى تشـخـيص حالتـه، والتدخلات السـياسية المـتعددة فى مثل هذا العـلاج، وهى التدخلات التى جعلت علاج هذا الفنان يتم تحت إشـراف المشير عامر شـخصيا، ولاشك أن علاج الـدكتور زكى سـويدان لعبـد الحليم حافـظ كان من أسباب شهرته وذيوع صيتـه، ويمكن القول بأن الفنان عبد الحليم حافظ كان أكثـر مرضى الدكتور سويدان شهـرة، كما كان أكثرهم إسـهاما فى توسـيع شهـرته، وبخـاصة أنه كـان يصحـبـه فى رحلاته للعـلاج فى الخارج، وتنشـر الأخبار اسـمه فى كل خبـر يختص بحـياة هذا الفنان ومرضه التى ارتفع الاهتمام بهما إلى درجة موازية ومواكبة للاهتمام بفنه وحفلاته وعـلاقاته، ونحن نرى زكى سويدان يفرد صفـحات عديدة من مذكراته ليورد فيها تفاصيل علاقته بالفنان عبد الحليم حافظ وتفصيلات مرضه وعلاجه وسفرياته للخارج من أجل العلاج.

وهو يتحدث عن بدء علاقته بهذا الفنان فيقول:

«... فى ٣١ مـارس ١٩٥٥ كنت مـدعوا مـن صديقى الـمرحـوم الأستاذ مـدحت المليجى لحفل عيد مـيلاد حرمه، وحضـر عبدالحليم

ورجوناه فـى الغناء لكنه اعتـذر لضيق وقـته، فقـلت له أمام الجـميع: أرجوك أن تغني.. لكنـه اعتذر.. فقـلت له: غن لأنك ستحـتاج إليّ قريبا».

ويردف الدكتور زكى سويدان مباشرة بقوله:

«سبـحان الله بعد أقل من شـهر فى يوم ٢٣ أبريل ١٩٥٥ حُمل إليّ فى عيادتـى عبد الحليم وهو ينزف، من شدة النزف نهـض فجأة وبدون وعى وكسر لى حصانا أبيض جمـيلا من الخزف كان زينة لعيادتى، ولم أعبأ، وحملناه مباشرة إلى مستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية وباشرت إسعـافه بنقل دم فى الحـال مع باقى العلاج، وأشـهد الحق أن جـميع الفنانين كانوا يقيـمون الليل والنهار حوله، وعلى رأسهم الأستـاذ محمد عبدالوهاب».

□

ويسجل الدكتور زكى سويدان فى مذكراته بدقة شديدة تواريخ نوبات النزيف التى عـاناها عبد الحليـم حافظ ، وسنرى أن التاريخ الـمعتـمد لميلاد عبد الحليم حافظ فى نظر الدكتور سويدان هو ٢١ يونيو ١٩٢٩، مع أن بعض المصادر لا توافق على اعتماد هذا التاريخ.

وسـوف نقدم للقـارئ فى الفقـرات التـالية بعض مـلامح تطور هذا المرض بانتقاء ما يرويه الدكتـور زكى سويدان من الأحداث الرئيسية فى هذا المرض وترتيـبها زمنيـا وذلك من ضمن التفـصيلات الكثـيرة التى يوردها بل يكررها صاحب المذكرات:

«النزيف الأول كان فى يناير ١٩٥٥، والثانى فى ٢١ أبريل ١٩٥٥، ثم فى ٢٦ أبريل ١٩٥٥، ثم فى ١٩٥٦ وكان عمره ٢٦ عاما».

«ونظرا لخطورة النزيف خاصة أنه تكرر، فقد اتصلت بالبريد بالجراح العالمى مستر نورمان تانر واتفقنا على سفر عبد الحليم إليه فى لندن، وتم هذا، ودخل عبد الحليم فى ٢٨ يوليو ١٩٥٦ مستشفى سانت جيمس، وأرسل إلىّ عبد الحليم برقية استدعاء يطلبنى للسفر إلى لندن لأن العملية تقرر إجراؤها فى يوم الثلاثاء القادم الساعة ٩ صباحا، فسافرت فى الحال وأعطيت أنا إقامة مع الأطباء فى المنزل المخصص لهم، وبعد إجراء الفحوص تقرر إجراء العملية الشهيرة باسم الجراح تانر فى ٨ أغسطس ١٩٥٦، وهى قطع الاتصال بين الدورة الدموية البابية والدورة الدموية العامة، باستئصال مكان اتصالهما الشائع أسفل المرىء، واستغرقت العلمية حوالى ثلاث ساعات، إلا أنه بمجرد انتهاء العملية كان عبد الحليم منتبها، وذلك لكفاءة طبيب البنج دكتور كلارك، ولازمت عبد الحليم ستة أيام متصلة ليل نهار حتى زالت الخطورة، ثم أصبت أنا بقرحة فى عينى اليسرى وبدأت أباشر علاجها، وفى خلال هذه الأيام الستة اتصل بنا الدكتور سيد كريم المهندس العالمى من باريس، ثم حضر هو والسيدة حرمه إلى لندن للاطمئنان على عبد الحليم».

□

ويروى الدكتور زكى سويدان قصة جراحة فتق فوق السرة أجريت

لعبد الحليم حافظ فى صيف ١٩٥٨ فى معرض حديثه عن نجاح العملية الأولى:

«وفى يوليو ١٩٥٨ أجريت له عملية صغيرة فوق السرة كانت مصدر ألم له، وثبت حينذاك بالمنظار أن العملية الأولى ناجحة».

وفى موضع آخر يورد الدكتور سويدان تفصيلات هذه العملية فيقول:

«ثم عاوده ألم فى موضوع ندبة العملية، ووجدت فتقا صغيرا هو مصدر الألم، فسافرنا إلى لندن فى يوليو ١٩٥٨، وعملت له عملية إصلاح الفتق الذى كان مصدر الألم، وثبت بالمنظار المعدى أن العملية الأولى ناجحة».

ولا ينكر الدكتور زكى سويدان أنه انتهز فرصة وجوده فى لندن لدعوة زميله الدكتور رياض فوزى للسفر إلى لندن للترويح عن نفسيهما فى ظل اهتمام المسئولين بعلاج عبد الحليم حافظ وإذنهم لمثله ولمثل زميله بالسفر من أجل هذه الغاية:

«وفى أثناء العملية طلبت من لندن الاتصال بالزميل المرحوم دكتور رياض فوزى، وتم هذا فعلا ولكنى قلت له: اعمل ترتيبك كى تحضر إلى لندن لأن عبد الحليم تعبان. وحضر بعد يومين، وكان هدفى الترويح عن الدكتور رياض وعن نفسى مادام ذلك ممكنا مع جميع المسئولين».

. . . .

وفى المقابل فإن الدكتور زكى سويدان حريص على أن يشير إلى أنه كان قد تكفل فى عام ١٩٥٩ بمصروفات إقامته فى لندن من أجل الإشراف على علاج عبد الحليم حافظ:

«... وفى عام ١٩٥٩ طلبنى الشيخ خالد شقيق الشيخ سعد العبد الله الصباح رئيس وزراء الكويت وولى العهد حاليا، أقول طلبنى لإجراء كونسولتو له فى لندن، فسافرت فى ١٣ أبريل ١٩٥٩، ووجدت المريض فى انتظارى بالمطار هو وسكرتيره. وأقمت معه أسبوعا فى فندق وست برى، وأعطانى مبلغا من المال نظير أتعابى الطبية للاشتراك فى الاستشارات الطبية واستدعائى، فى أثناء هذه الفترة وصلنى تلغراف من عبد الحليم يرجونى انتظاره فى لندن لإجراء الكشف عليه وعمل الفحوص الطبية، وكنت قد انتهيت من مهمتى، فاضطررت إلى البقاء فى لندن على نفقتى مدة أسبوع حتى وصل عبد الحليم فى ٢١ أبريل ١٩٥٩، وقمت بعمل الاستشارات الطبية والفحوص اللازمة فترة أسبوع آخر، ثم عدت راجعا إلى القاهرة، وفى أثناء هذه الفترة عمل عبد الحليم كشف بالمنظار المعدى وعملية إصلاح الفتق فى ٢٣ أبريل ١٩٥٩».

كذلك يروى الدكتور زكى سويدان بعض التفاصيل عن سفر الفنان عبد الحليم حافظ إلى لندن فى أبريل ١٩٦١ وهى الزيارة التى استؤصلت فيها مرارة هذا الفنان وذلك بعد ثلاثة أسابيع من سفر الدكتور زكى سويدان إليه فى لندن:

«... بعد ذلك بدأ عبد الحليم يشكو من مغص مرارى، فسافر إلى لندن فى ١٥ أبريل ١٩٦١ ووعدته بالحضور بعد إتمام إجراءات السفر المعقدة للموظف [الإشارة إلى أن زكى سويدان كان موظفاً، على خلاف عبد الحليم، وكانت إجراءات سفر الموظفين معقدة]، وأرسل عبد الحليم ببرقية ضرورة سفرى إليه عاجلا حيث إن عملية المرارة تقررت بعد أسبوع فى مستشفى سانت جيمس، وفعلا سافرت فى ١٨ أبريل ١٩٦١ على طائرة الخطوط البريطانية الساعة ١٢ ظهرا ، وما كدت أجلس فى مقعدى حتى شاهدت الأستاذ كمال الطويل يعدو بسرعة كبيرة وخلفه حرس المطار، واندفع داخل الطائرة وارتمى على الكرسى المجاور لى، إذ أنه كان لم يتمم إجراءات السفر، وقد بدأها الساعة العاشرة والنصف صباحا بادئا بطلب الإجازة، ثم الفيزا، ثم سرعة الوصول إلى المطار، ثم ترك حقيبته لرجال الجمارك كى يقفز لداخل الطائرة قبل إقفال الباب».

....

«... فى ٢٠ أبريل ١٩٦١ دخل عبد الحليم مستشفى سانت جيمس، وفى اليوم التالى عُمل له كونسولتو بوجودى بالاشتراك مع الدكتور تانر والأستاذ افرى جونز [حاليا سير فرانسيس افرى جونز]، وفى ٢٥ أبريل ١٩٦١ كان قد عملت له أشعة، وفى ٢٦ أبريل ١٩٦١ عمل له كونسولتو مع الأستاذة شيلا شرلوك، وعملت له عملية

استئصال كيس المـرارة الحاوى للحصى المرارى فى ١٠ مايو ١٩٦١، وقد شوهد الكبد فى أثناء العملية به تليف وضمور فى الحجم».

. . . .

ولا يمل الدكتور زكى سـويدان من تكرار الإشارة إلى أن الكشف قد أثبت نجاح الجراحة الأولى التى أجريت لعبد الحليم حافظ فى ١٩٥٦، ويبدو من هذا الحـديث أن الاتهامات بفشل هذه العلمـية الأولى كانت قاسية حـتى إن الدكتور سويدان كان حريصاً فى مـذكراته على أن ينتهز كل فرصة متاحة للحديث عن أنها كانت ناجحة:

«. . . وعـمل له كونسـولتو مـع الأستـاذة شيـلا شرلوك وجـاء فى تقريرها أن العـملية التى أجراها له الدكتور نـورمان تانر فى عام ١٩٥٦ كانت ناجحة جدا، وحاليا عملت له عملية استئصال كيس المرارة لوجود حصى بها ولا يوجد أى داع لإجراء أى جراحة له فى الوقت الحاضر».

. . . .

ثم يروى الدكتور زكى سـويدان فى عبارات مختصـرة ملخصا لآراء المتابعة التى أبداها الأطباء فى حالة الفنان عبد الحليم حافظ:

«فى ٢٥ مايو ١٩٦١ حـضر مسـتر تانر بناء على دعوة وزيرالصـحة للقيـام ببعض العمـليات وإلقاء المـحاضرات فى قـاعة معـمل المصل واللقاح، وطبعا كان يشرف معى على عبد الحليم»

«فى ١٤ سبتمبر ١٩٦٢: تقرير الأستاذة شيلا شرلوك: حالته طيبة».

«فى ٩ أكتوبر ١٩٦٢: تقرير مستر نورمان تانر: حالته مطمئنة».

«فى ٢٦ سبتمبر ١٩٦٣: تقرير الأستاذ دكتور رودنى سميث الجراح العالمى أن النزيف المتكرر ليس خطيرا وأن عملية إيصال الوريد البابى بالوريد الأجوف السفلى تعرضه للاضطرابات العصبية النفسية، ولهذا لا أنصح بها نظرا لعمله الفنى الدقيق، وأنصح إذا تكرر النزيف بإجراء حقن الدوالى».

«وفى ١٩ نوفمبر ١٩٦٣ من خطاب الأستاذة شيلا شرلوك: انتهت عملية ربط باقى دوالى المرىء بمعرفة الدكتور تانر في مستشفى سانت جيمس».

«فى ١٩ يناير ١٩٦٤ عقدت كونسولتو مع مستر تانر فى القاهرة بعد نزيف بسيط».

«وفى ٢٠ مارس ١٩٦٥ عقد الكونسولتو الأخير مكونا من الأساتذة الأطباء: عبدالله الكاتب ومحمود صلاح الدين، ورياض فوزى، ومنصور فايز، ومحمود عبد الرازق، وأوصوا بتجنب عملية «لنتون» ولدىّ المستند الأصلى بتوقيع جميع الأساتذة بذلك».

ينبغي أن نتوقف هنيهة لنشير إلى أن الدكتور سويدان يقصد بعملية لنتون الإشارة إلى رأى الدكتور لنتون الذى كان يقترح توصيل الوريد البابى بالوريد الأجوف السفلى علاجاً لمثل حالة عبد الحليم حافظ،

وهو رأى لم يكن زكى سويدان يوافق عليه، وهو من ثم يسمى العملية باسم من اقترحها وهو الدكتور لنتون.

□

ولا يجد الدكتور زكى سويدان حرجاً فى أن يستعين بفقرات مكتوبة فى صحافة السنوات اللاحقة على تسجيل التاريخ المرضى لعبد الحليم حافظ نقلاً عن تلخيص صحفى عرضته جريدة الأخبار:

«فى يوم ٢ أبريل ١٩٧٠ اشترى عبد الحليم شقة فى لندن من صديقه محمد نصير زوج ابنة البغدادى، حتى يتيسر له البقاء على مقربة من أطبائه الإخصائيين بمستشفيات لندن حيث تقتضى الضرورة أن يكون تحت رعايتهم والكشف عليه من وقت لآخر».

«فى يوم ٢٠ أبريل ١٩٧٤ سافر إلى فرنسا للعلاج على نفقة الملك الحسن ملك المغرب واستغرق علاجه شهرين، ونصف شهر تحت إشراف الطبيب العالمى سارازان».

«فى يوم ١٣ يناير ١٩٧٧ سافر عبد الحليم إلى لندن لإجراء عملية الحقن السنوى وظل بها مدة ٢٢ يوما عاد بعدها إلى شقته، لكنه عاد إلى المستشفى بعد ستة أيام عندما زادت نسبة الصفراء وانتابته حالة الاستسقاء، وبعد ٢٩ يوما صارع فيها المرض أصيب بحالة نزيف لم يتوقف إلا بوفاته فى مارس ١٩٧٧».

(١٦)

وتجدر الإشارة إلى أن من أبرز ما يحرص عليه الدكتور زكى سويدان فى مواضع كثيرة من مذكراته الإشارة إلى أنه لم يفد ماديا من علاجه لعبد الحليم حافظ، بل إنه تكلف بعض النفقات فى سبيل هذا العلاج وفى سبيل سفره إليه، وقد ذكرنا من قبل إشارته إلى إنفاقه على زيارة عبد الحليم فى ١٩٥٩، وهذه إحدى الفقرات الأخرى التى يصور بها الدكتور سويدان هذا المعنى:

«... فى يوم السبت ١٢ أكتوبر ١٩٦٣ كنت راجعا من مؤتمر بالبرازيل عن طريق لندن لمدة خمسة أيام، ومصادفة قابلنى الأستاذ مجدى العمروسى محامى عبد الحليم فى ميدان بيكاديللى القريب من نادى سانت جيمس الذى كنت عضوا به، وأخبرنى بمرضه فى مستشفى سانت جيمس، وكان موجودا الأستاذ محمد عبد الوهاب وكمال الطويل ومنير مراد، ووجدتهم يبكون، ورحت يوم الاثنين وكشفت على عبد الحليم، وقلت لهم: إن شاء الله يبقى كويس باكر.. وأوقفت نوعا من الدواء بعد أن اقتنع الطبيب المباشر برأيى.. وفعلا تحقق ما قلته، وبعد يومين عدت إلى القاهرة».

«وأمضيت أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء دون أن أتمكن من قضاء مستلزمات لى سواء علمية أو سلعية، ولكن منعتنى من ذلك مباشرة عبد الحليم وابن الأستاذ محمد التابعى الذى كان يعالج أيضا فى لندن، وقد استغرقت مباشرتهما إلى مساء الأربعاء حتى وقت متأخر، وقد انتهت

آخر مواعيد الأتوبيس وقطار تحت الأرض الموصلين إلى فندقي، ولم يكن قد بقى معى سوى أربعة شلنات لا تكفى لاستئجار تاكسى، فمشيت سيرا على قدمى قرابة ساعتين حتى وصلت الفندق فى الساعة الثانية صباحا، وكانت شركة مصر للطيران قد وعدتنى بالركوب مع بعض أفرادها إلى المطار الساعة السابعة صباح الخميس ١٧ أكتوبر ١٩٦٣، وعدت والحمد لله إلى القاهرة، وكان الأستاذ مجدى العمروسى قد أخبرنى بما قام به عبد الحليم من مصروفات بالغة لإسعاد الأفراد من بعض أسرته، ولم يطاوعنى ضميرى أن أطلب أجرة تاكسى من الأستاذ العمروسى، وفضلت [أن أبقى] رافعا هامتى».

□

وفى فقرة أخرى يقول الدكتور زكى سويدان:

«وأقول، للعلم، إن عبد الحليم لم يقم طول إشرافى الطبى فى القاهرة وفى لندن بتحمل أى نفقات الإقامة، أى أنه على نفقتى الخاصة».

«وفى المرة الأخيرة صرفت حوالى نصف ما حصلت عليه من الأمير [يقصد الأجر الذى حصل عليه من الأمير الذى دعاه للكشف عليه ومتابعة علاجه فى الخارج]، بل إنه عند سفرى كنت قد تركت ورقة بمائة جنيه فى منزلى فى القاهرة، وفى أثناء فترة انتظار عبد الحليم فى لندن صدر قانون إلغاء هذه الورقة، واحتفظ بها للآن للذكرى».

يشير الدكتور سويدان بهذه الواقعة إلى قصة إلغاء الورقة ذات [مائة الجنية] وكانت الحكومة المصرية قد أعلنت عن إلغائها ووقف التعامل بها فى موعد محدد، ثم عادت وقدمت هذا الموعد دون سابق إنذار مما أدى إلى أن فقدت تلك الورقة قيمتها وأصبح حائزوها يحتفظون بها كذكرى فحسب.

وفى خضم كل هذه التفصيلات يشير الدكتور زكى سويدان إلى بعض رسائل الشكر التى تلقاها من عبد الحليم حافظ، ومن هذه الرسائل هذه الرسالة:

«عزيزى الدكتور زكى

«من كل قلبى أشكرك على ما تقوم به من كبير الخدمات إلى الفتى الصغير الشقى عبد الحليم حافظ.. على كل حال إنه ابنك.. وأنت حر معه.. إن دقات قلبه تدعو لك.. فهل لك أن ترعى هذا القلب حتى يستمر فى الحياة يدق وتدعو لك هذه الدقات.. لك حبى.. ودعائى.. وشكرى.. طول عمرى».

«ابنك الصغير: إمضاء عبدالحليم حافظ، ١ مارس ١٩٦٣».

(١٧)

ونتقل بعد هذا مع الدكتور زكى سويدان إلى ما يرويه من تفاصيل كثيرة يلخص بها معاناته مع الآراء والأنباء الصحفية التى كانت تتحدث عن علاجات مختلفة لمرض الفنان عبد الحليم حافظ، ولنقرأ بتمعن

على سبيل المثال هذه الفقرة لما تحتويه من تفصيلات كفيلة بتصوير جو الوعى الطبى والفنى فى ذلك الوقت:

«... فى ٦ فبراير ١٩٦٤ طلعت [يقصد: صدرت] إحدى الجرائد (الأهرام) فكشفت لى ما خفى علىّ من التصرفات، ومنها أن المرحوم المشير عبد الحكيم عامر أمر بسفر عبد الحليم من لندن إلى أمريكا فى ٢٩ فبراير ١٩٦٤ تحت إشراف المرحوم اللواء الدكتور محمود عبد الرازق الجراح بالقوات المسلحة إلى الدكتور لتون، الذى نصح بإجراء عملية شبك الوريد البابى بالوريد الأجوف السفلى بعد أن دخل مستشفى ماساشوستس فى بوسطن فى الحجرة ٨٠٥ فى يوم ٢ مارس ١٩٦٤ لمدة ٢٠ يوما، وأن عملية ١٩٥٦ التى أجراها تانر ومعه الدكتور سويدان كانت خاطئة، لأنها أزالت الطحال الذى كان يمكن إيصال شريانه بوريد الكلية اليسرى».

«وبعدها زارنى اللواء طبيب محمود عبد الرازق بالمنزل بحضور صديق لى هو المرحوم الأستاذ عثمان المنشاوى المحامى، وأخذ يدافع عن ضرورة إجراء العملية، وأخذت أعارضه لدرجة أنى قلت إن هذه العملية ستقضى نهائيا عليه، وكان الحوار باللغة العربية حتى يمكن لصديقى متابعة الموضوع».

«ثم وصلنى تقرير من الدكتور الجراح الأمريكانى دكتور لتون بضرورة العملية، ورددت عليه بأن كل ما شاهده ورآه بالفحص والأشعات أنا قد عرفته من قبل، وأن العملية أولا ستقضى عليه فنيا،

هذا إذا نجا حيا، وأن تقييم ذلك فى إحدى المجلات العلمية التى حددتها له، وأرسلت نسخة من ردى على الدكتور لنتون إلى الأساتذة فى لندن نورمان تانر، وشيلا شرلوك، وقد ترجمت خطاب لنتون وردى عليه برفض العملية، وأرسلت بهما إلى مكتب رئيس الوزراء، إذ أن عبد الحليم حافظ كان تحت إشراف المشير، لهذا طلبت من المرحوم الدكتور محمود عبد الرازق أن يعفينى من الإشراف على عبد الحليم، إذ أن السيد المشير قد أوصى بذلك».

«وكان عبد الحليم حافظ قد تعرض فى طريق عودته من أمريكا، حيث عولج، لأزمة صحية فى سويسرا، حيث أمضى يومين، إذ شعر بحالة إرجاع لطعامه من معدته توقف فجأة عند حلقومه ولم يستطع أن يتجشأ فأسعفه طبيب هناك».

□

ويروى الدكتور سويدان تفصيلات هذا الخلاف العلمى فى موضع آخر من مذكراته على النحو التالى:

«وفى ٦ فبراير ١٩٦٤ [وهو نفس اليوم الذى نقل فيه ما أوردته الأهرام مما نقلناه عنه فى الفقرة السابقة] جاء فى جريدة (الأخبار) أنه فور وصول حليم إلى لندن سيعمل له كونسولتو مع الأطباء الذين كانوا على صلة بفحص صحة عبد الحليم طوال السنوات الخمس الماضية وهم الدكاترة: تانر، والن هانت، وافرى جونز، وشيلا شرلوك، وفى ذات الجلسة سيتصل عبر الأطلنطى تليفونيا بالطبيب الأمريكى دكتور

لنتون ليشترك معهم فيما يتبعونه بالنسبة لقرار ما إذا كان من المستحسن إجراء العملية لعبد الحليم أم لا».

«وكان تانر يرى أن يوالى العلاج من غير إجراء العملية، بينما يرى الطبيب الأمريكى دكتور لنتون، الذى كان يعالج عبد الحليم فى بوسطن، أن يجرى العملية فى سبتمبر القادم، وكان ردى على الدكتور لنتون الآتى:

«إن العملية التى أشرتم بها لا أوافق عليها، وذلك للاضطرابات العصبية والنفسية التى سوف يتعرض لها بعد هذه العملية، هذا إذا اجتاز العملية بنجاح، إذ أن خمسين فى المائة من الحالات بعد العملية يتوفون فى خلال عام، وهذا ما سبق أن نشرته أنتم فى المجلة البريطانية (العدد عام ١٩٦١ العدد ١ ص ٩٢٨)، وقد أرسلت نسخة من تقريرى هذا إلى الدكتور نورمان تانر، وإلى الأستاذة شيلا شرلوك».

«وقد جاءنى رد الدكتور لينتون ليترك الخيار لعبد الحليم فى ذلك».

«وقد أرسلت ترجمة تقرير الدكتور لنتون وردى عليه إلى السيد رئيس الوزراء كى أحاول تجنب هذه العملية، ثم جاءنى المرحوم الأستاذ لواء طبيب محمود عبد الرازق بالمنزل مرسلاً من السيد المشير عبد الحكيم عامر وأخذ يناقشنى فى معارضتى للعملية فقلت له: إن هذه العملية ستقضى على عبد الحليم، سواء كان بالحياة أو الوفاة ورفضت الموافقة عليها».

يقصد زكى سويدان: أن نتيجتها سلبية فى الحالين كما سبق أن أوضح.

□

ويفصح الدكتور سويدان عما لا نوافقه عليه مما يسميه هو «دور الصحافة فى إشعال الخلاف حول الآراء الطبية المختلفة فى الأسلوب الأمثل لعلاج عبدالحليم حافظ» وموقف الصحافة من مثل هذه القضية أمر طبيعى فى رأينا، وليس على الطبيب أن يجزع منه ولا أن يطلب من الصحافة أن تؤمّن على كل ما يقول به، لكننا للأسف الشديد لا نزال نواجه بهذه العقيدة عند كثير من أساتذة الطب فى مصر، وهو ما يدل على نقص فى الوعى بوظيفة الإعلام وطبيعة ممارسته لمهنته:

«... وقد تدخلت الصحافة [طبعا من المصادر المحيطة بعبد الحليم] بالقول بأن الدكتور تانر وزكى سويدان قد ارتكبا خطأ فنيا باستئصال طحال عبد الحليم، إذ كان يمكن إجراء الاتصال الدموى البابى بالدموى الكلوى لكن الطحال استؤصل أولا لكبر حجمه، وثانيا لتوحشه فى تكسير عناصر الدم الحيوية، ولوجود التصاقات كثيفة بين الطحال وجدار البطن الداخلى وأسفل الحجاب الحاجز».

«وفى ١٠ يناير ١٩٦٤ أصيب عبد الحليم بنزيف وكان تانر موجودا فى القاهرة فقمنا بإسعافه فى الساعة الثالثة صباحا وعمل له نقل دم، وذكرت جريدة الأخبار أن عبد الحليم سيظل معرضا لمثل هذا النزيف حتى يجرى العملية الجراحية فى أمريكا فى سبتمبر القادم».

«وفى الحقيقة تألمت لهذه المساءلة العلمية دون اعتبار الحقائق، وذلك فى جريدة الأخبار بتاريخ ٣ فبراير ١٩٦٤».

«ومن رأى عبد الحليم حتى الآن أن يتوكل على الله ويجرى العملية، فهو مطمئن لرأى طبيبه لنتون الذى عالجه أخيرا خلال الشهرين الماضيين فى أمريكا فى مستشفى ماساشوستس فى بوسطن، وتكلف علاجه ٢٦ ألف دولار دفعتها سفارة مصر فى أمريكا، وعندما عاد سدد المبلغ للدولة بالعملة المصرية».

«وفى ٢١ يناير ١٩٦٤ نشر «المصور» غضب عبد الحليم عندما قرأ فى الصحف تحذير أحد الأطباء المعالجين (لست أنا) له من إجرائه العملية فى أمريكا، لأن نسبة النجاح فيها ٩٩٪، ولهذا فسوف يجرى عبد الحليم العملية، ولن تتأثر ذاكرته أو حالته الصحية أو صوته أبدا».

«فى ٢٠ مارس ١٩٦٥: عُمل لعبد الحليم كونسولتو من السادة الأساتذة الأطباء جاء به بعد أن حدث له نزيف بسيط منذ خمسة أيام:

«أولا: الحالة الراهنة:

١ ـ تليف كبدى بلهارسى بضمور فى حجمه.

٢ ـ الجزء الأسفل من المرىء به: (أ) دوالى. (ب) تليف وارتجاع للعصارة المعدية به. (جـ) التهاب المرىء، وأن الجزء الأسفل بالمرىء هو الجزء الغالب لمصدر النزيف البسيط».

«الخلاصة:

١ ـ حالته غير مناسبة لإجراء عملية توصيل الوريد البابى إلى الوريد الأجوف السفلى.

٢ ـ لا توجد ضرورة فى الوقت الحالى لأى إجراء جراحى.

٣ ـ متابعة حالة الجزء الأسفل للمرىء إكلينيكيا وبالأشعة فى فترات منتظمة لتقرير فى المستقبل التدخل الجراحى على هذا الجزء.

إمضاءات الأساتذة الأطباء:

«عبد الله الكاتب، محمود صلاح الدين، ورياض فوزى، ومنصور فايز، ومحمود عبد الرازق، ومحمد زكى سويدان».

«ولقد أوضحت لهم كل الموضوع، ووافقونى كتابة على رأيى لعدم إجراء عملية، بل إن الأستاذ الكاتب قال: إن عملية الدكتور تانر فى عام ١٩٥٦ تلتها أخصب فترة إنتاجية لعبد الحليم، وطبعا بعدها أفسحت المجال إلى السيد مندوب المشير للتصرف».

(١٨)

هكذا نرى الدكتور زكى سويدان غير سعيد بما صادفه من متاعب متعددة فى علاج عبد الحليم حافظ، ونراه يروى هذا كله بقدر من المعاناة والضيق النفسى، وكأنه «قد أصبح» على وشك أن يتخذ قراراً يؤثر به عدم المشاركة فى علاج الفنانين أو المشاهير.

وليس هذا انطباعاً أو استنتاجاً متسرعاً، بل إننا نرى شواهده ودلائله

فيـما تدلنا عليه هذه المـذكرات من أن صاحبـها كان حـريصا على أن يصرح بأنه تـخلَّص من أن يكون الطبيب المـعالج للفنان مـحمد عـبد الوهاب بعد مـا عانى من سـيطرة الوسوسة على شـخصـية هذا الفنان العظيم:

«. . . وفى القاهرة بدأ يستدعينى للكشف على حـرمه السيدة إقبال، وبعد ذلك على السيدة نهلة القـدسى التى كانت تدخن سجائر الكنت، وفى إحـدى المرات فى عـام ١٩٦٢ عند طلبـه لى اشـترطت أن آخـذ خرطوشتين «كنت» فبـادرنى بأغنية «كنت ايه اللى أنت جاى تقول عليه» فذهبت إليه طائعا».

. . . .

«وتوالت استدعاءات عـبد الوهاب لى فى أثناء عملى، فكنت أذهب لأجد شكايا تافهـة، فرجوت أحد زملائى فـى إحدى المرات بالذهاب إليه وانسحبت أنا».

. . . .

وعلى نفس الخط نرى الدكتـور زكى سويدان يقدم صـورة بديعة فى وصف حالات الهـلع التى كانت تصـيب الفنانة فايزة أحـمد وتجـعلها جزعة قلقة على الدوام:

«. . . زارتنى أول مرة فى ١٩ يونيو ١٩٦٧، وكانت تخـاف إصابتها بمرض خطير أو إصابة بالقلب، وتعـددت زياراتها لى وهى فريسة لهذه

الأوهام، حتى إنهـا ذات ليلة فى منتصف الليل دق جرس البـاب فقمت وفتحته فإذا بها تندفع إلى الداخل قائلة: يادكتور.. أنا بأموت.. ولازم تلحقنى.. وتقدمـتنى هى باحثة عن أى حجـرة نوم للكشف، فوجدت أمامى حجرتى وبهـا سريرى ومصباح القراءة مضاء، فـاسترخت فوقه، وكانت زوجتى فى الحجرة المجـاورة فاستيقظت وجاءت تهدئ من روع فايزة، وأنا أقـوم بالكشف عليها، ولم أجد كـالعادة أى علامة مـرضية فهـدأتها وأعطيتهـا قرصا مـهدئا فاستـعادت ثقتـها فى نفسهـا وغادرت المنزل».

ويعقبُ الدكتور زكى سويدان بعد هذا بقوله:

«وكانت تقوم [أى الفنانة فـايزة أحمد] لى بإحياء حفـلات ليلية حين كنا نقوم ببعض الحفلات المنزلية، وكـانت تسبغ على الحفل الكثير من رخامة صـوتها فى أواخر الخمـسينيات ثم فى الستـينيات، ومرت الأيام وإذا بها تصاب بما كانت تخشاه، كأنها تقرأ المستقبل».

(١٩)

كذلك يروى الـدكتور زكى سـويدان فى هذه المذكـرات تفصـيلات الجهـد الطبى الذى بذله الأطباء المـصريون فى علاج حـالة الفنان أنور وجدى وقد كان هو نفسه أحد المـشاركين فى هذا العلاج قبل أن يسافر أنور وجدى إلى السويد:

«... فى فجر ٢٧ مارس ١٩٥٥ دق التليـفون وإذا بصديق عزيز هو المرحـوم الأستاذ أنطوان عـيد يطلبنى لإسـعاف المرحـوم أنور وجدى

لإصابته بنزيف، فاعتذرت قائلا: إن له حوالى عشرة أطباء يعالجونه، وأرجو أن تطلب أحدهم فهم ملزمون بذلك، أما أنا فلا أغادر فراشي إلا لمرضاى الذين أشعر بأننى مسئول عنهم، وبعد إلحاح وعدته بأن أول زيارة لى فى مبدأ عملى فى الصباح أن أزوره، وتم هذا، وقررت نقله إلى مستشفى دار الشفاء، واشترك معى الأستاذ الدكتور بول غليونجى فى الإشراف الطبى عليه، وكان النزيف من قرحة بالإثنى عشر، وأسعف بنقل دم متكرر، كما أنه كان مصابا بتكيس خلقى فى الكليتين، وفى حالة النزف الشديد تفشل الكلى ويحدث تسمم بالبولينا.. على العموم بذلنا ما فى استطاعتنا كى تمر الأزمة».

□

ثم يتطرق الدكتور زكى سويدان دون أى خوف أو وجل أو حرج إلى نشر بعض أسرار المرض والعائلة ويقول:

«... إلا أن العجيب أن عائلته: والدته وشقيقتيه عند قدومهم فى الصباح، ويرون التحسن باديا عليه بعض الشيء، كاد يهيأ لي أنهم فى حالة من الاكتئاب، وقد كان متزوجا من السيدة ليلى فوزى، واستنتجت - ربما خطأ - أن العائلة كانت تخشى من ولادة وريث».

....

ثم يروى الدكتور سويدان تفاصيل علاج الفنان أنور وجدى فى السويد بالذات دون غيرها، وما تم له من علاج هناك، وكيف تخوف أحد الأساتذة المصريين من السفر مرافقا للفنان:

«. . . وبعد أن استقرت حالته قررنا سفره إلى السويد فى لوند ليكون تحت إشراف الأستاذ دكتور نيلز ألوان مخترع الكلى الصناعية الأولى، واقترحنا سفر الدكتور فؤاد حمدي لمرافقته ولكنه حاول الاعتذار لوجود السيدة ليلى فوزي معهما، وخشى القيل والقال، فأخبرناه أن آنسات وسيدات السويد فى مستوى السيدة، بل إن جريتا جاربو وانجريد برجمان أمثلة الجمال فى العالم من السويد، فاقتنع وسافر معهما، وحاول الأستاذ السويدى ما أمكن من إنقاذه بالكلى الصناعية، ولكن القدر كان أقوى من كل المحاولات، وتوفى أنور وجدى فى السويد».

(٢٠)

وهذه نماذج لبعض الوقائع المهمة لتاريخنا السياسى والاجتماعى التى مر بها الدكتور زكى سويدان من خلال عمله كطبيب مرموق، ونبدأ بما اكتشفه بحكم العلاقة عن رأى أسرة الملكة فريدة فى الملك فاروق، وهو ينسب ما يسجله من آراء ينسبها إلى والدى الملكة فريدة، ونحن نلاحظ أن هذه العلاقة التى مكنت زكى سويدان من الاطلاع على هذه الآراء قد نشأت عام ١٩٥٠، أى بينما كان الملك فاروق لا يزال فى سدة الحكم:

«فى عام ١٩٥٠ أصاب شريف ذو الفقار شقيق الملكة السابقة فريدة مرض شلل الأطفال وشمل جميع أطرافه، وخيف على حياته من شلل مراكز التنفس، وقد حدث هذا فى نفس الوقت لأحد موظفى السفارة الأمريكية وتوفى، وكانت السفارة قد طلبت على عجل الرئة الصناعية فلما توفى أهديت إلى كلية طب قصر العينى».

«أقول إن الله أخذ بيد شريف الذى أخذ يزاول بعد ذلك العلاج الطبيعى بإصرار وثبات، حتى أصبح طبيعيا أو يكاد».

«فى هذه الأثناء توطدت الصداقة مع والديه، وقال لى يوسف باشا ذو الفقار ذات يوم: تعرف يا دكتور أنا لو خلفت ثانى كنت أعلمه فى مدارس الأحداث.. نظرا للانهيار الأخلاقى».

«وذات يوم أخبرتنى الوالدة أنها فى أثناء خطبة فاروق لفريدة دخلت إحدى الغرف فى الفيلا التى كانت قائمة بشارع المرعشلى رقم ١٥ بالزمالك ووجدت خادم الملك الأسمر يطبق مفرش سرير مميز، فسألته: ماذا تفعل؟ فأجاب: إن هذا أمر الملك، فأمرته أن يعجل بتطبيق المفرش ورميه من النافذة، ثم يحمله من الحديقة إلى جلالته دون أن يعلم أحد».

(٢١)

والنموذج الثانى لهذه الأسرار الطبية، قصة ينفرد الدكتور زكى سويدان بروايتها على هذا النحو، وهو ما يرويه عن أن وفاة أحمد حسنين المفاجئة قد حدثت بعد شفاءه من مرضه بالقلب، وأن حالته ظلت غير مطمئنة طوال ثلاثة شهور:

«كما أذكر أيضا أن المرحوم أحمد حسنين باشا أصيب بجلطة فى القلب، وكان بين الحياة والموت مدة ثلاثة أشهر، ثم تماثل للشفاء، ثم خرج يباشر عمله كرئيس للديوان الملكى، وفى يوم وهو عائد بسيارة القصر الحمراء على كوبرى قصر النيل اصطدمت سيارته بسيارة لورى إنجليزى وتوفى فى الحال».

(٢٢)

والنموذج الثالث هو حقيقة أن البطل معروف الحضرى الذى لعب أدوارا بطولية فى حرب فلسطين وفى عهد الثورة كان مريضاً بالقلب، وأنه أنجز ما أنجز على الرغم من هذا المرض:

«... ومن الغريب أن معروف الحضرى فى جميع بطولاته كان مصابا بروماتيزم بالقلب، ضيق فى صمام الميترالى بدرجة متوسطة لم تمنعه من كل ما قام به».

ويوسع القارئ أن يعود إلى كتابنا «نحو حكم الفرد» ليقرأ ما يرويه زملاء معروف الحضرى عنه، وإلى كتابنا «مذكرات الصحفيين» ليقرأ ما يرويه حلمى سلام عن هذا البطل الفريد.

ولعل ما يرويه الدكتور زكى سويدان عن مرض البطل معروف الحضرى بالقلب يؤازر ما نعرفه عن مرض البطل يوسف صديق بالصدر، ويدفعنا إلى تقدير إنجازات هذين البطلين الثورية التى أنجزاها على الرغم من مرضيهما الخطيرين!!

(٢٣)

ومن أطرف الفقرات التى يضيف بها زكى سويدان إلى صورة الشخصيات المعروفة فى زمنه فقرة يروى بها الدكتور زكى سويدان انطباعه عن الشيخ عيسوى صقر عضو البرلمان عن دائرة قطور، وكان أكبر أعضاء البرلمان سناً، وقد حرص هذا الرجل على أن يدعو الدكتور

سويدان لشهود جلسة البرلمان ليريه أهميته، والواقعة من حيث تواريخها صحيحة، وإن كانت تثير استغراب القارئ، فقد كان إسماعيل صدقى رئيس الوزراء (١٩٣٠ ـ ١٩٣٢) و(١٩٤٦) قد شغل منصب وزير المالية فى الوزارة الكبرى التى ألفها محمد محمود باشا فى ١٩٣٨، وبهذه الصفة فإنه كان يلقى بيان وزير المالية فى تلك الجلسة التى يشير إليها صاحب المذكرات:

«ولن أنسى واقعة فريدة حدثت فى أثناء قيامى بوظيفة طبيب مستشفى البلهارسيا والإنكلستوما فى قطور غربية عام ١٩٣٨، فقد كان الشيخ عيسوى صقر عضو مجلس البرلمان وأكبرهم سنا، فكان يترأس المجلس الجديد فى أولى جلساته حتى يتم اختيار الرئيس الفعلى. وفى يوم دعانى الشيخ عيسوى صقر لحضور جلسة البرلمان فى عام ١٩٣٨، وقام إسماعيل صدقى يلقى بيانه عن الميزانية، وإذا بالشيخ عيسوى يقاطعه بصوتٍ مرتفع وبدون جملة مفهومة، وأخذ ينظر إلىّ وأنا فى الشرفة يريد أن يرينى مدى أهميته، فتوقف إسماعيل صدقى وسأله: ماذا تريد ياشيخ عيسوى؟ فتمتم بكلام لم أفهمه، واستمر إسماعيل صدقى فى إلقاء بيانه».

(٢٤)

ونأتى إلى حديث المذكرات عن الخبرات الطبية الشخصية التى اكتسبها صاحبها ودورها فى تنمية علمه بالأمراض وبالممارسة الطبية، ويبدو لنا من خلال الروايات التى يوردها زكى سويدان أنه كان صاحب

عقليـة تحليلية نافذة تلجـأ إلى الذاكرة لتسـتلهم منها الخبـرات الكفيلة بتنمية المعرفة والحكمة.

وهو على سبيل المثـال يروى قصة إصابته فى صباه بالتـيفود وكيف تدهورت حالته بسبب عبثه وكذبه فى نقل نصيحة الطبيب له:

«. . . وفى السنة الثالثـة الابتدائية (١٩٢٣ ـ ١٩٢٤) مـرضت بحمى التيفود، وفى أوائل المرض ذهبت إلى ميت غمر لزيارة الطبيب المرحوم الدكتـور فهمى عطا الله مـع تابع لنا هو محمـد سلامة على الحـمار، وحين وصلنا العـيادة تركنى التابع وذهب لإنجاز بعض المـشتريات وفى هذه الفـترة جـاء دورى وقام الطبـيب بالكشف علىّ وأعطانى الروشـتة وحذرنى من الأكل، فلما عـاد التابع قال: ماذا أخـبرك الطبيب؟ قلت: أن آكل لحمـا مسلوقـا ولبنا رايب، وبعد عـودتى وما انتهـيت من هذه الوجبة حتى بدأت شدة المرض الذى اسـتمر حوالى شهرين كنت أهذى وأقول: عـايز أرنب، وفى ليلة غبت عن الوعى وتنبـهت لأجد الأرنب المسلوق فى فمى بيد عمتى وكريمتها عزيزة بغرض أن يعطونى ما كنت أشتهى قبل الممات. وقد نجم عن هذا الحـادث استدعاء السيد الدكتور سيد شكرى وزير الصحة فيما بعد، وكتب ما كان شائعا فى العلاج منذ أكثر من ستين سنة».

«وأذكر أنى كنت نائما بمـفردى أهذى «كده حتموت يامـحمد وأنت كنت شاطر فى المـدرسة»، وسمـعتنى امـرأة فى الحارة (الخالة سـيدة الصينى) ودخلت علىّ وقـالت: أنت لن تموت، ستـصبح أكبـر طبيب

باطنى. هذه السيدة زارتنى فى القاهرة بعد حصولى على درجة الزمالة كلية الأطباء الملكية بلندن عام ١٩٦٩، وذكرتنى بما تنبأت به».

□

كما يروى الدكتور زكى سويدان قصة نجاته من حادث ترام فى أثناء فترة دراسته:

«... كما أذكر فى يوم خميس فى أوائل عام ١٩٢٦ كنت متأخرا بعض الوقت عن الوصول للمدرسة فقفزت على مقدم سلم العربة التى يجرها الترام رقم ٤، وأمسكت بعمود مقدم للعربة بيدى اليسرى، إلا أن جسمى اختل واستدار لكى يصبح بين عربة الترام والعربة التالية، واستماتت يدى اليسرى على عمود الترام، وظلت يدى اليمنى قابضة على كتبى، والترام يسير بسرعته، وكان فى كرسى مقدمة العربة صبى جزار هب واقفا واستمات هو الآخر على يدى القابضة على عمود العربة، وصاح الركاب وظل الكمسارى مطلقا زمارته إلى أن وقف الترام، وكان هذا هو الموت المحقق، ولكن نجانى منه العلى القدير».

(٢٥)

ويحرص الدكتور زكى سويدان فى موضع ثالث من مذكراته على أن يروى قصة إصابته هو نفسه بالبلهارسيا وذلك بسبب ممارسته للسباحة فى القرية وهو يقول:

«... كنت قد اشتركت عام ١٩٢٦ فى حمام السباحة لوزارة المعارف الذى كان قائما فى أول شارع رمسيس، وتعلمت السباحة،

فلما عدت إلى القرية فى الصيف شاركت زملائى فى الاستحمام والسباحة فى الرياح التوفيقى، ولكن فى بعض المرات سبحت فى بعض القنوات الصغيرة، وكنت أشعر بعدها بأكلان شديد لبضع ساعات.. كان هذا إيذانا بالإصابة بالبلهارسيا التى تسبب البول الدموى، فلما جاء صيف عام ١٩٢٨ باشرت العلاج بحقن الطرطير فى الوريد فى مستشفى البلهارسيا والانكلستوما، وطبعا شفيت من البلهارسيا إلا أنى بعد حوالى ثلاثة أشهر من انتهاء العلاج، أى فى يناير ١٩٢٩ وأنا فى السنة الرابعة الثانوية أصبت باليرقان لفترة حوالى ثلاثة أشهر مع هزال وضعف شديد، وكان يباشر علاجى طبيب يونانى «دكتور مانوس».

وعلى الرغم من هذا المرض فقد كانت شقاوة طبيب الغد تتغلب عليه:

«وقد لاحظت أنى إذا ما تسللت من الفراش إلى دراجتى لفترة ساعتين أو ثلاث كنت ألاحظ فى اليوم التالى ازدياد الاصفرار».

□

ويردف الدكتور زكى سويدان بتحليله لما اكتشفه من مرضه هو نفسه بالبلهارسيا ومضاعفاتها فيقول:

«وقد كانت هذه الحوادث منبعا لثلاث حقائق نشرتها فى بحوثى عندما بدأت هوايتى فى دراسة الكبد».

«أولا: الإصابة بالبلهارسيا تأتى غالبا من الاستحمام فى القنوات الصغيرة حيث يعقب الاستحمام الهرش والأكلان لبضع ساعات إيذانا بدخول سركاريا البلهارسيا من الجلد، وهذا كان معروفا».

«ثانيا: الإصابة بالفيروس الكبدى من تلوث الحقن من حامل للميكروب وعدم تعقيمها التعقيم الكافى، وإعادة استعمالها لمريض البلهارسيا التالى، وطبعا إذا نجا مريض البلهارسيا من الحقن مرة فإنه لابد أن يصاب فى باقى الحقن وعددها اثنتا عشرة. وقد نشرت هذا فى عام ١٩٥١، ثم فى الأعوام التالية، ثم فى عام ١٩٨١، وهذا من أهم أسباب انتشار تليف الكبد فى المرضى السابق إصابتهم بالبلهارسيا، ثم علاجهم بحقن الطرطير».

«ثالثا: إصابة مريض البلهارسيا بالسعال الشديد بعد تعاطيه الحقنة مباشرة لمدة حوالى ساعتين، وقد أثبت أن هذا نتيجة لانتشار عناصر الحساسية من ديدان البلهارسيا حين تفاجأ بالعلاج القاتل وهو الحقن، وذلك فى عام ١٩٦٢ فى مؤتمر البلهارسيا بالقاهرة».

«رابعا: اشتداد مرض الصفراء عند ممارسة الجهد الجثمانى، وأقول هذا كله نتيجة لما مارسته فى حياتى من الاستهانة بالمخاذير، ثم لجهل المسئولين بالوقاية من الإصابة بالفيروس الكبدى».

وهو يتحدث أيضا عن تجربته المبكرة مع الاستحمام فى نهر النيل على الرغم من تحذير «سيدنا» واتخاذه الإجراءات الكفيلة بعدم ممارسة الصبية لهذا الاستحمام:

«أذكر أننى كنت أذهب للكتاب وأحفظ ما تيسر من القرآن المجيد وأسمعه إلى سيدنا «العاجز» الذى كان يسلط الزخمة عند الغلط، وكان يضع علامات بالحبر على الفخذ، فإذا ما استحم أحدنا فى القنوات تزول العلامة وفى صباح اليوم التالى، وبمعونة تلميذ أكبر يبلغ سيدنا فمن زالت علامته تلقى عذابه بالزخمة من سيدنا، وطبعا كان هذا أولا لعدم التعرض للغرق، ثانيا للوقاية من الإصابة بالبلهارسيا، وأذكر للآن أنى ذهبت أستحم مرة فى فرع وادى النيل، وقذفتنى امرأة أذكرها للآن وكدت أشرف على الغرق لولا أن أنقذتنى امرأة أخرى وأعرفها هى الأخرى حتى الآن، إن كانتا لا تزالان أحياء حتى يومنا هذا».

□

كذلك يروى الدكتور زكى سويدان قصة جرح عينه وما نشأ عن هذا الجرح من ضعف فى الإبصار فى عينه اليسرى:

«وفى عام ١٩٢٤ كنت أحاول صنع سيارة من السلك ـ لعبة أطفال مما يلعب به الأطفال ـ فجرح السلك عينى اليسرى مما أدى إلى ضعف الإبصار بها بعد ذلك».

(٢٦)

أما أمراضه التى حدثت فى أثناء دراسته وامتحاناته فى أيرلندا فكانت من نوع آخر، وهو يتحدث عن إصابته بالنزيف بسبب نقص فيتامين (س) ومحاولة علاج النزيف بالفيتامين دون جدوى، ثم بحثه الدءوب عن الخضراوات الطازجة ذات الثمن المناسب وشفائه فى اليوم الثالث:

«بدأت أنزف من اللثة ورأيت أن هذا نتيجة طبيعية لنقص فيتامين «س»، إذ كان غير مسموح لأى مواطن بأكثر من كيلوجرام من البرتقال فى الشهر، علاوة على أن الخضراوات كانت غالية الثمن. فتوجهت إلى الصيدلية واشتريت أقراص فيتامين «سى» وأخذت أبلع مقدار جرامين (٤ أقراص) يوميا ولكن بدون فائدة، فدخلت محل الخضراوات وانتقيت ست خسات صغيرة مما يسمى بالخس البلجيكى، وسألت عن الثمن فكان شلنا ونصف شلن للواحدة، أى حوالى تسعة شلنات للستة، وجميعها لا تصل إلى وزن خسة واحدة مصرية، فأرجعتها إلى مكانها وأخذت أطوف على باقى محال بيع الخضراوات، فرأيت صندوقا يحمل شيئا مكسوا بالطين، فسألت: ما هذا؟ فقال: جزر، وسعر الرطل ٤ بنسات، فأخذت رطلين معى فى حقيبة الدراسة، وما أن دخلت حجرتى حتى بدأت أغسل الجزر من الطين الذى جمعته فى ورق صحيفة قديمة، وأودعت هذا الطين ثانيا إلى حقيبة الدراسة وأخذت آكل الجزر، وأقول الحق إنه من ثالث يوم بدأ التحسن فى نزيف اللثة، وما هو إلا أسبوع حتى شفيت تماما».

(٢٧)

ويتصل بهذه الوقائع الطبية التى حـدثت لصاحب المذكرات نفسه ما حدث لـوالدته، وهو يتحـدث عن مرض والدته بالفـشل الكلوى، وهو يذكر الأعراض التى كانت تعانيها على الرغم من اعـترافه بعدم استيعابه للصورة كاملة فى ذلك الوقت الـمبكر، ثم يروى أنه استطاع فى ١٩٥٧ أن يشـترى جـهاز كلى صناعـية وقـد وصل الجهـاز إلى مصـر ١٩٦١ واستعـان به الدكتور سويدان فى عمله ثم أهداه إلى القـوات المسلحة، كما اشترى للكلية جهازا آخر فى ١٩٦٣ :

«وأعيد الآن أهم أعراض الفشل الكلـوى، وهو الشحوب لفقر الدم، وارتفـاع ضـــغط الدم، والنزيف مـن الرحم أو من الأنف والجـــهـاز الهضمى، واضطـراب الهضم بدءا من فقد الشهـية ثم القىء واضطراب الأمعاء مع حدوث نوبات إسهال، هذا مع كثرة التبول خاصة فى الليل، ومع اشـتداد وطأة الـمرض تحـدث التـشنجـات. وقد حـدث كل هذا لوالدتى وأنا فى أول دراستى الإكلينيكية للأمراض فلم أكن أستوعب كل هذا، ولكن ظل هذا التاريخ المرضى كـامنا فى داخلى حتى عام ١٩٥٧ حين زرت مخترع الكلى الاصطناعى فـى السويد الأستاذ نيلز ألوال بعد محاولة إنقاذ المـمثل المرحوم أنور وجدى، فساعـدنى على شراء جهاز كلى اصطناعية من مالى الخـاص، وكانت أول كلى اصطناعية تصل إلى مصر فى عام ١٩٦١ ،ووضعتها فى مستشفى الجمعية الخيرية الإسلامية، وكنت قد رشحت الأسـتاذ دكتور إسمـاعيل أبو جبل لبعـثة فى السويد

لممارسة العمل بالكلى الاصطناعية، ولما عاد عهدت إليه مباشرة العلاج بهذه الكلى، وبعد فترة فى عام ١٩٦٤ أهديتها للقوات المسلحة، [كما] جاهدت حتى اشترت كلية طب عين شمس كلى اصطناعية فى عام ١٩٦٣ لها وحضر الأستاذ نيلز ألوال وباشر علاج بعض المرضى بها ونشرت المجلات والصحف نجاح العلاج، وبعد ذلك اشترت كلية طب قصر العينى جهازا لها».

....

ويخلص الدكتور زكى سويدان من كل هذا إلى تقرير طريف يبالغ فيه بحب وحنو ويقول:

«وبهذا يكون تاريخ والدتى [المرضى] هو الحافز الأول لإدخال الكلى الاصطناعية لأول مرة فى مصر».

(٢٨)

ونأتى إلى بعض تفاصيل تاريخ الحياة العلمية لصاحب المذكرات كنموذج لأساتذة الطب فى جيله، ونحن نرى الدكتور زكى سويدان وهو يلخص علاقته بالطب والتقدم الطبى فى مقدمة كتابه فى فقرة جميلة يوردها على النحو التالى:

«بدأت دراسة الطب فى عام ١٩٣٠، ولازلت أدرس للآن، فكل يوم يأتى بجديد فى الطب، ومنذ عام ١٩٤٦ للآن وأنا مشترك فى المجلة الطبية البريطانية أتابع الجديد والتطور فى العلوم الطبية، هذا علاوة على

الطبعات المتتالية من المؤلفات والمجلات من انجلترا وأمريكا مثل مجلة «مايو كلينيك»، وكذلك حضور المؤتمرات الطبية، وزيارتى للمراكز الطبية فى أنحاء العالم المختلفة منها انجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، والسويد، والولايات المتحدة، واليابان، وأمريكا الجنوبية».

«ومنذ عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٨٧ وأنا أقوم بتدريس الطب، وكان يسعدنى دائما أن أرى طالبى العلم يتابعوننى مما كان يحفزنى على بذل العطاء لهم فى العلم والوقت، فنشأت بيننا صلة روحية قوية أعتز بها، بل يسعدنى أكبر سعادة أن الله سبحانه وتعالى قد ساعدنى لأدرس لجيلين، فقد تزاملت مع أساتذة كانوا طلبتى، ثم درست لأبنائهم حتى أصبح بعضهم من هيئة التدريس فى الجامعات».

(٢٩)

ويقدِّم الدكتور زكى سويدان فى هذه المذكرات تفصيلات مهمة عن فترة تأهله بالشهادات الطبية العليا فى بريطانيا، وهو يتحدث بثقة شديدة، ودون حرج، عن مرات الرسوب فى الامتحان وعن أسباب الرسوب، ونبدأ بأن ننقل ما يتحدث به عن أصحاب الفضل فى سفره للخارج وهما الدكتور مورو باشا والسيدة باميلا حرم الدكتور محمد عبد المنعم لبيب:

«ظهرت نتيجة البكالوريوس فى يناير ١٩٣٧، ولم أكن من المتقدمين

فى الجراحـة، فى حين كنت متقـدما فى الأمراض البـاطنة، بعكس ما كنت أتوقع، وحين قـابلنى الأستاذ الدكتـور محمد عبـد الوهاب مورو باشا وأخبرته بالنتيجة قال لى كلمة واحدة هى: سافر».

«فى عـام ١٩٤٢ كنت معـيدا فـى قسم الفـسيـولوجـيا بكليـة طب القـاهرة، وكان يعـهـد إلى كل معـيد بإعطـاء دروس مراجـعة لقـسم ومجـموعة من طلبة الـسنة الثانية. وفى يوم طلبنى الأسـتاذ أنرب لكى تلتحق بمجموعتى الطالبة السيدة باميلا حرم الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم لبيب، لأنها ترانى أجيد الإنجليزية».

. . . .

«وبدأت امتحان الدكتوراه للأمراض الباطنة، وتكرر رسوبى، فأخذت تشجعنى على السفر للخارج للتقدم لشهادة عضو كلية الأطباء الملكية، ثم إنى أعتبر تشـجيع هذه السيدة أحد العوامل أو الحوافـز المهمة التى دفعتنى إلى الإقدام على السفر إلى انجلترا».

□

وتورد المذكرات تفصيلات طريفة عن الإجراءات الروتينية التى كانت متبـعة من أجل التقدم للامتـحانات والتحويلات المـالية التى كان على المتقدم أن يتمها:

«وفى ١٤ يوليو ١٩٤٥ أرسلت رسوم الامـتحان إلى لندن عن طريق وزارة المـعارف، وقـدرها ١١ جنيهـا، وفى ٢٣ يوليو ١٩٤٥ المـوافق نصف شـعبان، قـمت بتـحويل مـائتى جنيه عن طريق بنك باركلـيز،

وسافرت من بورسعيد فى ٤ أغسطس ١٩٤٥ على السفينة «كارثيج» حمولة ٢٢ ألف طن، وكانت تحمل الجنود العائدين من الحرب فى الشرق الأقصى على أسرة معسكرات ذات طوابق ثلاثة. وكنا نتدرب على الاستعداد لقذف أنفسنا فى البحر عند سماع صفارة الإنذار».

«وفى يوم ١٥ أغسطس ١٩٤٥ كنت ضمن زحام احتفال عيد النصر فى شارع فليت، وشاهدت من المسئولين تشرشل، وأتلى، وأيدن».

....

«حزمت أمرى على ترك لندن كلية إلى أدنبرة عاصمة اسكتلندا، وأعطانى بعض الأصدقاء عنوان منزل يستضيف الطلبة الغرباء، وغادرت لندن إلى أدنبرة فى ٢٩ سبتمبر ١٩٤٥».

....

ها هو زكى سويدان إذاً قد وصل إلى لندن فى النصف الأول من أغسطس وبقى فيها حتى نهاية سبتمبر ١٩٤٥ حيث آثر دخول الامتحان.

(٣٠)

ونصل فى مدارستنا إلى فقرات متعددة من مواضع متعددة من المذكرات تصور لنا بدقة مدى سعادة الدكتور سويدان وانفعالاته تجاه نتائج الامتحانات التى قدر له أن يجتازها فى البلاد البريطانية:

«جلست لامتحان أدنبرة فى ١ أكتوبر ١٩٤٥، وظهرت النتيجة فى ٥ أكتوبر ١٩٤٥ بالرسوب، فرجعت إلى لندن فى ٧ أكتوبر ١٩٤٥،

وظهـرت نتيـجـة امتـحـان لندن فى ١٧ أكتـوبر ١٩٤٥ بالرسـوب فى التحريرى، ولكن بالنجاح فى الامتحان الإكلينيكى».

. . . .

«سافرت فى ٢٢ نوفـمبر إلى أدنبرة وأقمت ثانيـا فى منزل مسز داو، وبدأت من اليوم التالى مباشرة الدراسة فى المستشفى الملكى الجامعي، وفى منزل مـسز داو تعرفت على صـديق العمـر طالب الطب فى السنة النهائيـة بن فنك الهولندى،وكان البـرد فى أدنبرة يشتد يومـا بعد يوم، وكنت أطلب زيادة الغطاء باستمرار حتى وصل عدد الأغطية إلى سبعة، وكلهـا وزن الريشـة،وكـان من غـيـر الـلائق أن أسـتـخـرج بطانيـتى الشهيرة(!!)، وكان الطريق إلى المستشفى الجامعى يكسوه الجليد الذى بدأ يغزر، ولكن ـ والحمـد لله ـ كنت أتحمل، وبدأت أدرس هناك فى قسم الأستـاذ دكتور جيلكرست بقسم القلب، وبدأت أحـضر التدريس الإكلينيكى من هذا الأسـتاذ العظيم إلى طلبـة البكالوريوس، أى الألف والباء، والأسس المـهمة فى الدراسة الإكلينـيكية، وتوطدت بينى وبين الأستاذ ألفة أعتز بها، علاوة على الدراسة».

. . . .

«وفى ١٤ يناير ١٩٤٦ نزلت إلى لندن لأتقدم للامتحان للمرة الثانية، وكان الجـو باردا لسكان لندن، أما لى فـقد كنت أشـعر أنى فى شـتاء القاهرة. . طبعا. . . وقد غادرت برد اسكتلندا القارس».

. . . .

«وقد رسبت فى هذا الامتحان، لكن مع نجاحى فى جميع المواد لم يكن المجموع بالنسبة العالية التى تؤهلنى للنجاح».

يريد الدكتور زكى سويدان أن يقول إنه رسب فى المجموع رغم نجاحه فى جميع المواد، وهى حالة معروفة حين تجيز الكليات ومعاهد العلم النجاح بخمسين فى المائة فى بعض المواد شريطة أن تعوضها المواد الأخرى فيكون النجاح من ستين فى المائة.

....

«ورسبت فى امتحان أدنبرة، وعدت إلى لندن فى ٢٤ يناير ١٩٤٦».

....

«ثم تقدمت لامتحان لندن فى مارس ١٩٤٦، وتلاه امتحان أدنبرة فنجحت فى الامتحان الأول، ورسبت فى الثانى».

هكذا يصور زكى سويدان مصادفة طريفة لكنها كثيراً ما كانت تحدث، وهى تدلنا على مدى سعة الأفق عند هؤلاء البريطانيين المعلمين الذين كانوا يتيحون لطلاب الدراسات العليا فى الطب دخول امتحانين متوازيين فى عاصمتين من عواصمهم من دون أن يدعوا أن امتحاناً واحداً يكفل لهم الحكم القاطع البات على مدى الاستحقاق للنجاح من عدمه.

....

«وقد قـال لى الأستاذ الدكتـور جيلكرست أستـاذ أمراض القلب فى أدنبـرة قبل ظهـور النتيـجة: «أتعشـم أن الظلم الذى وقع عليك هنا أن يعوض فى لندن». . وقد كان».

والمعنى الذى يتضمنه قـول أستاذ الطب واضح وهو أن هذا الأستاذ الذى فى أدنبرة كان يعرف أن زكى سويدان لن ينجح فى أدنبرة رغم أنه يستحق النجاح فتمنى له النجاح فى لندن، وهو ما حدث بالفعل.

□

وهذه فقرة من مذكرات زكى سويدان تدلنا على مدى اعتزاز السيدات الإنجليـزيات ببلادهن رغم ظروفـها الصعـبة، وقـد أدرك زكى سويدان المعنى واعترف به:

«ولما نجحت دعـتنى مسز هندرسون على حفلة فى مـسرح مجاور، ثم دعـتنى فى اليـوم التـالى على لحم غـزال، وحـضـر إلىّ صـديقى الهولنـدى دكتور بن فنك مـن أدنبرة ليهنئـنى ويودعنى قبل سـفرى إلى مصـر، وفى أثناء لقـائنا قالت لى مـسز هندرسـون: أنت فرحـان جدا لسفـرك؟ قلت: طبعا. . فـسألتنى عن السـبب، فقلت لها: فى مـصر سأجد البيض والبـرتقال يوميا، أما هنا فبيـضة واحدة في اليوم، ورطل برتقال فى الشهـر، فقالت: هل نسيت ما جنيـته فى لندن من العلم ثم الشهادة؟ يجب أن تغادر المنزل فورا. فاضطررت إلى الاعتذار لها مؤمنا على قولها، وأنها على حق».

. . . .

ويلخص الدكتور زكى سويدان فى ذكاء وثقة موقفه من الامتحانات المتتالية فى قوله:

«لم أرسب ولا مرة فى الامتحان الإكلنيكى، وإنى أفتخر بهذا على مَنْ قالوا إنى أبعد ما أكون عن هذه الخبرة، إذ قالها جهابذة الطب فى مصر، عفا الله عنهم إذ أخرسهم».

. . . .

ونحن نقرأ ما يرويه الدكتور زكى سويدان عن لحظة نجاحه فى امتحان عضوية الاطباء الملكية بلندن، فنرى الفرحة تشع من بين سطوره ومن حديثه، ونرى شكر الله يتمثل فى صور عديدة.. ونراه بعد هذا سعيداً بأنه نجح على الرغم من أنه لم يكن يملك ثمن تذكرة رجوعه إلى وطنه، وهو يعترف بدون امتنان صريح أن سفارة وطنه قد تولت عنه هذا العبء:

«... ووصلت اليوم ١٠ صباحا إلى كلية الأطباء الملكية لامتحان الشفهى، ونودى على أول واحد ودق الجرس، وكان [الذى] فتح الباب [هو] اللورد موران، إذ قام بنفسه وقابلنى بالتهنئة ورأيت حول المائدة العجيبة سادة العلم هنا وكلهم مبتسمون لى، وظل اللورد موران واقفا وسأل الأعضاء : هل يريد أحد أن يسأل الدكتور؟ فأجابوا جميعا: لا، وأعفيت من الامتحان الشفوى، فقال اللورد، نادى باسمى وقال: يادكتور سويدان لقد أرضيت جميع الممتحنين فى جملة العلوم... وما بقتشى فاهم.. وجاء إلى مكانى وصافحنى ثانيا بالتهنئة».

«وأعطانى أحد الأعـضاء خطاباً بالنجـاح وغادرت هذه الحـجرة إلى السكرتيرة والحمد لله مضيت على الشهادة، كانت فترة دقيقة أزالت كل عنائى وتعبى، وعرفت أن الله لا ينسى عبداً كافح وجاهد وثابر، غادرت حجرة السكرتيـرة ووقفت على الدرج، ورفعت يدى إلى السمـاء شاكرا فضل الله علىّ».

....

«نجـــحت فى دور أبريـل ١٩٤٦، ولم أكن أملـك ثمن تذكـــرة المركب، وتولت السفارة عنى ذلك».

(٣١)

ومن أهم مقـومات شـخصـية الدكتـور زكى سويدان التى تشـى بها مذكراته قدرته المبكـرة على اتخاذ القرار الحاسم فى الوقت المناسب، فقد كان واعيـا لقيمة العلم ولقيمة التأهل بشهـاداته العليا، لهذا فإنه لم يكن يبخل على هذا الهدف بأى شىء يملكه أو يقتنيه، ومن ذلك قراره ببيع سـيارته للسـفر إلى بريطانيـا لأداء امتـحان عـضوية كليـة الأطباء الملكية، ومن الطريف أنه وجد نفسه فى اللحظة الحرجة يرزق من عند الله حلاً من الحلول الغير المتوقعة فيرحب به على الفور:

«... وفى ٢٥ مايو ١٩٤٥ أرسلت طلبـا للتقدم لامـتحان عـضوية كلية الأطبـاء فى لندن، وطلبت الدخول إلى انجـلترا، وذهبت فى ١٢ يوليو ١٩٤٥ إلى القنصلية البريطانيـة وكانت فى شارع صبرى أبو علم، أستطلع الأخبار، فـوجدت الفيزا جاهزة، فقلت: هل أسـتطيع تأجيلها

شهرا أو اثنين لأنى لم أكن على أى استعداد مادى؟ فأخبرنى المسئول بأنه إذا لم آخذ الفيزا فلن يتيسر لى ذلك بعد الآن، فأخذت الفيزا ورجعت إلى سيارتى الموريس الواقفة فى الطريق، ووجدت شخصا واقفا بجوارها وقال لى: هل تبيع السيارة؟ فقلت: نعم بـ١٢٠ جنيها، ووافق وأخذت الثمن».

وهكذا أتيح له أن يبيع السيارة بهذا الثمن، ومن الطريف أنه يردف بالاعتراف بأنه كان على استعداد لأن يبيعها بثلثى هذا الثمن فقط، وهو لا يزال يذكر اسم المشترى:

«وفى الواقع كنت قابلا بيعها بمبلغ ٨٠ جنيها، ولكن الحمد لله كان هذا المشترى هو مسيو جورج بابان دويلو فى ١٣١ شارع فؤاد (٢٦ يوليو)».

□

وهذا حديث آخر للدكتور زكى سويدان عن تفصيلات تمويله لنفقاته، وهو يصارحنا القول بأنه كان يعول على الاقتراض ممن كانوا يملكون المال من الأصدقاء فلما خذله اثنان منهم لم ييأس ولم يغير ظاهر معاملته لكنه أصبح يأخذ أجره منهما بعدما كان يتنازل عن هذا الأجر، وهو يروى تفصيلات تدبيره لموازنة السفر من أجل العلم أو من أجل الشهادة على نحو دقيق ويقول:

«... كنت أمتلك تسعين جنيها، وبعت سيارتى بـ١٢٠ جنيها، واعتمدت على أنى سأحصل على مرتبى الشهرى وقدره ٢٦

جنيهـا على الأقل لمدة شهـرين، وهى إجازتى السنوية، وقبل سـفرى تعهـد لى كل من صديقين مخـتلفين بأن يرسلا لى أى مـبلغ أطلبه من ١٠٠ إلى ١٠٠٠ جنيـه عـند الطلب، وعندمـا بدأت الضـائقـة بعـد الرسوب فى الامتحان الثانى فى لندن أرسلت إلى كل منهما خطابا طالبا ١٠٠ جنيه، ولما تـأخر الرد أعدت الطلب فوصلنى بعـد نجاحى شيك من أحدهما بـ ١٠٠ جنيه، وحملته مـعى عند عودتى وسلمته كما هو، ولم أغير لقائى بأى منهما، ولكنى أنا تغـيرت من داخلى بالنسبة لهما، وقد سبق أن قدمت لهما كثيرا من الخدمات الطبية مجانا نظرا للصداقة، وكنت أعلم مدى توافر المال لديهما».

«وحين بدأت مزاولة العمل بعيادتى كنت ألقى أيا منهما بالترحيب.. ولكن بالفيزيتا، هذا درس تعلمته: ألا أعـتمد على أحد إلا الله سبحانه وتعالى، وما فى حوزتى».

(٣٢)

وفيما قـبل هذا كله يتحدث الدكتور زكى سويدان بفـخر واعتزاز فى عدد غيـر قليل من المواضع عن بعض الظروف التى واكبت كـفاحه من أجل إتمام التعليم:

«... فى عام ١٩٣٢ [نتوقف هنا لنشيـر إلى أن صاحب المذكرات كان قـد أصبح طالبـا فى كلية طـب قصر العـينى] مرضـت زوجة أبى بالشلل النصفى الأيمن مع فقدان النطق، وتزوج أبى من قريبة لها، ولم أجد بدا من ترك المنزل فى شارع مراسينا بالسيدة زينب إلى شقة صغيرة

بشارع بستان الفاضل بالمنيرة، وجاء معى أخى الأكبر أحمد ثم الوالدة من دقادوس، ولم يتأخر والدى فى دفع المصاريف الشهرية برغم أنى قاطعته ولم أزره، واجتهدت فى الدراسة فكنت أول الناجحين فى الانتقال من السنة الثانية إلى الثالثة، ومنحت للتفوق الميدالية الذهبية باسم عيسى حمدى باشا، ونشرت صورتى فى الجرائد مما حدا بالوالد إلى زيارتى بالمنزل وعادت العلاقات الطيبة بيننا».

«وقد شجعنى هذا التفوق على أن استأذنت فى مقابلة السيد العميد، وهو باعث النهضة الطبية فى مصر المرحوم الأستاذ الدكتور على باشا إبراهيم، وطلبت منه إعفائى من نصف المصاريف المقررة علىّ وقدرها أربعة عشر جنيها، فقال لى رحمه الله: أنا لا أقبل واسطة فى العمل، فقلت لسيادته: إن واسطتى هى تفوقى، وليس لى واسطة أخرى.. فابتسم وقال: طيب.. وفعلا أعفانى من جميع المصروفات».

(٣٣)

وليست هذه هى كل صور المعاناة التى صادفها الدكتور سويدان فى إتمام تأهله العلمى المزدوج بشهادات مصرية وبريطانية مع أنه كان فى وسعه أن يكتفى بهذه دون تلك أو بتلك دون هذه، لكنه كما نعرف أصرّ، وقد كان هذا من حسن حظه، على أن يحصل على الاعتراف بتأهله وجدارته من مصر ومن خارجها على حد سواء، وقد تصادف أنه نال الشهادة البريطانية قبل أن ينال الشهادة المصرية، بل إنه كان ـ على حد روايته ـ أول من رسب فى شهادة الدكتوراه المصرية من أولئك الذين حصلوا على عضوية الكلية الملكية للأطباء، بوسعنا أن نطالع ما

يرويه عن حصوله على هذه الدرجة، بل على حصوله على درجة الدبلوم فى علم وظائف الأعضاء فى أبريل ١٩٤٨ . وهو يشير إلى أن علم الفسيولوجيا أو علم وظائف الأعضاء، هو علم الأمراض الباطنية، «فكيف يعرف الطبيب العضو المصاب إن لم يكن يعرف العضو السليم؟».

□

وفى وسط كل هذا الحديث عن الامتحانات يأبى الدكتور زكى سويدان إلا أن يشير إلى دور «الواسطة والمحسوبية» فى نظم امتحانات كلية الطب المصرية، وهو يضرب على هذه الجزئية مثلا طريفا حيث يقول:

«. . . أنا والمرحوم الأستاذ الدكتور على المفتى، بعد رسوبنا فى الدكتوراه، وكانت ثالث مرة لى، صدر قرار كلية الطب بأن تكون الامتحانات مرة واحدة فى السنة بدلا من مرتين. وركب معى على المفتى وقلت له: ادع بأعلى صوتك [لابد هنا من أن نعجب من هذا التعبير المصرى الشائع كأنما ارتفاع الصوت يكفل استجابة الدعاء] أن يكون متقدما معنا مَنْ يكون أبوه مسئولا . . وقد استجاب الله، فقد تقدم معنا الدكتور إسماعيل السباعى وكان والده حينذاك وزير التموين، فأعيدت الامتحانات مرة كل ستة أشهر».

«إنى لا أشكك فى مقدرته [أى مقدرة الدكتور إسماعيل السباعى] ولا فى مقدرة أى طالب، والأستاذ الدكتور إسماعيل السباعى كان متفوقا على أقرانه».

. . . .

ويحرص الدكتور سويدان كذلك على أن يشير إلى أن طريقه فى الترقيات التي يمر بها أعضاء هيئة التدريس فى كادرهم العلمى والوظيفى كان طريقاً شاقا، وهو يروى كيف أنه جاهد عن طريق القضاء لينال درجة الأستاذية فى الجامعة، وقد أنصفه القضاء كما أنصفه الوزير المسئول عن التربية والتعليم، كما يروي الدكتور سويدان أنه كان أول مَنْ طبق عليه نظام اللجان العلمية لترقيته في ١٩٥٦:

«. . . بعد أن صدر قرار محكمة القضاء الإدارى، وجاء فى حيثياته أننى علاوة على أقدميتى أتفوق فى الإنتاج، قدمت مذكرة إلى السيد عضو مجلس قيادة الثورة ووزير التربية والتعليم، بضرورة تأليف لجان علمية للترقية، خاصة فى درجة الأستاذية، فعمل سيادته [على هذا] حتى أصبح قرارا، وكنت أنا أول المتقدمين للأستاذية عن طريق اللجنة العلمية التى أشادت بإنتاجى العلمى وأحقيتى فى درجة الأستاذية، فرقيت إليها فى عام ١٩٥٦ ، وأصبحت أول أستاذ فى الجامعات يطبق عليه هذا القانون،وكانت اللجنة مكونة من الأساتذة: محمد إبراهيم، وأنيس سلامة، وبول غليونجى».

«وللعلم أننى طوال الأعوام من ١٩٥٠ حتى ١٩٥٥ وأنا أقاسى من الظلم، وكنت أقوم ببحوثى العلمية وأنشرها تحسبا لهذا اليوم. . وقد أنصفنى الله عز وجل».

(٣٤)

ولربما حان الوقت لنعود إلى تأمل فترة تكوين الدكتور زكى سويدان فى التعليم العام قبل التحاقه بكلية الطب، ومن الطريف أن هذا الرجل

لم يكن بارز التفوق فى التعليم العام بسبب ظروف كثيرة، ولم يكن هذا بدعا فى ذلك الزمن الذى كان التوجه التربوى فيه أعظم من أن ينصرف عن التكوين المتميز للتلاميذ والطلاب إلى تحقيق معايير لتفوق ظاهر أو كاذب على مستوى الدرجات والنسب المئوية، لكن الأطرف من هذا أن الدكتور زكى سويدان كان أول مَنْ نجا من النظام القديم الذى كان يقضى بإعادة سنة دراسية بأكملها إذا ما رسب التلميذ فى بعض المواد، وقد كانت هذه النجاة بفضل قرار سعد زغلول باشا بإتاحة الملحق للراسبين، وهو ما أدى إلى أن يوفر سنة دراسية كادت تضيع من عمره بسبب مضاعفات مرض التيفود الذى كان قد أصيب به:

«... ولما شفيت من الحمى أعقبها دور ضعف كامل كنت لا أقوى على القيام أو السير بمفردى لمدة تزيد على الشهر، وطبعا كان لا يوجد علاج أساسى للتيفود، فأمضيت فترة تزيد على الأربعة أشهر من السنة الدراسية، ثم ذهبت إلى المدرسة لمدة حوالى شهر قبل الامتحان فرسبت فى خمس مواد، وكان القانون أن الراسب يعيد السنة لولا أن سعد زغلول [وقد كان رئيس الوزراء فى ذلك الوقت] أباح الملحق فى هذا العام، فاجتهدت فى الدراسة ونجحت فى الخمس مواد والحمد لله».

□

كذلك فقد كان الدكتور زكى سويدان حسب ما يرويه ضمن طلاب أول دفعة طبق عليها النظام الجديد فى المرحلة الثانوية من التعليم العام

(وهو النظام الذى زيدت بمقتضاه سنوات الدراسة الثانوية، وزيدت مواد كثيرة فى المقررات الدراسية والأنشطة المصاحبة)، وهو النظام الذى بدأ فى عهد حكومة أحمد زيور وكان وزير المعارف فى ذلك الوقت على ماهر باشا:

«... وكانت سنة ١٩٢٥ أول عام تغير فيه برامج الدراسة للتعليم الثانوى، بجعلها خمس سنوات بدلا من أربع، وكان ذلك بفضل وزير المعارف على ماهر باشا، كما أضيفت إليها برامج تعلم لغة إضافية (الفرنسية أو الألمانية) مع اللغة الإنجليزية، واخترت اللغة الفرنسية، كما أضيف إلى البرنامج علم التاريخ الطبيعى، ونظام الرحلات إلى آثارنا المصرية، ونظام حقول يتعهد كل طالب بحوالى مترين مربعين يزرعها ويتعهدها بالنباتات الموسمية مثل الفول الحراتى».

....

ويستطرد الدكتور زكى سويدان إلى الحديث عما تتمتع به من تربية متكاملة في ظل تنفيذ برامج التربية الرياضية فى التعليم العام فى ذلك الوقت فيقول:

«كما أن التربية الرياضية كانت محل اعتبار فى تلك الأيام، وكان يقام دورى لكرة القدم للمدارس الابتدائية ودورى للمدارس الثانوية، وكان التنافس شديدا بين مدارس الخديوية، وفؤاد الأول بالعباسية، والسعيدية بالجيزة. وكنت أحرص على مشاهدة المباراة التى تقام فى مدرستنا، إذ

كانت كل مدرسة لها حوش كبير للكرة علاوة على الألعاب الأخرى، وأذكر من ضمن فريق الخديوية كابتن محمد لطيف، وقد كان جناحا أيمن له مكانة تحسب لها الفرق الأخرى ألف حساب، وكان كابتن الفريق، وأنا فى السنة الأولى، على الحسنى، ثم مختار فوزى متوسط قلب الدفاع، وكان فى الوقت نفسه قلب دفاع المختلط وهو نادى الزمالك الحالى».

□

على هذا النحو نرى مدى الاهتمام بالتربية الرياضية فى المدارس حتى إن زملاء زكى سويدان فى الخديوية كانوا نجوم مصر فى ذلك الوقت وفيما بعد ذلك فى كرة القدم على سبيل المثال، على أن الأهم من هذا ما يشير إليه زكى سويدان فى موضع آخر من أن الاشتراك فى حمام السباحة التابع لوزارة المعارف كان ميسرا، وأن إتقان تعلم السباحة فى هذا الملعب كان أمرا ميسرا كذلك:

«... ولما قدمت إلى القاهرة اشتركت فى حمام السباحة التابع لوزارة المعارف، وكان موقعه أول شارع رمسيس، وأتقنت السباحة».

(٣٥)

وينبه الدكتور زكى سويدان فى مذكراته إلى المظاهر الإيجابية التى جناها هو وأبناء جيله من عناية الدولة بتكوين شخصياتهم على نحو متكامل، فضلا عن الالتزام بالسلوك التربوى، ويأتى هذا ضمن حديث

ذكريات استرجاعية جميل ومحبب إلى النفس، ومن الإنصاف أن نشير إلى مدى ما تحمله هذه العبارات من إيمان عميق بالقيم وبالسلوك على الرغم من أن صاحبها كان نموذجا للثائر المتمرد:

«. . . الويل كل الويل لتلميذ اتسخت أصابعه، أو طالت أظافره، أو فقد حذاؤه البريق واللمعان، كانوا يشيرون إليه بالخروج من الصف والوقوف بعيدا، وأحيانا كانوا يحرمونه من اليوم الدراسي ويأمرونه بالعودة إلى البيت، ولم يكن هذا ترفا أو رفاهية، إنما كان التزاما بسلوك معين ارتضاه المجتمع وحرص عليه، سلوك يتمثل فى ضرورة الحرص على سلامة المظهر بضرورة الحرص على نظافة الأسنان».

«وانعكس سلوك المسئولين عن المدرسة على سلوكنا نحن التلاميذ الصغار. . تعلمنا أن نحترم أجسادنا وملابسنا وأن نحترم نظافتها. . وكانت كل مدارس مصر، فى القاهرة وفى بقية المدن، بل وفى المراكز والقرى، تلتزم بهذا السلوك».

«وبعد الساعة الثانية عشرة كانت تقدم لنا وجبة كاملة، تشمل الخضار والأرز والمكرونة واللحم أو الطيور خمسة أيام فى الأسبوع، وكان فريق الكرة مميزا يُجمع فى قاعة خاصة ويعطى أطيب المأكولات وبكمية وفيرة».

«كما كانت الرياضة البدنية إجبارية، ولها وقت محدد فى جدول الدراسة الأسبوعى، أبسطها السير فى صفوف منتظمة جيئة وذهابا فى حوش المدرسة رافعى الرأس بخطوات جماعية منظمة تحت إشراف

مدرس خاص للرياضة البدنية، كما كان لكل مدرسة ثانوية وأغلب المدارس الابتدائية ملعب خاص للكرة تقام به التمرينات ودورات المنافسة فى كرة القدم للمدارس. وكانت هذه الملاعب المصدر الرئيسى للأندية فى اختيار أحسن لاعبيها».

«ومضت السنون وتغير سلوك المدرسة ....
اختفت القدوة التى كانت تفرض الحرص على النظافة والالتزام بقواعدها، كما اختفت الرياضة البدنية».

(٣٦)

ومع كل هذا الزخم فى الحديث عن الحياة فإن الدكتور زكى سويدان لا يقدم فى هذه المذكرات تفصيلات كثيرة عن جهوده فى التعليم الطبى أو الإدارة الصحية والطبية، لأنه لم يكن من المعنيين بشغل وقته بمثل هذه الأمور، فقد كانت ممارسته للمهنة فى المستشفى الخاص وفى عيادته تأخذ جل اهتمامه، وقد خدم من خلال مستشفى الجامعة وعيادته جموعا كثيرة من المواطنين.

ومع هذا فإننا نراه حريصاً على أن يروى بقدر واضح من السعادة مشاركته فى إنشاء كلية طب جامعة الزقازيق، وهو حريص على الإشارة إلى سفره بنفسه إلى الزقازيق للإشراف على امتحانات البكالوريوس، وهو يشير إلى التزامه بقاعدة متميزة وذات قيمة وهى أن تكون امتحانات الكليتين واحدة فى عين شمس والزقازيق، وهو ما مكّن الكلية الناشئة، لحسن الحظ، من إحراز مستوى متميز فى وقت قصير:

«... فى عام ١٩٧٠ طالبت محافظة الزقازيق بإنشاء كلية الطب فى مستشفاها، وتم ذلك، إذ نقل إليها طلبة من السنة النهائية من طب عين شمس والقاهرة، وكانت فرعا تابعا لكلية طب عين شمس، وكنت أول من قام بالتدريس بها فى ٣٠ أغسطس ١٩٧٠».

«وكنت أضع أسئلة امتحان الأمراض الباطنة لطلبة البكالوريوس الساعة ٨ صباحا يوم الامتحان فى كلية طب عين شمس، وأضع الأسئلة فى مظروف مغلق أعهد به إلى أحد الأساتذة كى يوزعه على كلية طب عين شمس الساعة ١٠ صباحا، أما أنا فكنت أضع نفس الأسئلة فى مظروف آخر وأسافر بسيارتى إلى الزقازيق كى يبدأ امتحان طلبة البكالوريوس الساعة العاشرة صباحا، أى أن طلبة الكليتين كانوا يمتحنون فى الوقت نفسه وتوجه إليهم الأسئلة نفسها».

....

ويردف الدكتور زكى سويدان بذكر رأى ذاتى على هيئة حكمة قصيرة عميقة فى أن إنشاء كلية الطب يسهل إنشاء الجامعة:

«وكما سبق أن ذكرت فإن إنشاء كلية طب يسهل إنشاء جامعة».

....

ثم يعقب الدكتور سويدان بالثناء على جامعة الزقازيق:

«وهكذا أصبحت جامعة الزقازيق - بفضل رجالها - من أهم جامعات مصر، بل إنها أنشأت كلية طب فى بنها تابعة لها، ولا يستبعد أن تكون نواة لجامعة بنها فيما بعد على نفس النسق».

«وبعد فترة اكتفيت بالانتداب ممتحنا خارجيا للدكتوراه مرتين كل عام حتى الآن».

. . . .

ونلاحظ فى مذكرات الدكتور زكى سويدان حرصه الشديد على الثناء على كلية طب جامعة الخرطوم التى قدر له أن يشارك فى أعمال الامتحانات فيها:

«. . . فى أبريل ١٩٧٢ انتدبتنى كلية طب الخرطوم ممتحنا خارجيا، فذهبت وقمت بأداء مهمة الامتحان، وقد أعجبنى ما لمسته فى التعليم الطبى من عدة نواح:

«أولا: قلة العدد نسبيا، فهذا يمكن الأستاذ من تعليم الحاضرين بمستوى مرتفع».

«ثانيا: أن الطلبة كانوا على مستوى عال فى الامتحان الإكلينيكى، وهو أساس ممارسة مهنة الطب».

«ثالثا: إجادة الطلبة للغة الإنجليزية، فهذا يسهل عليهم متابعة المراجع الأجنبية والتطور الطبى فى أفرع الطب المتعددة».

«رابعا: كانت البنات تحضرن الامتحان بالزى القومى، وكنت أتعجب كيف تمارس الطالبة الكشف بالسماعة وقياس ضغط الدم دون أن يكون الثوب عقبة، بل ودون ن ينزلق الثوب، فكنت أريد من تقديرى لهن بخمس درجات، وقد أبلغت السيد عميد الكلية بذلك».

ويحرص الدكتور زكى سويدان على أن يشير بكل وضوح إلى معاناته هو نفسه من كثير من أزمات التعليم الطبى والتطور الطبى، وسنجتزئ للقارئ بما يرويه عن واحدة من هذه الأزمات وهى تلك التى تتعلق بالنعرة الجامعية فى محاربة النابغين من غير أساتذة الجامعة (أو عدم الاعتراف بهم)، وهو يشير إلى هذه الأزمة فيما يتعلق برغبته التى تطلع إليها فى أن يضمن برنامج التعليم الطبى فى قسمه برنامجاً لتعليم المناظير مستعينا برائد المناظير فى مصر على حد تقديره، وكان طبيبا فى القوات المسلحة، ولم تكن الجامعة قد عرفت هذا التخصص بعد، وهو يروى ما صادفه من تعنت زملائه وكيف أمكن له أن يتغلب على هذه المشكلة بطريقته الخاصة:

«. . . ورائد هذا العمل [أى المناظير] فى مصر - دون ريب - هو الدكتور مصطفى المنيلاوى بمستشفى المعادى للقوات المسلحة، وقد أرسلت إليه الجامعات أبناءها للتعلم والتدريب. ويكفى أن أقول إن أحد أساتذتنا وهو من الأئمة العالميين - حين مرض بجامعة الإسكندرية، انتقل إليه المنيلاوى لإجراء هذا الفحص. وقد أدركت فى عام ١٩٧٢ أهمية هذه الوسيلة فى التشخيص، عرضت على مجلس قسم الأمراض الباطنة مشروع قرار بانتداب سيادته إلى كلية طب عين شمس، ولكن معظم الزملاء قد أصيب بالنعرة الجامعية ورفض العرض. ولكنى أخبرت السيد العميد بعد ذلك بأنى سأرجو الدكتور مصطفى المنيلاوى أن يحضر فى محاضرتى، ويلقى الضوء على «المنظار الضوئى الهضمى» لطلبة السنة النهائية، وكان هذا من حقي، وتم ذلك فعلا».

وعلى الرغم من أن هذه المذكرات تحدثنا بوضوح وصراحة عن كثير من المرضى وأمراضهم، فإن الدكتور زكى سويدان يبدو فى بعض مواضع من مذكراته حزيصا على المفاخرة بحرصه على السرية الطبية، وهو يذكر أنه كان يلتزم بهذا المبدأ حتى على مستوى أسرته ، وهكذا يبدو صاحب المذكرات حريصاً على أن يرينا أن اختراقه لنطاق هذه السرية فى بعض ما روى من وقائع محددة لم يكن طابعا أو ديدنا وإنما كان لحاجة موضوعية رآها هو تستحق هذا الاختراق، ونعود إلى حديثه عن التزامه بقيم السرية حيث يقول:

«. . . كنت أدعى لزيارة صهرى المرحوم الدكتور توفيق عمر من آن لآخر كلما اشتدت وطأة المرض عليه، فأذهب وأعمل ما يمكننى ثم أعود لمنزلى دون أن أذكر لزوجتى شيئا، ولكنها كانت تعلم من شقيقتها التى كانت بالشقة المجاورة لوالديها، فتلومنى زوجتى وأتحمل اللوم دون أن أتكلم، فقد أصبح طابعا متأصلا فى حياتى».

□

ويضرب الدكتور زكى سويدان مثلا آخر بحرصه على أسرار المرضى، وهو فى هذه الحالة يتعلق بالرئيس عبد الناصر نفسه:

«فى يوم ١١ مارس ١٩٦٥ كنت فى لجنة طبية (كونسولتو) فى منزل الرئيس جمال عبد الناصر، وكنت على موعد فى منزل شقيقه فى الزمالك، وتأخرت عن الموعد الآخر حوالى ساعة، فلما وصلت إليه

اعتذرت إليه لظروف طبية طارئة دون أن أذكر له أنى كنت فى منزل أخيه».

....

«لقد سمحت لنفسى بذكر هذين المثالين، إذ انقضى عليهما حوالى ٢٥ عاما، وهو الحد الأقصى للوقت الذى تمتنع فيه الدول عن نشر أخبارها».

□

ومع هذا كله فإن الدكتور زكى سويدان يعترف فى مذكراته بما قد يبدو وكأنه متناقض تماماً مع التزامه بهذا المبدأ، ولنقرأ هذه القصة:

«وفى يوم قدم لى الدكتور توفيق عمر والد زوجتى أحد التجار وأوصانى بالكشف عليه، وبعد أن أتممت هذه المهمة اختليت به وأخبرته إذا كان بينه وبين هذا الرجل تعاقد فيجب أن ينهيه، فسألنى: لماذا؟ فأجبته بأن هذا الرجل لا يمكن أن يعيش لأكثر من عامين».

«وانهالت علىّ التهكمات فى المنزل بعد هذه النصيحة التى لم يعبأ بها وقام مع هذا الرجل بعمل شركة لصيد السمك فى السويس».

«وتوفى الرجل قبل مضى عامين وظلت القضايا متداولة فى المحاكم لأكثر من عشر سنوات».

وفضلا عن هذا فإن الدكتور سويدان على نحو ما رأينا فى مواضع متعددة من مدارستنا لمذكراته كان يشير بالطبع إلى كثير من الأسرار الطبية لكثير من مرضاه فى هذه المذكرات التى بين أيدينا.

(٣٧)

ولا يفاجئنا فى هذه المذكرات أن يعترف الدكتور زكى سويدان بكل صراحة بفشله فى مراقبة واحد من أقرب مساعديه وهو ممرض العيادة الذى تمكن من أن يسرق جهده(!!) على مدى سنوات مستمرة، وهو حريص على أن يروى تفصيلات القصة متضمنة كل ما اتخذه بعد هذا من احتياطات إجرائية وقانونية تكفل له النجاة من مطالباته ومناكفاته، ومن حسن الحظ لتاريخنا الاجتماعى أن الدكتور زكى سويدان قد أورد تفصيلات هذه القصة على هذا النحو الصريح الدقيق والمطول.

يقول الدكتور زكى سويدان:

«... حين بدأتُ العمل بعيادتى فى يوليو ١٩٤٧ فى موضعها الحالى (يقصد: ميدان سليمان باشا، وقد بقيت عيادته على الدوام فى هذا الموضع)، كان يوجد أحد الخدم بالمنزل منذ عام ١٩٤٢، وكان يعرف القراءة والكتابة فألحقته بالعمل معى كتمورجى، وظل فى هذا العمل، وتزوج وأنجب أطفالا، وكنت أرى مظاهر اليسر بادية عليه، فمثلا كان يعود لمنزله ليلا فى تاكسي، وهو لا يقدر عليه إلا إذا كان دخله حوالى مائتى جنيه».

«ولاحظت أن محفظتى تختفى منها من آن لآخر ورقة بخمسة أو بعشرة جنيهات، وأسأل السيدة حرمى هل أخذت شيئا من جيبى أو محفظتى؟ فكانت تجيب بالنفى، ولم يخطر على بالى مطلقا أن أسأل التمورجى لثقتى المطلقة فيه».

«وفى ٢٥ مايو ١٩٦٤ جاءنى صديق عزيز هو الأستاذ كمال الغر رئيس جهاز الرقابة الإدارية فى هذا الوقت ومعه مريض يبغى مساعدته، وانتظر الأستاذ كمال فى حجرة المكتب، وكان من عادتى عندما أدخل هذه الحجرة أن أخرج محفظتى من جيب جاكتتى وأدفعها داخل تجويف فى مكتبى».

«وقمت بإدخال مريض الأستاذ كمال فى حجرة الكشف، وانتهى الكشف فى فترة وجيزة، وعدت إلى حجرة مكتبى ففوجئت بالتمورجى وهو راكع أمام فجوة المكتب، وطبعا كان غير منظور للأستاذ كمال وهو فى هذا الوضع، فرأيته قد استخرج محفظتى وأخرج منها ورقة بعشرة جنيهات وهم بإرجاع المحفظة.. شاهدت هذا المنظر وإذا بى أقف مشدوها ثم صرخت: اخرج ياحرامى.. هو أنت الذى ائتمنتك ٢٦ عاما وكنت أشك فى أقرب الناس إلىّ ما عداك،وطاردته فى العيادة وأنا أردد: اخرج ياحرامى.. فطلب أن يأخذ شنطة يده فأذنت له بشرط أن أرى ما بداخلها، ورأيت أوراقا مكدسة من فئة الخمسة والعشرة جنيهات، وسمحت له بأخذها والخروج».

«وكان هذا هو التفسير الوحيد كيف تنقص محفظتى ٥ أو ١٠ جنيهات فى أيام كثيرة، ولبضع سنين، وقد كانت صدمة عنيفة لى اضطرتنى لأخذ إجازة لبضعة أيام لأنى صدمت فى شخص أعطيته كل ثقتى وإذا به الخائن الوحيد من جميع مَنْ حولى..».

«وجاءنى بعد حوالى أسبوعين التمورجى المذكور ومقدما أولاده واسطة للعودة للعمل، فعرضت عليه العودة بلا عمل، ولكن بالمرتب الشهرى الذى كان يتقاضاه، وأقصد ألايكون له أى علاقة بالمرضى، سواء فى الحجز أو تسلُّم الأتعاب، ولكنه رفض هذا العرض، ثم حضر إلىّ بعض الأصدقاء طالبين له مكافأة، فأجبت أنه يكفيه أنى لم أبلغ البوليس، ومع هذا فهذا شيك بمائة جنيه، ومع ذلك لاحقتنى منه قضايا مصلحة العمل ولكننى كنت قد احتطت لهذا، فعند ضبطه متلبسا عرضت عليه إما كتابة الاستقالة أو استدعاء البوليس فاختار الأولى، وكانت هى الفيصل بعد خيانة عمل دام واحدا وعشرين عاما».

«وعرفت بعد ذلك أنه كان يدخل منزلى ليأكل ما يشاء قبل أن آكله أنا، ويدخل حجرات أبنائى وقد ضبطه أكبر أبنائى وقد نشل منه جنيها فضيا، وعرفت كذلك أنه كان يفرض إتاوة على أقرب الناس إلىّ فكان يأخذ مثلا ٢٥ قرشا من عديلى الكابتن حسين توفيق».

(٣٨)

نأتى بعد هذا إلى بعض فصول أو أجزاء مذكرات الدكتور زكى سويدان التى تتعرض لتاريخنا السياسى وشخصياتنا السياسية، ونبدأ

بالشخصيات التى تجنب صاحب المذكرات أن يصدر عليها حكما واضحا محددا، وفى مقدمة هذه الشخصيات شخصية الرئيس عبد الناصر، ومن الواضح أن الدكتور سويدان بحكمة طبية قد آثر الابتعاد عن هذه المنطقة عمدا، لكنه فى ذات الوقت حرص على ذكر انطباعاته المبكرة عن جانب مهم فى شخصية الرئيس جمال عبد الناصر، وهو إجادته للحسابات والاحتياطات أو تقدير الموقف، والقصة التى يرويها زكى سويدان نقلاً عن المهندس عبد الخالق الشناوى تنصف الرئيس عبد الناصر من حيث قدرته المبكرة على التأكد من الخطوات الكفيلة بسلامة التنفيذ.

يقول الدكتور زكى سويدان فى معرض حديثه عن رحلة شارك فيها:

«... ورحب بنا السادة مهندسو الرى، و على رأسهم المهندس القرمانى والمهندس عبد الخالق الشناوى الذى أخبرنا عن بعض ذكرياته مع الرئيس جمال عبد الناصر فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٤١ و١٩٤٣، وقد كان نقيب فرقة الجيش المصرى بهذا الموضع، فقال المهندس الشناوى: إنه قام مع بعض ضباط الجيش ـ وعلى رأسهم جمال ـ برحلة صيد فى الجهة الغربية للنيل، وركبوا سيارتين، وما أن ساروا حوالى ١٠ كيلومترات حتى أمر النقيب جمال عبد الناصر بالتوقف وعاد إلى مقر الجيش ليعطى أوامره بضرورة استعداد سلاح الإشارة، ولما عاد أخبر الجماعة بما قام به فتعجبوا.. ولماذا وهم فى سيارتين ويستبعد حدوث أى عائق؟ وعلى العموم قاموا بالرحلة وباتوا

فى الخيـام، وفى اليوم التـالى بدأوا العودة، وعلى بعـد ٤٥ كيلومـترا تعطلت إحدى السيارتين واضطروا جميـعا لركوب سيارة واحدة ما لبث أن انفـجر أحـد الإطارات وأحلوا مـحله العجـلة الإضافـية، وسـارت السيارة،وعلى بعد ١٨ كيلومتـرا انفجر أحد الإطارات وتوقفت السيارة، ونزل جمال وأرسل إشارات النجدة التى سارعت فى الحال إليهم وعادوا جميـعا سالمين. وقد كـشفت لى هذه الواقعة ناحيـة من نواحى تفكير الرئيس جـمال عـبـد الناصر، وهـى إصراره على التـأكـد من جمـيع الخطوات التى يراها مجاله الفكرى لسلامة التنفيذ».

(٣٩)

ويبدو لنا بوضـوح أن زكى سويدان كـما ذكرنا كـان متيـما بكل مَنْ كانوا مثله فى قوة الشخصية والقـدرة على قول الحق بقوة، والتعبير عن المعتقد بلا خوف، ومن هنا يأتى إعجابه الشديد بشـخصية الشهيد عبد المنعم رياض فى مراحل حياته المختلفة.

ويروى الدكتور سويدان ملامح كثيرة من ملامح شخصية الشهيد عبد المنعم رياض فى مواضع متعددة من كتابه :

«وفى عام ١٩٤٥ سـافر إلى انجـلترا للدراسـة فى لاركهـيل، وقام بزيارة أخيه دكتور محمود رياض الذى كان يدرس هو الآخر فى انجلترا لدرجة دكتور فى الهندسة».

«أذكر حديث المشير عبد المنعم رياض وهو يقول: متى كنت ضابطا بالجيش فإن أهم الواجبات أن تطبق شفتيك، وأن الثرثرة أفتك الأسلحة بالجيش».

....

«ذهب الفريق عبد المنعم رياض إلى وزير الحربية شمس بدران فى مايو ١٩٦٧، يحذره من انتشار القوات المصرية بهذا الشكل، وأنها ستصبح لقمة سائغة للعدو، وكان رد شمس بدران أن هذا ليس من شأنه، سبه عبد المنعم رياض وسب مَنْ وضعه فى هذا المركز».

....

وفى موضع آخر يروى زكى سويدان هذه الفكرة عن غيره مع تفصيل أكثر وهو يقول:

«وقد علمت أنه ذهب قبل النكسة إلى وزير الحربية السيد شمس بدران وقال له: إن انتشار القوات المسلحة فى سيناء بهذا الشكل، بدون غطاء جوى مكفول، سيؤدى إلى سهولة افتراسها بقوات العدو، وأنا أطلب سرعة تجميع وعودة القوات المسلحة، وأجابه وزير الحربية بأن هذا ليس من اختصاصك، وأجابه الشهيد: الله يلعنك أنت واللى عينك.. وانصرف، وكان هذا اللقاء سبب تأخير ترقية الشهيد إلى رتبة فريق قبل تاريخ النكسة».

ويروى الدكتور سويدان على لسان عبد المنعم رياض بعض ذكرياته عن قيادة جبهة الأردن في حرب ١٩٦٧ وهو ينسب إلى الشهيد عبد المنعم رياض قوله:

« . . . حين تحققت من قصور الدفاع الجوى انسحبت بالجيش الأردنى الطريقة المثلى فلم أخسر شيئاً».

ويروى الدكتور سويدان عن عبد المنعم رياض إضاءة أخرى لموقف القيادة العربية من الحرب:

«. . . ذكر أنه عند تكليفه بقيادة الجيش الأردنى أحال الملك حسين إليه مشكلتين، الأولى: أن أركان حرب الجيش السورى توقف عن أخذ استعداد معين للحرب، وكان الطريق مفتوحا دون دفاع إلى دمشق، ولما ناقشه الفريق رياض أخذ الضابط السورى يناقش لمدة ساعة، ثم تساءل: هل أتبع المدرسة الروسية أم المدرسة الغربية فى الاستعداد؟ وأخيرا أصدرالفريق رياض أمره إليه. . مع أنواع السباب التى لا يمكن ذكرها».

. . . .

«ثم جاء مسئول الجيش العراقى وأخذ يتكلم، فسأله الفريق رياض: هل معك ذخيرة؟ فأجاب العراقى: لا والله. . فقال له الفريق: يعنى أنت «طوفشجى» ليس إلا. . و«الطوفشجى» هو الذى ينظف السلاح وأصدر إليه أوامره».

. . . .

«جمعتنى الظروف مع الشهيد الفريق أول عبد المنعم رياض، وهو قائم بعمل رئيس أركان حرب القوات المسلحة،وتطرق الحديث إلى كارثة ١٩٦٧، فقال بالحرف الواحد: لو أننا ركزنا جهودنا على التعاون والتكامل مع السودان، لأصبحنا أكبر قوة فى الشرق، ولكن للأسف لقد تصفينا فى حرب اليمن».

....

«وقد صدق قول الشهيد الفريق عبد المنعم رياض حين سمعت منه عام ١٩٦٨ أننا فقدنا خيرة رجالنا فى حرب اليمن».

....

«وقد ذكر لى فيما بعد عام ١٩٦٨ المرحوم الفريق عبد المنعم رياض عند توليه القيادة،أنه حدثت تصفية للقوات المصرية فى اليمن مما أضعفها كثيرا [مما] يتعذر استعاضته، وكان الأجدر بمصر أن تولى اهتمامها بالسودان، فهو العمق الطبيعى لمصر، وكان يمكن أن يكون مركز مصر فى هذه الحالة مركزا قويا جدا. وأضاف الفريق أنه يلقى صعوبة فى التمويل بل وفى اختيار أهم المعدات الحربية فكان يطالب بتقوية السلاح الجوى قائلا: إن إسرائيل [تعرف] ما يهمها فهى تقوم بزيادة السلاح الجوى وهم يعلمون جيدا أهمية هذا السلاح فى الحرب، كما أنهم يراعون الاقتصاد وصرف ثمن المشتريات المهمة للحروب، وكان الأجدر بنا أن نتبع هذه التصرفات».

ويلخص زكى سويدان قصة استشهاد عبد المنعم رياض بطريقة متحفظة تبدو وكأنه يكتب تقريراً طبياً فيقول:

«وفى يوم الأحد ٩ مارس ١٩٦٩ وكان بصحبته اللواء عدلى حسن سعيد قائد الجيش الثانى، وعند وصولهما الكيلو ٦ على قنال السويس، نزلا من سيارة القيادة، فسمع عبد المنعم صوت إطلاق صاروخ، فأخذ زميله دفعا إلى منخفض بجوار الطريق، والقوة الهدامة من التفريغ أحدثت الإصابة بهما، وكان خلفهما اللواء عبد التواب هديب قائد المدفعية، والعقيد حسنى سكرتير عبد المنعم. وقد جمعت الشظايا من الحفرة التى استشهد فيها، وقد أحدثت إحداها إصابة بشريان البطن والساق أدت إلى استشهاده.. عليه رحمة الله».

(٤٠)

ويكتشف القارئ للمذكرات مدى حرص الدكتور زكى سويدان على إحياء ذكرى صديقه الشهيد عبد المنعم رياض بطريقته الخاصة، وهى طريقة من طرق الأوروبيين فى تخليد ذكرى الأعزاء عليهم حين يصدرون كتاباً تذكارياً فى موضوع علمى ما لكنهم يجعلون الكتاب مهدى إلى روح مَنْ يريدون تخليد ذكراه، وهى فكرة غير شائعة فى مصر، حيث التأليف نفسه وفى حد ذاته لا يلقى الاعتبار لذاته، يروى الدكتور زكى سويدان القصة فيقول:

«... وقمت فى خلال ٤٠ يوما بإصدار كتاب باللغة الإنجليزية فى ١٦٠ صفحة، عن فشل أجهزة الجسم، بمناسبة يوم الأربعين لوفاته،

وكانت فكرة الكتاب رمزا لفشل أجهزة مصر التى جلبت علينا النكسة.. وكانت السبب فى استشهاد عبد المنعم رياض، وقد أشادت بالكتاب وفكرته الأوساط العلمية فى لندن، وقد وضعته أمانة عند عميد الكلية، وتباع النسخة بخمسين قرشا، والثمن المحصل يشارك فى إقامة تمثال للشهيد فى موضع استشهاده، وهو الكيلو ٦ على القنال».

. . . .

هكذا كان الدكتور سويدان أقرب إلى الرومانسية فى هذه الفكرة، لكنه سرعان ما يصل إلى نمط الاقتراحات العملية وهو يعبر عن سعادته بأن الميدان الذى أطلق عليه اسم عبد المنعم رياض أصبح بمثابة واحد من أهم ميادين العاصمة، على الرغم من أنه كان «صغيرا» حين أطلق المسئولون اسم عبد المنعم رياض عليه، وهو يشير إلى أنه طلب من المسئولين أن يطلقوا اسم عبد المنعم رياض على كوبرى ٦ أكتوبر الحالى، ومن الجدير بالذكر أن كوبرى ٦ أكتوبر فى بداية إنشائه كان يسمى «كوبرى رمسيس» حتى إذا ما تحقق الانتصار المجيد أطلق عليه اسم ٦ أكتوبر.. وهذه جزئية لم يوضحها الدكتور زكى سويدان فى سياق كلامه:

«وطلبت من المسئولين بعد ذلك تسمية كوبرى ٦ أكتوبر - طبعا قبل معركة ٦ أكتوبر - باسم الشهيد الفريق عبد المنعم رياض، ولكنهم تملصوا من الاستجابة واكتفوا بتسمية الميدان الصغير حينئذ باسمه،

ويشاء اللـه أن يصبح هذا الميـدان من أهم ميـادين القاهرة، وهو مـبدأ كوبرى ٦ أكتوبر».

□

ويحـرص الدكـتـور زكى سـويدان على تكرار الإشـارة العـابرة إلى الشكوك التى ثارت حول مـصرع عبد المنعم رياض وأن هناك احـتمالا قويا باغتياله بإعلام العدو بتـواجده فى مكان إصابته، وهو يشير فى هذا الصـدد إلى ما نشـرته مـجلة المـصور فى العـدد ٢٧٤٥ (ص ٣١ فى ١٠مايو ١٩٧٧ تحقيق الأستاذ ميشيل جرجس)».

(٤١)

ويقدم الدكتور زكى سويدان فقرات كثيرة فى الثناء على المشير أحمد إسماعيل، مشـيرا إلى أنه كان يتمتع بصداقته وثقـته، ومن هذه الفقرات ما يثنى به على دور هذا الرجل فى الفترة التى تولى فيـها المسئولية عن المخابرات العامة:

«. . . نشأت بينى وبين السـيد المشـير أحمـد إسماعيل عـلاقة عن طريق الطب بعد أن أصبح رئيسا لإدارة المخـابرات العامة، وقد أخبرنى أنه هو وإدارته قد تفـرغا كاملا لمـعرفة أخـبار العدو وتجاهلا الأخـبار الشخـصية لرجـال مصر وعـائلاتهم، وهى كانت الشـغل الشاغل لمن سبقوه، بغية إخضاع كرام الناس وإذلالهم، بل والتنكيل بهم».

. . . .

وفى موضع آخر يتحدث الدكتور زكى سويدان عما كان يعانيه من سوء الخدمة التليفونية وأنه فكر فى أن يتغلب على هذا السوء بأن يطلب من صديقه رئيس المخابرات (الذى هو المشير أحمد إسماعيل) أن يضع التليفون تحت المراقبة لعل الخدمة تتحسن، لكن صديقه رفض:

«. . . كنت صديقا للسيد المشير أحمد إسماعيل حين كان رئيسا للمخابرات،ورجوته أن يضع تليفون عيادتى تحت المراقبة لعله يعمل ولو لنصف الوقت ولم يوافق».

□

ويروى الدكتور زكى سويدان ذكرياته عن اللقاء مع المشير أحمد إسماعيل فى يوم السبت السابق مباشرة على اندلاع حرب أكتوبر ١٩٧٣، وهى ذكريات عزيزة على النفس العربية المؤمنة بالله:

«وفى يوم السبت ٢٩ سبتمبر ١٩٧٣ فى الساعة الثانية ظهرا، كنت على موعد مع المرحوم المشير أحمد إسماعيل وهو وزير الحربية، وجلست دقائق عند مدير مكتبه، ورأيت بعض كبار الضباط ينصرفون من مكتبه فرادى، وكل منهم يعلو وجهه تعبير الإصرار والإقدام ولم أتمكن حينذاك من تفسير هذا المنظر الجاد، وفى الموعد المحدد، الثانية ظهرا، استقبلنى السيد المشير بالترحاب بوجهه البشوش، وألقيت إليه رجاء تأجيل تجنيد ابنى عادل، خريج التجارة مدة عامين للحصول على درجة الماجستير، وحين رفض طلبى - على الرغم من الصداقة التى كانت تربطنى به - تقبلت منه الرفض بقلب مفتوح ودعوت له بالتوفيق».

(٤٢)

ومن الجدير بالنظر أن الدكتور زكى سويدان ينصف أيضاً قائدا عسكريا ثالثا لا يحظى فى التاريخ المعاصر بقدر الإنصاف الذى يحظى به عبد المنعم رياض، وأحمد إسماعيل، وهو الفريق محمد صادق، ويقدم الدكتور زكى سويدان عن الفريق أول محمد أحمد صادق أفضل فقرة منصفة أو مكتوبة فى المذكرات المصرية، وهو يبلور رأيه فى الدور الذى أداه الفريق صادق للقوات المسلحة بأنه كان بمثابة «بث الروح والحيوية والأمل فى النصر».

كما يشهد الدكتور زكى سويدان للفريق محمد أحمد صادق بأنه ظل يعمل من أجل القوات المسلحة على الرغم من معرفته بأنه لن يستمر طويلا فى القيادة، ولست أدرى كيف كان الدكتور زكى سويدان قد أدرك هذا المعنى العميق.

ويشهد الدكتور سويدان كذلك للفريق صادق بأنه لم يشارك فى التحريض على السادات قبل حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، لأنه كان يدرك ـ على حسب ما يرويه الدكتور سويدان ـ أن للرئيس السادات دور يقوم به من أجل وطنه. . وأنه قد صدق حدسه.

ولنقرأ هذه الفقرات التى يوازن فيها الدكتور سويدان بين القائدين اللذين تعاقبا على وزارة الحربية قبل المشير أحمد اسماعيل :

«. . . وإذا كان محمد فوزى قد أعاد الانضباط للقوات المسلحة بعد عودتها غير المنظمة من سيناء فى يونيو ١٩٦٧ ، فإن محمد صادق أعاد

لها الروح والحيوية وأعطاها الأمل الحقيقى فى النصر، وبث فى الجسد الذابل بفعل الهزيمة والانهيار الحياة والعزم والإرادة والصلابة بإيمانه القوى بالله وبمصر وبإنسانيته وعسكريته العصرية ذات البعد الإنسانى، وكان محمد صادق يدرك أنه لن يستمر طويلا فى القوات المسلحة بعد خروج السوفيت. كان يعلم على وجه اليقين أن أيامه فى المنصب معدودة لكنه ظل يمارس مسئولياته بكل الشرف رافضا كل محاولات التحريض على السادات. [وكان يقول] إن مصر بحاجة إلى السادات، فقد اختاره الله ليؤدى دورا وسيؤديه، وقد صدق الرجل،فقد خاض السادات معركة أكتوبر ١٩٧٣، وانتصر، وخاض معركة السلام، وانتصر».

(٤٣)

ويعبر زكى سويدان فى هذه المذكرات عن إعجابه بعدد من الشخصيات السياسية التى لمعت فى العصور التى عاشها ويبدو إعجابه بأقوياء الشخصية سابقاً وطاغياً على كل إعجاب آخر، وهو يرى فى قوة الشخصية مبرراً لكثير من الأمور، ونحن نرى فى أسباب إعجاب زكى سويدان كثيراً من الأمور العميقة التى تستحق بالفعل أن تلفت انتباهه، وأن تكون محلاً لتقديره فيما يرويه، ولعل حديثه عن إسماعيل صدقى باشا يمثل نموذجاً لهذا الانتباه والفهم:

«. . . وقد أخبرنى الدكتور جورج بطرس الذى كان يزوره [أى يزور إسماعيل صدقى] أن مكتب إسماعيل صدقى المفاوض الأول [فى

١٩٤٦] ليس عليه أى أوراق إنما عليه رواية فرنسية كان يسترخى فى قراءتها فيتجنب التوتر والانفعال، ولن أنسى مقاله فى جريدة أخبار اليوم عام ١٩٤٧ حين دعا إلى تجنب الحرب المفتوحة مع إسرائيل، وليقينه بأن انجلترا وأمريكا تقفان إلى جانب الإسرائيليين ولن يسمحوا للعرب بالانتصار».

□

كذلك تشير المذكرات إلى إصرار إسماعيل صدقى وهو رئيس للوزراء على احترام اللغة العربية والتمكين لها بكل صورة فى المعاملات والتعاملات حتى فى العلاقات التى يكون الأجانب وسفاراتهم طرفا فيها:

«وفى عام ١٩٤٦ كان رئيسا للوزارة وأمر بجعل اللغة العربية هى لغة المراسلات الرسمية، حتى من السفارات، سواء إنجليزية أو فرنسية وغيرها فى علاقات الأفراد والهيئات الحكومية ومصالحها، بل وأمر بأن تكون جميع اليفط [اللافتات] باللغة العربية أولا، وذلك تنفيذا للقانون رقم ١٣٢ لسنة ١٩٤٦».

. . . .

ويثنى الدكتور زكى سويدان على كل مَنْ صادفهم من المعلمين أو المديرين من ذوى القدرة على إدارة الأمور بالحزم والحسم، وهو حريص على سبيل المثال على أن يضمن مذكراته قدراً من الثناء على

الأستاذ محمد لبيب الكردانى ناظر المدرسة الخديوية مشيداً بما كان يتمتع به من مهابة:

«وفى المدرسة الخديوية كان يقف أمامنا السيد الأستاذ الناظر فنلقى التحية ثم ننصرف إلى فصولنا، وكان رجلا مهيبا ذا مظهر محترم وشخصية تربوية ممتازة، هو المرحوم الأستاذ محمد لبيب الكردانى».

(٤٤)

ونأتى إلى كبار الأطباء الذين يحظون بثناء الدكتور زكى سويدان أو إشادته على مدى صفحات المذكرات، وفى مقدمة هؤلاء على باشا إبراهيم الذى أعفاه من مصروفات الدراسة كما أشرنا إلى هذا فى موضع سابق، كذلك نراه حريصاً على فضل على إبراهيم فى ضم مدة خدمته:

«... وتذكرت فى هذا الوقت كيف رفضت راتبا شهريا ١٢٠ جنيها استرلينيا فى انجلترا بعد حصولى على الدرجة. وكان مستر بيفن وزير الصحة حينئذ قد بدأ التأمين الصحى، وفى حاجة إلي أطباء، وفضلت العودة إلى وطني، وبتصميم الأستاذ الدكتور على باشا إبراهيم ضمت مدة دراستى فى انجلترا بدون مرتب، واتصلت مدة خدمتى».

يريد الدكتور سويدان أن يقول إنه بفضل قرار على باشا إبراهيم (وكان مديراً للجامعة فى ذلك الوقت) أصبحت مدة خدمته متصلة، ذلك أنه كان من الممكن للبيروقراطيين أن يسقطوا من مدة خدمته فترة الإجازة التى قضاها خارج مصر من أجل الحصول على شهادته لأنه لم يكن مبتعثاً رسمياً.

□

ويعترف الدكتور سويدان بفضل الأستاذ سليمان عزمى عليه فى إلحاقه بالعمل بمستشفى الدمرداش بعد عودته بدرجة عضوية كلية الأطباء الملكية بلندن ورفض كلية طب قصر العينى عودته لوظيفة معيد للفسيولوجيا ، وهو يروى لقاءه بهذا العالم العظيم فيقول:

«. . . وذهبت فورا [أى بعد رفض عميد الطب عودته معيداً للفسيولوجيا ونصحه لى بالذهاب للعمل فى وزارة الصحة] إلى الراحل الكريم الأستاذ الدكتور سليمان عزمى، وكان وزيرا للصحة، وبادرته بقولى: معاليك مش عاوز طبيب عضو كلية الأطباء الملكية بلندن؟ فأجاب: نعم عاوزه، فقلت له: أنا ياباشا، فعينت إخصائيا فى مستشفى الدمرداش، ومنتدبا فى مسشتفى الملك (المنيرة حاليا)».

□

ويبدو بوضوح أن الدكتور سويدان كان محبا للرائد المصرى للعلم الذى نبغ فيه (علم الأمراض الباطنة العامة) وهو الدكتور سليمان عزمى، وهو يروى قصة تنم عما كان يحب أن يصوره من حسن خلق هذا العالم العظيم:

«. . . فى يوم ما من عام ١٩٦١ رنّ التليفون وأمسكت بسماعته قائلا: ألو . . وإذا بالمتحدث الأستاذ الدكتور سليمان عزمى يقول لى: أنا عرفت يادكتور سويدان إنك أنت طبيب جارى، وهو مصاب بنزف الآن، هل تسمح لى بإسعافه إلى أن تحضر؟ فأجبته: هل تسمح لى يا أستاذى أن أحضر فورا كى أتعلم؟».

ويعقب صاحب المذكرات على هذا بقوله:

«ما هذا الرقى والسمو الأخلاقى؟ لكن لا غرابة: . فهو الأستاذ».

(٤٥)

وهو يثنى على زميله ورئيسه الدكتور بول غليونجى فى مواقع عديدة من مذكراته، معترفا له بالألمعية والفضل فى الطب وغير الطب، وفى أحد هذه المواقع يقول الدكتور زكى سويدان:

«... زاولت عملى أستاذا للأمراض الباطنة اعتبارا من ١٨ مارس ١٩٥٦، وكان الرئيس الأول هو المرحوم الأستاذ الدكتور بول غليونجى،وكان مثالا رائعا للعلم والخلق وبحوثه عالمية، هذا علاوة على علمه الفائق بتاريخ المصريات، وقد ألف كتبا عدة بها، وكان يمتاز بمعرفته الفائقة لعدة لغات، فعلاوة على العربية والإنجليزية كان يجيد الفرنسية والأسبانية والألمانية، لهذا كان أستاذا متميزا عالميا، وانتهت مدة خدمته فى سبتمبر ١٩٦٦ وأصبحت أنا رئيس القسم حتى تاريخ إحالتى للمعاش فى مايو ١٩٧٣».

....

وهذه فقرة أخرى من فقرات ثناء الدكتور زكى سويدان على الدكتور بول غليونجى:

«أستاذ ضليع، يجيد عدة لغات، دمث الخلق، ذو ذوق رفيع، كان رئيسا لقسم الأمراض الباطنة التى أعمل بها أستاذا منذ عام ١٩٥٥. فى

عام ١٩٦٠ نجح ابنه فى شهـادة التوجيهية ولكن بمجـموع لا يسمح له بدخـول كلية الطب، ولمـست مـدى تأثر الأستـاذ غليـونجي فقـابلت السيدكمال الدين حسين وزير التربية والرئيس الأعلى للجامعات، وقلت له: إن الأستـاذ غليونجي يشـرّف الجامـعة كمـا يشرّف مصـر بالعلم، ومقـدرته الفائقة فى اللغـات المتعددة، وصـلاته العالميـة، وأرجو ألا تخسر الجامعة، بل تخسر مصـر، مثل هذه الشخصية. فسألنى الوزير: كيف؟ فقلت له: هل تتـصور سيادتك أن يقف الأستاذ يلقى مـحاضرته أو درسه عـلى الطلبة وهو يتـمنى لو أن ابنه كـان أحدهم. إن الأسـتاذ غليونجي يتـحسر الآن على علمـه الفياض، وعلى اشتـراكه الدائب فى التقـدم العلمى، والعلاج الوحيد هو اسـتثناء ابنه وقبـوله بكلية الطب، وقد اقتنع الوزير وقرر قبوله بكلية الطب».

يجدر بنا هنـا أن نشير إلى مـا يحظى به الدكتور غليـونجي من ثناء مناظر فى مـذكـرات الدكتـور مـصطفى الديوانى الذى كـان زمـيله فى الدفعة، وقد كان الدكتور بول غليونجي بالفعل أهلا لكل ثناء.

(٤٦)

وتحفل مـذكرات الدكـتور زكى سويدان بثناء على كـثيـر من زملائه المختلفـين فى الطب وفى غير الطب،، وهو ينتبه إلى كـثير من نواحى العبقرية فى شخصية هؤلاء، وقد أوردنا فى أثناء حديثنا فى فقرات كثيرة سـابقة مـلامح من هذا الثناء، ومن هـذا القبـيل أيضـا ثناؤه على وزير المواصلات الأسبق الدكتور مـحمود رياض الذى كان يدرس للدرجات

العليا فى الهندسة فى بريطانيا ويسكن مع بعض الأطباء الذين يحضرون للدراسات العليا فى الطب، وقد استوعب أسئلتهم وامتحاناتهم، ويصف الدكتور سويدان تطور علاقته بهذا المهندس العظيم فيقول:

«... وبمرور الوقت أصبح الدكتور محمود رياض [المهندس ووزير المواصلات فيما بعد] ملما بأسئلة امتحانات الطب التى تصادف كل طالب منا، لدرجة أن الدكتور مصطفى الجمال - ولم يكن ساكنا معنا - حضر فى أحد أيام الامتحانات ليعلم كيف كنا نسير، وكنا خارج المنزل إلا الدكتور رياض، فسأله عن حالة الامتحان، فردد عليه الدكتور رياض بعضا من الأسئلة. وتلعثم الدكتور الجمال بعض الوقت، فأجابه الدكتور رياض بالإجابة الصحيحة، ومضى الوقت، وعدنا بعد نجاحنا إلى القاهرة، وسكنت فى العمارة ١٧٨ شارع النيل بالعجوزة، وبعد فترة استأجر الدكتور محمود رياض الشقة المجاورة لى وبقينا معا لفترة حوالى ١٨ عاما ثم غادرنا إلى فيللا أقامها هو».

....

ويستطرد الدكتور زكى سويدان إلى الإشارة إلى الضيق النفسى الذى اعترى صديقه عند خروجه من الوزارة، وكيف كان أخوه الشهيد عبد المنعم رياض أكثر وعياً منه بالحياة السياسية وتقلباتها:

«... كان المرحوم الأستاذ محمود رياض وزير المواصلات السابق، قد أقيل من الوزارة، وأقبل عليه أخوه الشهيد عبد المنعم رياض - وهو

أصغر منه بعامين ـ وقال له: السياسة كده، ولازم تتوقع هذا الإجراء مادمت في هذا الميدان!! ثم اختارته جامعة الكويت أستاذا بها، وفى أثناء هذه الفترة اتصلت به رئاسة الجمهورية كى يشترى لها من الكويت جهازا يمكن لمالكه أن يتكلم تليفونيا مع أى شخص فى العالم. وقام الدكتور رياض بهذا العمل مادام هذا يساعد الرئيس على الاتصال الخارجى».

. . . .

ويتطرّق الدكتور زكى سويدان إلى رواية قصة صنع محمود رياض لطائرة استطلاع بدون طيار، وهو الإنجاز الذى ينسب إلى شقيقه الشهيد عبد المنعم رياض فى كثير من الروايات ويقول:

«قام بصنع نموذج مصغّر لطائرة استطلاع بدون طيار، وعرضها على القادة العسكريين برئاسة المشير عبد الحكيم عامر، وذلك فى أوائل الستينيات، ولكن للأسف لم يهتم أحد. وأخيرا ظهرت فى سلاح الطيران الأمريكى، ثم الإسرائيلى، فى أواخر السبعينيات، والشاهد الوحيد أمامى الآن هو الأستاذ الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء السابق».

□

ونأتى إلى نموذج لما يقدمه الدكتور زكى سويدان من معلومات عن شخصية لم تحظ بالشهرة، وهى رواية فريدة من حيث إشارتها إلى ذلك

«الشخص» الذى كان صاحب بعثة الجامعة المصرية إلي أوروبا، فلما اعتذر أتيح للمرشح الاحتياطى أن ينال البعثة بدلاً منه، وكان هذا العضو الاحتياطى هو الدكتور طه حسين نفسه، ومن الطريف أن الرواية تورد ألفاظاً ليست غريبة نُسبت إلى الملك فؤاد الذى كان رئيساً للجامعة فى ذلك الوقت، بيد أن الطريف فى الأمر أن الملك فؤاد كان هو أيضاً الرجل الذى رعى طه حسين بنفسه وجعله ينقل إلى الجامعة المصرية بدرجة أستاذ بدلاً من أن ينقل بدرجة أقل من هذا.. ولعل القصة التى يرويها زكى سويدان (أو ينفرد بروايتها) نقلاً عن الشيخ أحمد شرف الدين تبين لنا عن سر الإعجاب المثير الذى حظى به طه حسين عند الملك فؤاد الأول منذ كان لا يزال طالباً فى الجامعة الأهلية ومرشحاً احتياطياً للابتعاث إلى الخارج:

«... ووالد الدكتور الفريق طبيب حسن صبرى هو المرحوم فضيلة الشيخ أحمد شرف الدين رئيس المحكمة الشرعية فى ذلك الوقت، ولما كثر لقائى به بدأ يأنس إلىّ، وقال لى ذات مرة: فى عام ١٩٠٨ كنت طالبا بالجامعة المصرية، وطلعت الأول على الخريجين، وطلبتنى الجامعة لأكون مبعوثا إلى فرنسا من الجامعة التى كان يرأسها الأمير أحمد فؤاد «الملك فؤاد» فيما بعد، فأجبت بأن الله سبحانه وتعالى أمر بطاعة ولى الأمر ولكنه أوصى قبل أى شىء بطاعته ثم بطاعة الوالدين، وذهبت إلى والدى لأستأذنهما فى السفر إلى فرنسا، فرفضا، ورجعت أبلغ القرار إلى الجامعة التى أبلغت القرار إلى الأمير أحمد فؤاد، الذى

قال: خذوا اللي بعده، فقالوا: اللي بعده أعمي، فأجاب الأمير: أعمي أعمي. . يمكن ينفع أحسن من المفتح، وكان هذا الأعمي هو عميد الأدب العربي الأستاذ طه حسين».

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن الدكتور طه حسين في روايته لقصة ابتعاثه في كتابه « الأيام » لم يشر من قريب ولا من بعيد إلى أنه كان احتياطيا ، ولا إلى أنه تقدم لبعثة ضمن آخرين .

(٤٧)

وتتضمن هذه المذكرات تفصيلات مهمة يرويها الدكتور زكي سويدان عن مظاهرات سنة ١٩٦٨ التي اشترك فيها ابنه المهندس حمدى، ويطلعنا صاحب المذكرات على ما شاء تسجيله من الحوارات التي دارت بينه وبين كل من وزير الداخلية شعراوى جمعة، ووزير الإدارة المحلية حمدى عاشور، ونحن نرى الدكتور زكي سويدان يعترف في مذكراته بأنه تظاهر في حواره مع ابنه بأنه يدعو إلى مبدأ عدم رفع أي صوت في أثناء المعركة، وذلك لثقته في أن حواره مع ابنه سوف ينقل إلى أجهزة الدولة مما قد يعود عليه وعلى ابنه بأثر سلبي، وهكذا كانت «الدولة» البوليسية قد تمكنت من أن تؤثر في سلوك شخصيات ذات مكانة كبيرة من طبقة هذا الرجل الذي كان يفاخر على الدوام بقدرته على الجهر بما يعتقد:

«. . . في إضرابات كلية الهندسة في فبراير ١٩٦٨ توجهت ظهرا إلى كلية الهندسة جامعة القاهرة، ورغم أن البوليس نصحني بالابتعاد

عن الطلبة في هذا اليوم إلا أني صممت ودخلت الكلية أبحث وأسأل عن ابني حمدي، وصاحبني الأستاذ محمود شعبان أستاذ الميكانيكا، حتي وجدته يقف خطيبا في المدرج المليء بالطلبة، ولما انتهي أرسلت إليه فجاءني، وقلت له إن والدته مريضة وترجو أن يحضر إلي المنزل، وقد التف حولنا نفر لا أعرف هويتهم، أهم طلاب أم مخابرات، فقلت له: إني أصدقك القول، وفعلا كانت والدته منهارة خوفا عليه، فأجابني: إن هذه خدعة كي أترك إخواني، وأنه يرفض نصيحتي، فأجبته: إن هذا ليس وقت الخطب، إن العدو على الضفة الشرقية للقناة، وأن الواجب علينا الذهاب إلى القناة لنقوم بواجب الدفاع، فأجابني بأنه حاول ذلك ولم يفلح وأعيد للقاهرة، فقلت له: إن هذا الوقت ليس وقت تناحر وإضرابات، إنه الوقت الذي يجب أن نقف فيه خلف رئيسنا جمال عبد الناصر.. لثقتي بأن من الواقفين من سينقل هذا الحوار، ولكن حمدى رفض أيضا، ولكن ابن أحد أصدقائي المهندس محمود إبراهيم شحاتة هو الذى استجاب لنصيحتى».

«وفي المساء ذهبت ثانيا إلى كلية الهندسة، وأخذت أرجو حمدى لفترة طويلة أن يأتى معى إلى المنزل ثم يعود وقتما يشاء، فجاء معى وأمكننى إقناعه بالبقاء معنا».

□

ثم يشير الدكتور زكى سويدان إلى طبيعة معاملة المسئولين عن الهزيمة للطلاب، مشيرا إلى صورة (!!) اطلع عليها من أصل خطاب

لاذع كتبه ابنه حمدى إلى محمد حسنين هيكل يعنفه فيه، وقد تخوف الدكتور زكى سويدان من نتائج هذا الخطاب الذى عنف فيه ابنه هيكل، وهو يصفه بأنه ظِل الرئيس عبد الناصر، ويبدو الدكتور زكى سويدان كان فى حيرة من سير الأمور على هذا النحو غير المنطقى حين وجد ابنه قد نجا من أمر الاعتقال، مع أنه ظل طوال اليوم ينتظر أن ينهى إليه هذا النبأ، ولم يكن زكى سويدان بالطبع يدرك حدود الصراع بين هيكل من ناحية وبين بعض أجهزة المخابرات وفيها صديقه الذى أحضر له صورة من الخطاب اللاذع الذى كتبه ابنه إلى محمد حسنين هيكل.

وهذه هى رواية الدكتور زكى سويدان على نحو ما سجلها:

«... ولاشك أن المسئولين عن الهزيمة كانوا أشبه بالنمر الجريح يحاول افتراس مَنْ يقترب منه، وكنت أقدر هذا حق قدره، وبعد ذلك، وفى أحد الأيام قابلنى صديق فى المخابرات العامة وأخبرنى بأن حمدى أرسل مقالا-لاذعا يعنف فيه الأستاذ محمد حسنين هيكل، ثم أحضر لى صورة من هذا الخطاب. ولما كان حسنين هيكل هو خيال الظل للرئيس جمال عبد الناصر فقد أيقنت أن حمدى لابد أن يعتقل، وقد تأخر ذات ليلة فى الخارج إلى ما بعد منتصف الليل فنزلت إلى منزل السيد النائب العام الأستاذ على نور الدين وسألته: هل صدر أمر باعتقال حمدى؟ فأجاب بالنفى، وعدت إلى منزلى وجلست مستيقظا حتى الساعة الثانية صباحا حين حضر حمدى، ولم أتمالك نفسى فعنفته تعنيفا شديدا».

(٤٨)

ويطلعنا الدكتور زكى سويدان فى مذكراته على إشارات ذات مغزى فيما يتعلق بسيطرة الروح البوليسية على أجهزة الدولة، وهو يورد هذه الإشارات ضمن تفصيلات مهمة يرويها فيما يتعلق بالانتخابات البرلمانية التى أجريت قرب نهاية عهد الرئيس عبد الناصر فى أعقاب مظاهرات الطلبة، وهو يذكر أنه لما ذهب [كوسيط] يشكو رئيس مدينة المنزلة إلى حمدى عاشور اتصل الأخير بوزير الداخلية شعراوى جمعة فإذا بهذا الأخير [وزير الداخلية] يطلب من زكى سويدان أن «يتلهى» [أى ينشغل] فى ابنه حمدى ولا يطلب شيئا:

«. . . فى هذا الوقت كانت إجراءات الانتخابات لمجلس الأمة تتخذ، وكان لى قريب ـ هو الأستاذ عبد القادر سويدان ـ قد رشح نفسه فى بلدة المنزلة التى كان ينيرها تقريبا مجانا من وابور الثلج الخاص به، وجاءنى عبد القادر يخبرنى بأن السيد رئيس مجلس المدينة يحاربه حربا شعواء لصالح مرشح آخر، فذهبت إلى السيد حمدى عاشور وزير الحكم المحلى وقلت له إنى قادم لأعرف شيئا واحدا. . هل الانتخابات القادمة ستكون حرة أم لا، فأجاب: نعم، وقلت له: إن هذا الخبر يهمنى أنا شخصيا لأعرف إن كانت زائفة أو صادقة، وليس المهم أن ينجح قريبى أو لا ينجح، فإذا كانت حرة فإنى أرجوك ـ وأنت وزير الحكم المحلى ـ أن تنقل السيد رئيس مجلس المدينة إلى بلد آخر حتى تتم الانتخابات. فإذا به يمسك التليفون ويطلب وزيرالداخلية شعراوى

جمعة، فطلب الأخير من حـمدى عاشور أن يخبرنى بأن أتلهى فى ابنى حمدى وليس لى أن أطلب شيئا».

ويبدو الدكتور زكى سـويدان حريصاً فيما يرويه على أن ينـتقم لنفسه ولابنه ولصورته التى صوره بها وزير الداخلية، وهو يقول:

«وبعد أن سمعت ما قاله السيد شعـراوى جمعة عبر التليفون نهضت واقفا وقلت للسيـد الوزير حمدى عاشور: أرجوك أن تخـبر السيد وزير الداخلية أن السبب فى تردى الشباب فى هذه المواقف أنهم تعهدوا ببناء أبنية تضاهى بناء الامباير سـتيت فى نيويورك ولكنهم طوال عدة سنوات عجزوا عن بناء أكواخ مـفيدة فصدم الشبـاب بهذا العجز، وأن هؤلاء [المسئولين] هم الملومون وليس الشباب».

. . . .

وعند هذا الحد طلب وزير الإدارة المحلية من صاحب المذكرات أن يرتب له لقاء هذا الابن «العاق للثـورة ولرجالها الأمناء الأشداء» ويروى الدكتور زكى سويدان قصة اللقاء باختصار فيقول:

«فقام السيد حمدى عاشور وطلب منى لقاء ابنى حمدى فحضر معى فى اليوم التالى إلى مكـتبه وكان لقاء حارا وقـال ابنى له: أين الحريات التى وعدتم بها ونحن عاجزون عن كتابة ما نريد فى الجرائد».

. . . .

«وأخيرا قلت للسيد الوزير حمدى عاشور: لقد علمت ما كنت أريد العلم به، وهو أن هذه الانتخابات التى ستقومون بها ليست حرة وليست نظيفة وأنا أكتفى بهذا الاستنتاج».

وتتضمن هذه المـذكرات فقرات مهـمة يعرض بها الدكـتور سويدان ذكرياته وانطبـاعاته عن أحداث يومى ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧، وهو يـشير بوضوح إلى مـا لمسه من أن هذه المظاهرات كـانت مدبرة، ونحن نرى فيـما يرويه الدكـتور زكى سـويدان صورة من صـور الحيـرة والتغـييب والتـعلق بالآمـال، فـالطبـيب الذى زار بيت الـرئيس رآه هادئاً، وزكى سويدان يترجم هذا ويفـسره بأن هناك أخباراً طيـبة، وثالث الأطباء وهو الدكتور محفوظ يعتقد فى أنه ستكون هناك خبطة جامدة!!:

«. . . وأخيـرا ظهرت نتيـجة الحرب والمـفاجأة المـذهلة بالنكسة، وأصبح الوجوم باديا على وجه كل مصرى، وفى ظهيرة ٩ يونيو ١٩٦٧ بلغنى من الأستاذ الدكتور م.ش ـ وكان يعالج بعض أهل الرئيس جمال عبد الناصر ـ أن الرئـيس كان هادئا مبتسما، فـعدت إلى منزلى، ولقيت المرحـوم الدكتور مـحمود رياض وزيـر المواصلات وأخـبرته أن هناك أخبارا طيبة سوف تذاع فى المسـاء، لأن الرئيس جمال عبد الناصر كان هادئا مبـتسمـا فى صباح هذا اليـوم، وجاء الرد على ذلك فى المـساء بإذاعـة خطابه الشـهيـر، بتنازله عن الرئاسـة إلى السيـد زكـريا محـيى الدين».

«وكان الأستاذ الدكتـور محمود محفوظ أستاذ علاج الأشـعة بجامعة القاهـرة ووزير الصحة فـيمـا بعد، كـان قد مر عـلىّ فى عيادتـى ظهر

الأربعاء ٧ يونيو ١٩٦٧، وأخذ يطمئننى بأن هناك خطة ستؤدى إلى «خبطة جامدة» للأعداء».

. . . .

هكذا كانت انطباعات ثلاثة من كبار أطبائنا، وها هو زكى سويدان بناء على هذه الانطباعات يبدأ ترتيباته للنوبتجيات فى القسم الذى يرأسه:

«وفى يوم ٨ يونيو كنت قد جمعت مجلس الأمراض الباطنة لكلية طب عين شمس واتخذنا قرارات للنوبتجية الليلية، وبدأت بنفسى فى يوم ٩ يونيو - وأنا رئيس القسم - ونزلت من منزلى بعد خطاب الرئيس عبد الناصر قبيل المغرب، وقدت سيارتى فى طريقى إلى مستشفى عين شمس (الدمرداش)، وبدأت ألاحظ أن مع سيرى كل عشرة أمتار يتضاعف عدد الأهالى فى الشوارع، وما كدت أصل بصعوبة إلى مستشفى الدمرداش حتى خطر لى أن أستأنف السير إلى منزل الرئيس فى منشية البكرى رغم الزحام الشديد».

. . . .

«واصلت قيادة السيارة حتى وصلت إلى قبالة المسجد المسمى باسم عبدالناصر وتعذر السير بعد ذلك فاستدرت للرجوع، وفى هذه الاستدارة أوقفنى بعض المشتركين «الموجهين» للمسيرة وطلبوا منى توصيل طفل صغير مشترك فى المسيرة فحملته معى وسألته: مَنْ الذى جاء بك هنا؟ فأجاب: بعض الأعضاء.. وما عمرك؟ فأجاب: تسع

سنوات، وهو تلميذ فى مدرسة ابتدائية فى بولاق، وسألته إن كان يعرف طريق العودة بعد مستشفى الدمرداش؟ فأجاب بالإيجاب، فودعته عند باب المستشفى وأخذت أنا طريقى داخل المستشفى لأبدأ واجب المبيت للطوارئ».

(٥٠)

وفى مقابل هذه الحيرة وهذا الإحباط الذى أحس به زكى سويدان فى ١٩٦٧ فإنه يعبر عن سعادته بنصر أكتوبر ويروى انطباعه بعد زيارته لخط بارليف فيقول:

«لست أتصور كيف تستسلم أية قوة فى مثل هذا المركز المنيع.. إنما هذا قد حدث.. واستسلمت كل القوات به إلى قواتنا المصرية».

وهو يبنى استنتاجاته هذه على ما قرأه عن مناعة خط بارليف، ونحن نعرف مصدر هذه الكتابات الذى كان يدفع بنا جميعاً إلى اليأس تمهيداً للاستسلام:

«وذلك لأن ما كتب عن مناعة خط بارليف يجعل اقتحامه متعذرا، فهناك حاجز مائى عريض وعميق، ثم الحاجز الترابى الذى يعلو إلى ما يزيد على عشرة أمتار، ثم أقيمت عليه أنابيب غاز الاشتعال التى تشعل نارا فوريا على سطح القناة، وبعد ذلك التحصينات كالبروج الشديدة ولا يمكن لأى قذيفة أن تصيب أى مختبئ بها، ثم هناك عيون المراقبة التى تستطيع متابعة أى حركة حتى فى الظلام، ثم المدافع بعيدة المدى.. هذا إلى جانب سلاح الدبابات والطائرات، حتى أقول إن أى هجوم مصرى على هذا الخط يعتبر انتحارا».

(٥١)

ونحن نرى الدكتور زكى سويدان حريصاً على أن يعبِّر عن إعجابه الشديد بخطوة الرئيس السادات الشجاعة فى مبادرة السلام، وهو حريص على أن يثبت فى مذكراته نص برقيته التى أرسل بها للرئيس السادات بعد المبادرة التى قام فيها بزيارة إسرائيل:

«الرئيس محمد أنور السادات..

إن أكبر جامعات الدنيا لا يعرفها إلا قلة من البشر. خرجت منها [يقصد: تخرجت فيها] ياسادات. ثم واصلت الدراسة والبحث والمعاناة والعناء حتى أصبحت الأستاذ الأول لهذه الجامعة.. جامعة الحياة بهذه المبادرة (أو بزيارة القدس). فليباركك الذى تعالى وتبارك».

(٥٢)

قبل هذا كله يحدثنا الدكتور زكى سويدان عن الدور الذى قُدر له أن يقوم به هو وزملاؤه فى فضح الاعتداء الثلاثى، وهو يروى أنه آثر أن يرشح الدكتور بول غليونجى لرئاسة بعثة مصر إلى أمريكا، وكان الدكتور حاتم قد عرض عليه هذه المسئولية لكنه آثر بها الدكتور غليونجى على أن يتولى هو رئاسة البعثة المتوجهة إلى الدول الاسكندنافية، وهو يروى ملخص هذا الدور الذكي بعبارات سريعة فيقول:

«... أصابت انجلترا وفرنسا وإسرائيل فى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ بورسعيد بدمار وحشى. وفى نوفمبر ١٩٥٦ طلبنى الدكتور عبد القادر

خاتم، وكان حينئذ رئيس (مصلحة) الاستعلامات، فتوجهت إليه وقال لي: نريد أن نرسل بعثات لها مكانتها لشرح قضيتنا في الخارج وجمع تبرعات لمنكوبي الحرب في بورسعيد، على أن تسافر على رأس بعثة من مصلحة الاستعلامات إلي أمريكا، فأجبته أن الذى يصلح لهذه المأمورية هو الأستاذ الدكتور بول غليونجى، وذلك نظرا لأنه سبق أن زارها وله أصدقاء عديدون بها.. وثانيا لأنه يجيد العربية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية. لهذا أرشح الأستاذ الدكتور غليونجى للسفر إلى أمريكا الجنوبية. وقد وافق الدكتور خاتم على رأيى، أما أنا فقد سبق أن زرت البلاد الاسكندنافية، ولهذا أرى أن أرأس البعثة إليها، فوافق سيادته، وقمت مع باقى أعضاء البعثة وهم: السفير أحمد هلال ومصور سويدى وآنستين من مصلحة الاستعلامات واحدة مسلمة والأخرى مسيحية، وصرفت لنا تذاكر الطائرة ومبلغ ألف جنيه استرلينى، وفى أثناء تواجدنا فى استكهولم طلبت زيادة المبلغ فأرسل لى ٤٠٠ جنيه استرلينى، وقضينا حوالى شهر فى هذه الرحلة».

....

ومن الجدير بالإشارة أن الدكتور زكى سويدان يقدِّم على صفحات طوال من كتابه من صفحة٣٥٦ وحتى صفحة ٣٨١ تقريرا عن رحلته إلى السويد، ويبدو أنها هى ذاتها رحلة الاستعلامات إلى السويد وفنلندا التى استمرت من ١٦ نوفمبر ١٩٥٦ حتى ٢٤ ديسمبر ١٩٥٦.

أما فى حرب ١٩٤٨ فقد تطوع الدكتور زكى سويدان للاشتراك مع المتطوعين المسافرين إلى الحرب، ولكن طلب تطوعه رفض، ولكنه لا يكتفى بأن يخبرنا بهذا بل يروى قصة واقعة لقائه بشابين فلسطينيين كانا يعملان كبائعين متجولين وكانا يريان أن هناك غيرهما من يقوم بالدفاع عن بلدهما:

«... وفى اليوم الذى قدمت فيه هذا الطلب وأنا متزوج ولى أولاد وليس عندى مصدر آخر للعيش، مررت على «السقا وحميدة» وهما صديقان عزيزان بمحلهما بشارع عبد الخالق ثروت وجلست معهما فى الصالون، وإذا بشابين أنيقين عمرهما حوالى ٢٥ ـ ٣٠ عاما يطرقان المحل يعرضون بيع أقمشة بدل صوفية ورفض الصديقان أى تعامل معهما، فوقفت أستشف الموضوع وعلمت أنهما من فلسطين، فسألتهما لم لا تتطوعان فى الحرب الدائرة لبلدكما؟ فأجابا بأن هناك الكثير غيرنا يقوم بهذا العمل».

ويعقب الدكتور زكى سويدان بعد هذا بقوله:

«لقد أسقط فى يدى بعد مشاهدة وسماع هذين الشابين واسترحت نفسيا لرفض تطوعى».

(٥٤)

وتحفل مذكرات زكى سويدان بكثير من الانتقادات للإجراءات الاستثنائية التى شهدها عصر الثورة، ومن هذا ما يرويه عن قصة اعتقال صديقه فهمى سماحة بسبب تشابه أحرف أسمائه الأولى مع شخص

آخر، وهو الأمر الذى لم تكتشفه السلطات المسئولة إلا بعد أن كان هذا الرجل قد أوذى فى صحته وعانى التعذيب المفاجئ والمستمر لمدة ستة أسابيع، وسوف نقرأ فى موضع تالٍ من مدارستنا لهذه المذكرات بعض ما يصور به صاحب المذكرات الجوانب المختلفة لعلاقته بهذا الرجل:

«... كان لى صديق عزيز هو المرحوم الأستاذ فهمى سماحة، وكان مصابا بالربو وبالتهاب القولون التقلصى المزمن، وتصادف وجودى فى لندن حين كان يعرض نفسه على دكتور ديفيز طبيب الملكة، فحضرت معه وتناقش مع الطبيب فى حالته، ووافقنى أخيرا على رأيى».

....

....

....

«... ثم صدر أمر باعتقاله بدون سبب ظاهر لى، وبعد حوالى شهرين حُوِّل إلىَّ فى مستشفى عين شمس لمباشرة علاجه، فأدخلته تحت إشرافى، وأخذت أباشر الفحوص المختلفة، وكنت فى قرارة نفسى أجزم بأن تفاقم حالته المرضية كان نتيجة للعذاب المفاجئ والمستمر، وقد وصلتنى رسالة من السيد سامى شرف بأن أبتعد عن حالته، فأجبت الرسول بأنى طبيب وأباشر مهنتى بما يتفق مع ضميرى، ومع كل فإنى أجزم بأن الأستاذ سماحة لم يقم بأى ذنب، وظل الأستاذ

سماحة تحت إشرافي بالمستشفى لمدة حوالي ستة أسابيع حين جاء أمر الإفراج عنه، ثم علمت أن سبب الاعتقال هو تشابه أحرف أسمائه الأولى مع متهم آخر، وأبلغت الرسول برجاء إبلاغ السيد سامي شرف بصحة ما سبق أن أدليت به عن المريض المظلوم. وقد دامت صداقتنا إلى يوم ٧ سبتمبر ١٩٨٩ حيث توفى فجأة بداخل سيارته.. رحمه الله».

....

كذلك يبدي الدكتور زكي سويدان انتقادات عديدة لكثير من مظاهر الإدارة العامة وسوء التصرف في عهد الثورة، وهو يتحدّث على سبيل المثال عن سوء حالة السفارة المصرية فى لندن بسبب تصرفات العسكريين المقربين وهى التصرفات التى لم تكن تراعى أى درجة من درجات الوعى بالحضارة:

«وأول ما لاحظت هو غياب اللوحات الفنية التى كانت تزين السفارة أيام السفير عمرو باشا، ووجود لوحات لا تشرّف السفارة، ثم أُخبرت أن السفارة كانت مقفلة نظرا لانقطاع الاتصال مع بريطانيا منذ عام ١٩٥٦، وكانت تنزل فى السفارة فى عام ١٩٦٤ بناء على تعليمات من سكرتارية رئاسة الجمهورية وما تلا ذلك فاتنة المعادى، فأقامت فى السفارة وأخذت تنتقل فى لندن فى سيارة السفارة البنتلى حتى عادت إلى القاهرة حاملة معها ما قامت بشرائه من ملابس وهدايا مختلفة».

«وكانت الستائر الحريرية في غاية القذارة، كما أنه كان يوجد بيانو فخم فوقه علامة (يقصد: أثر انطباع حراري) لحلة ساخنة وضعت عليه».

□

ويعبر الدكتور زكي سويدان عن شعوره بالأسى الشديد عند قيامه برحلة إلى سيناء فيما قبل ١٩٦٧، وكأنه كان يستشرف بعض ما حدث في ١٩٦٧:

«... كانت زيارة سيناء ممنوعة إلا بإذن خاص، وفي سنة ١٩٦٤ أخذت تصريحا من مصلحة الحدود لزيارة سيناء وقطاع غزة، وكان عليّ أن أودع مبلغا لدى الجمارك يوازي ثمن السيارة التي أركبها، وهي خاصة بي في خلال هذه الرحلة، ولهذا تركت شيكا بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه لدى مصلحة الجمارك بالإسماعيلية، وعندئذ سمحت لي باجتياز القناة، أنا وسيارتي وزوجتي إلى سيناء».

□

وهو يتحدث بأسف شديد عن حادث احتراق الأوبرا مبديا ملحوظة مهمة وهي أن إدارة مطافئ القاهرة لا تبعد عن دار الأوبرا أكثر من بضعة أمتار:

«افتتحت الأوبرا الجديدة في ٨ أكتوبر ١٩٨٨ بعد أن احترقت الدار الأصلية التي بنيت في عام ١٨٦٩ بمناسبة افتتاح قنال السويس، وكان

احتراق الدار فى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧١، والعجيب أن الدار لا تبعد عن مركز إطفاء الحريق للقاهرة سوى بضعة أمتار. ولما تم إيصال خراطيم المياه إلى حنفيات الحريق كان الماء يتسرب من تهتكات متعددة بالخراطيم فكان لا يصل إلى الحريق إلا مقدار قليل من الماء، وإذا كان حريق قد نشأ بإهمال صيانة أسلاك الكهرباء فقد كان الإهمال أوضح فى إطفاء الحريق».

□

ويصوِّر الدكتور زكى سويدان بعض ما شهده من مآسى التأميم، لكنه يشير إلى أنه نجا من مأساة تأميم أسهمه بسبب أنه أحس بالقلق، وهو ما يعبِّر عنه بقوله: «ضباب كثيف لا أرى من خلاله شيئا»، وهو تعبير ربما يوحى بأنه كان يعرف أن هناك نية إلى التأميم، بينما كان يسمع فى الوقت ذاته من أصدقائه من المسئولين ما يؤكد له أن الدولة لن تتجه إلى التأميم، وقد كانت النتيجة المتوقعة فى مثل هذه الحيرة أن يلجأ الطبيب من طبقة زكى سويدان إلى أن يأخذ بالأحوط، وقد دفعه هذا الإحساس إلى بيع جميع الأوراق المالية التى كان يملكها قبل حدوث التأميم حتى إن بعض أصدقائه ظنوه كان متأكدا من الاتجاه إلى الأخذ بالتأميم:

«... فى عام ١٩٦١ كان لى صديق عزيز هو المرحوم الأستاذ فهمى سماحة، وكان ينصحنى بشراء الأوراق المالية، واشتريت بكل ما معى، بل اقترضت من البنك واشتريت المزيد. وفى يونيو ١٩٦١ رأيت

الموقف بالنسبة لى كأنه ضباب كثيف لا أرى من خلاله شيئا، فتوجهت إلى البنك وقابلت الأستاذ حسن فائق رئيس قسم الأوراق المالية فى بنك الجمهورية حينئذ، وطلبت منه بيع جميع الأوراق المالية، فاستغرب.. فأجبته بأنى محتاج إلى المال. بل أضيف أن شخصا كان قد اقترض منى مبلغ ألف جنيه، وأودع لدى ٢٥٠ من أسهم شركة الملح والصودا وهى باسمه، فطلبت منه بيعها أيضا فقال لى: هذه جريمة، فقلت له: سأتحمل العقاب وليس أنت، وقام بالبيع حسب أوامرى إلا ١٥٠ سهم كتان الشرق، إذ لم تكن متداولة فى البورصة. وفى يوليو ١٩٦١ كنت مسافرا بالسيارة أنا والعائلة إلى الإسكندرية، وفى استراحة منتصف الطريق (رست هاوس) سمعت نشرة الأخبار بتأميم جميع الأسهم والسندات، فحمدت الله كثيرا على إلهامه لى.. وقد اتهمنى بعض الأصدقاء بسابق علمى بذلك».

(٥٥)

ونأتى إلى بعض ملامح التكوين النفسى والثقافى والاجتماعى لصاحب هذه المذكرات الفريدة، ومن حسن الحظ أنه يتحدث فى مواضع عديدة عن العوامل التى كفلت له صياغة توجهات واضحة فى مواجهة حقائق الحياة، ومن هذه المواضع فقرة مهمة يحاول بها صاحبها التفلسف لكنها تعبر عن فلسفة حقيقية تسيطر على كثيرين من أمثاله:

«ولما بلغت الثانية عشرة، بدأت أدرك حقائق الحياة، فقد شاهدت الولادة والوفاة، وهما بمنزلة القطبين من محور الحياة، ونشأ فى داخلى

الخوف من حساب الآخرة، كما كنت أخشى رجال الأمن لهذا أطيع القانون، ونشأت مع أصدقائى المسيحيين فما عرفت التفرقة، وأحببت الكبار فجاهدت للارتفاع إلى مستواهم، وأحببت الطبيعة من الماء والخضرة ولهذا سكنت على النيل فى القاهرة، وكلما أتذكر القرية أتذكر أنها تهدى للقاهرة على الأخص أعظم ما تجود به الأم، على أولادها الذين هجروها، وهى مع ذلك لا تزال تنجب وتهدى. . إلى مصر».

(٥٦)

ومن الجدير بنا أن نقرأ بتمعُّن ما يتحدث به الدكتور زكى سويدان عن نشأته وأن نلحظ ما يدل عليه اعتزازه بالاسم القبطى لقريته ومعنى هذا الاسم والدلالات الأخرى للوحدة الوطنية التى كانت موجودة معنى قبل أن يتشدقً باسمها:

«فى ١٤ مايو ١٩١٣ ولدت ونشأت فى قرية تبعد عن مركز ميت غمر بحوالى كيلومترين تسمى دقادوس «ديكادوس»،وهو اسم قبطى مكون من كلمتين: «ديكا» بمعنى عشرة، و«دوس» بمعنى معبد، فهى قرية العشرة معابد، ولا تزال بعض آثارها قائمة حتى يومنا هذا. إلا أن أهم ما يميز القرية أن أهلهاخليط متحاب من المسلمين والمسيحيين، ولهذا فالآن ترى المساجد بمآذنها وكنيسة العَذراء «ستنا مريم» قائمة كلها تؤدى رسالاتها».

«وكان النيل فى موسم الفيضان يغمر مناطق فسيحة فى غرب القرية أمام الكنيسة، وتسبح فيه المراكب الشراعية وقوارب الصيد».

«وفى الفترة حوالى بين ١٤ و٢٢ أغسطس من كل عام يقام مولد العذراء فى الكنيسة وحولها، للاعتقاد بأن أطهر نساء العالمين ستنا مريم قد مرت من هنا تحمل عيسى عليه السلام واستراحت فى هذه البقعة، وفى هذا المولد يفد الآلاف من المسيحيين من أنحاء مصر لزيار كنيسة العذراء، وكثير منهم كان يحضر فى المراكب والنيل فى ذروة الفيضان، ويكاد الماء يلمس جدار الكنيسة وتكاد الأشرعة تلامس المارة أمام الكنيسة».

(٥٧)

ويبدو الدكتور زكى سويدان واعيا فى كثير من المواضع إلى عموميات الصحة العامة، وهو ينبه على سبيل المثال إلى خطأ وجود مأخذ مياه الشرب فى روض الفرج:

«وكان المرحوم الأستاذ الدكتور عبد الواحد الوكيل أستاذ علم الصحة يقرر فى عام ١٩٣٥ أن مأخذ مياه الشرب من روض الفرج خطأ كبير، وكان يجب أن يكون هذا المأخذ من موضع قبل القاهرة، أى فى حلوان مثلا».

وسرعان ما يستطرد الدكتور سويدان ليقول:

«ولكن العكس هو الحاصل، فلا يزال مأخذ المياه كما هو، بينما الصرف الصحى للمحليات والمصانع فى حلوان، أى أن مياه النيل تدخل القاهرة ملوثة من الصرف الصحى والمصانع، ثم نحاول تنقيتها فى روض الفرج».

□

ويعبِّر الدكتور سويدان أيضا عن وعيه بخطورة البرك على الصحة العامة وتفشِّى حمَّى الملاريا وفضل محمد محمود باشا فى ردمها، ومن الجدير بالذكر أن محمد محمود باشا قد وُصف فى كثير من الأدبيات السياسية رئيس الوزراء بأنه وزير البرك والمستشفيات، فى محاولة من خصومه السياسيين لتقليل قيمة جهوده فى هذا المجال:

«وكان يحيط بالقرية العديد من البرك التى كانت تحتفظ بالماء بعد موسم فيضان النيل، فكان فى الجهة الغربية واحدة كبيرة يحدها عن فرع دمياط جسر النيل، وفى الجهة الشرقية أخرى كبيرة أنشئ فى وسطها طريق زراعى بالردم بعربات بعجل تجرى على قضبان مؤقتة كى يصل هذا الطريق مركز ميت غمر بباقى البلاد والقرى، وكذلك إلى المنصورة العاصمة، وأدى إنشاء هذا الطريق إلى تقسيم البركة إلى قسمين يليهما شريط أرض زراعية».

«وكانت هذه البرك هى المصدر الوبيل لتفشِّى حمَّى الملاريا، وكذلك التلوث بجميع مضاعفاته، حتى قام محمد باشا محمود رئيس الوزراء عام ١٩٢٨ فعنى بأمر تلك البرك إما بالردم بالتراب وإما بحفر المصارف.. وقد أطلق عليه خصومه وزير البرك».

(٥٨)

ولا يجد الدكتور زكى سويدان حرجاً أن يضمن مذكراته كثيراً من الحديث عن المتاعب الشخصية التى صادفها فى مقتبل حياته، وهو

يروى ما وعته ذاكـرته عن انطباعاته أو انفعالاته تجاه هذه المـتاعب بثقة شديدة فى النفس.

وهو على سبـيل المثال يروى قـصة معرفـته بزواج أبيه من غيـر أمه ورغبته فى الانتقال المبكر إلى المعيشة فى القاهرة:

«... ومـضت بى سنة الطـفولـة الرابعـة وأدركت أن والدى يقـيم بالقاهرة مع زوجة أخـرى، وأن لى شقيقة كبرى ثريا وأخـا أكبر إبراهيم يقيمان مع والدى فى القاهرة، فلما حضروا فى إجازة الصيف كنت أقول لوالدى خـذنى معك، وأظل ألح فى هذا، واسـتجـاب مرة وأخـذنى، وركـبت قطار الدلتا الـذى كان يمـر بالقريـة، ووصلت إلى المنزل عند امرأة أبى الـتى لم تنجب، وفرحت بى، وكل مـا أذكره أنهـا وقريبـاتها اللاتى كانت تكفلهن وكن يقمن بالمنزل أخذتنى معها إلى حمام السوق فى الدرب الجـديد فى حى الـسيـدة زينب، وعـند العـودة ضللت من خلفـهم الطريق فبكيـت، وأعادتنى امـرأة مارة، وأظن هذا كـان الدافع لإعادتى إلى القرية خـوفا من المسئولية. إلا أنى بعـد عودتى إلى القرية كنت أنشد الوقـوف مع الرجال الكبـار غالبا لبـعدى عن الوالد، وكنت أسـعد بالاجـتمـاع بهم والاسـتمـاع لهم، وكنت أحـاول أن أرتفع إلى مستواهم بطريق الأدب والصدق والاحترام».

(٥٩)

كذلك يروى الدكتور زكى سويدان قصة مـغامرة طريفة من مغامرات الصبا حيث مشى هو وأخوه إلى طنـطا على الأقدام ٣٥ كيلومترا ووجدا أمهما أو وجدتهما فجأة:

«فى سن السابعة شهدت ولادة شقيقتى بمساعدة الداية «ست حمدة» وبعض نسـوة الحارة، وفى أواخـر صيـف العام التـالى ذهبت أمى إلى طنطا مع شقـيقتى الصغرى هذه فى مـولد سيدى أحمـد البدوى، وكان يحضرنا الأخ الأكبـر إبراهيم فى إجازته الصيفية، فـأوحى إلىّ [يقصد: أقنعـه أو حثـه على] أن نذهب إلى طنطا للقـاء أمنا، وذهبنا فى اليـوم التالى وقـمنا حاملين خبـز وجبنة فى سبت صـغير وأخى يحمل عـصا لملاقاة الذئاب».

«وبدأنا السير على الأقدام من قبل طلوع الشمس، فبلغنا باب مسجد سيـدى أحمد البـدوى وأذان الظهر يؤدى، فجلسـت وأنا على الرصيف أبكى من التعب والضياع بعد سير ٣٥ كيلومـترا، ولم تمر دقيقتان حتى شاهدت أمى تحمل شقيقتى على كتفها مارة أمامى وسط جموع الزائرين الغفيـرة، ورأتنى أجرى إليها وأمـسك بها من ساقيـها، واندهشت أمى كيف جئت فأشرت إليـها إلى أخى إبراهيم هذا الذى لحق بنا، فامتلأت بالبشر والسعادة، وبقيت مستأنسا مع أمى إلى اليوم التالى، وفى الصباح اشترت والدتى الفطيـرة من محل يطل على ترعة الجعـفرية التى كانت تتوسط طنطا، وقـد ردمت الآن فأصـبحت الشارع الجـديد وهو شارع الجلاء، ثم عدنا جميعا إلى دقادوس فى القطار الميرى».

(٦٠)

وهو يجيد تقـديم صورة من صور اجتهـاده هو وأخيه وممارستـهما التنافس المتكرر:

«كان ترتيبى ٢٩ من عدد الناجحين وعددهم ١٢٠٠، فرجوت والدى أن ألتحق بكلية الطب، وأمضيت صيف ١٩٣٠ بعد نجاحى وأنا أكابد القلق، وواصلت رجائى إلى والدى برغبتى الملحة فى هذا المستقبل، وكنت أنا وأخى الأكبر إبراهيم فى منازعات ومناوشات متكررة لا أعرف كيف أصفها، إنما أنا اعتبرت نفسى الأخ الأكبر وهو الأصغر، وكتمت ما مر بى منه حتى فى أثناء دراستى فى كلية الطب وما بعدها. أقول هذا لأبين مبلغ قلقى من تفويت فرصة الالتحاق بالطب، ولكن أخيرا وافق والدى وقبلت بنصف مصاريف حتى نجحت فى سنة ثانية طب وكنت الأول فأعفانى السيد الأستاذ الدكتور على باشا إبراهيم من باقى المصاريف، وكان أخى هذا قد توظف بشهادة التجارة المتوسطة، ولهذا فكانت دراستى فى الثانوية حافزا له على مواصلة الدراسة المنزلية، فنجحنا سويا فى الكفاءة ثم فى البكالوريا، وانتسب لكلية التجارة وحصل على البكالوريوس، ثم واصل الدراسة حتى أصبح عميدا لمعهد التجارة فى دمياط».

(٦١)

ولعل أبرز ما يدل على تغليب الدكتور زكى سويدان للجوانب الإنسانية فى معرفته بالناس وبعض معاملاته معهم قصته مع صديقه الخواجة موسكو ومشاركته له فى إحدى فترات حياته، ونحن نعرف أن كثيراً من الأطباء فى ذلك الجيل وفى أجيال أخرى كانوا يقبلون على الاشتراك أو المشاركة فى أعمال تجارية من هذا القبيل:

«... عرفته منذ عام ١٩٣٧، وكنت دائم التردد على قهوة سان سوسى فى ميدان الجيزة، وكان هو الجرسون المفضل، وفى عام ١٩٤٧ بدأت أزاول المهنة فى عيادتى، ولم تكن لدى سيارة لأننى لا أملك ثمنها، فاقترضت من الخواجة موسكو جارسون مقهى سان سوسى، الألبانى الجنسية، مبلغ مائتى جنيه، وكنا نعرف بعضنا منذ عام ١٩٣٧، وكان كثيرا ما يعد لى لحمة بالبصل فى ورقة بالفرن للغداء، واشتريت بالمبلغ سيارة «فيات باليلا»، وبدأت بها عملى، ثم سددت له المبلغ والحمد لله».

«وفى عام ١٩٥١ حضر إلىّ وطلب منى مبلغ ١٥٠٠ جنيه لأكون شريكا معه ومع نيقولا زميله فى قهوة كازينو أوبرا، وأخذا يعملان بكل جهد، والحساب تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد الجزيرى، ولكن بعد عام حضر إلىّ الخواجة موسكو وطلب مبلغ ٥٠٠ جنيه لإنقاذ الموقف، وأعطيته المبلغ، وبعد ثلاثة أشهر قدم إلىّ وقال: لقد أفلسنا، فقلت له: ولا يهمك أنت ما دمت بصحتك فلا تهتم، وبعد ذلك قمت بسداد ٣٠٠ جنيه ضمان الثلاجات، ودفعتها عن طيب خاطر، لأن الخواجة موسكو قد أقرضنى سابقا، وأنا واثق أنه لم يسرقنى ولكنه كان جاهلا فى شئون الإدارة».

(٦٢)

وتتجلّى فى مذكرات الدكتور زكى سويدان القدرة على وصف البيئة بما فيها من وسائل للتحضر وفى مقدمتها وسائل المواصلات، وهو جانب مهم من الجوانب التى نستقى منها صوراً دقيقة للتاريخ الحضارى

والاجتماعى، ويجدر بنا أن ننقل عن الدكتور زكى سويدان أهم ما عنى بوصفه فى هذا المجال فى مذكراته، فهو يروى بذاكرة قوية وقدرة فائقة على التمييز تفصيلات مهمة عن مسارين للسكة الحديد المتوجهة من مدينة ميت غمر للقاهرة، ويقول:

«وكانت القرية [يقصد: قرية دقادوس] قريبة من محطتى السكك الحديدية، وكانت إحداهما [إحدى المحطتين] فى منتصف المسافة بينها [بين قرية دقادوس] وبين ميت غمر وهى محطة السكك الحديدية الأميرية التى تملكها الحكومة المصرية، والثانية على الشاطئ الشرقى للرياح التوفيقى تسمى سكة حديد الدلتا، لأنها كانت مملوكة لشركة إنجليزية ومجالها الدلتا فقط، كما كانت تعرف أيضا بالسكك الضيقة لأن المسافة بين القضيبين كانت أقل بكثير من مثيلتها فى السكك الأميرية».

«وإذا كان الراكب من دقادوس متجها للقاهرة يبغى الركوب فى القطار الأميرى فإنه كان يركب من ميت غمر إلى الزقازيق، ومنها يركب القطار القادم من بورسعيد إلى القاهرة».

....

هكذا كان الأمر وقد ظل كذلك للأسف.

«أما إذا كان يبغى الركوب فى قطار الدلتا بقصد الرخص [تقليل التكاليف] فكان يركب من محطة البوهية الواقعة على الضفة الشرقية للرياح التوفيقى القادم من المنصورة إلى ميت غمر، وينزل قبلها فى

محطة السافورية .(مدخل سكة ميت غمر) ليركب القطار المتوجه إلى شبين القناطر، وهى آخر محطة السكة الضيقة، من هناك يركب القطار الأميرى إلى القاهرة».

(٦٣)

ـ وفى هذا الإطار يروى الدكتور زكى سويدان كثيراً من ذكرياته المهمة عن وسائل المواصلات فى القاهرة وهو يورد حديثا شيقا عن كثير من هذه الوسائل، ويكفى على سبيل المثال وصفه لوظيفة البغل الثالث فى عربات السوارس التى كانت وسيلة مواصلات فى القاهرة فى العشرينيات:

«وكانت وسائل المواصلات فى العشرينيات داخل القاهرة هى الترام والحمير، وأهم موقف لها كان فى العتبة الخضراء ليركبه الراغب إلى بغيته ومن خلفه الحمّار بعد الاتفاق على الأجر، كما كانت العربة الحنطور، وكانت تؤجّر بقروش ولها مواقف متعددة بكل حى، وكان ينافس الترام عربيات [يقصد عربات] سوارس، وهى عربة كبيرة ذات مقاعد يجرها بغلان، والسائق عنده فرملة باليد علاوة على العنان والكرباج الطويل، وكان خط سيرها بين السيدة زينب والحسين، و[خط آخر] بين السيدة والقلعة، وعند اقتراب العربة من مكان مرتفع [مثل ما بعد سبيل أم عباس فى شارع مراسينا الموصل بين السيدة والقلعة]، كان ينتظر هناك حارس ببغل ثالث لمعاونة البغلين».

. . . .

«وفى عام ١٩٢٧ ظهر أتوبيس الرجل المصرى العصامى محمد سيد يس ليقوم بالرحلة من السيدة زينب إلى الحسين بخمسة مليمات، ثم تداخلت [يقصد: دخلت، أو اقتحمت المجال] الشركة الإنجليزية بأتوبيسات ثورنيكروفت فى خطوط متعددة فى القاهرة، وقد رفع السيد محمد سيد يس قضية أمام القضاء وصدر الحكم لصالحه ولكن بثمن بخس، فأخذ يفكر فى مشروع بعيد عن التدخل الإنجليزى، فأقام مصنع الزجاج الذى سد حاجة مصر حتى قامت الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فقامت بتأميمه، وقدرت المشروع بعُشر قيمته الحقيقية».

□

وفى موضع آخر يكرر زكى سويدان حديثه عن معاصرته لوسائل مواصلات متعددة فى القاهرة فيقول:

«. . . وكان الحمار هو الوسيلة الأساسية للانتقال، وكان للحمير مواقف عامة أشهرها كان مجاورا لفندق شبرد القديم فى شارع إبراهيم باشا (الجمهورية)، وفى ميدان العتبة، ثم عربات الحنطور والكارو. ويدأ الترام انطلاقه لأول مرة فى ١ أغسطس ١٨٩٦ من العتبة عبر شارع محمد على إلى القلعة، وتمددت [يقصد: امتدت، وهى صيغة ظريفة] بعد ذلك خطوات الترام».

كذلك يتحدث الدكتور زكى سويدان عن طرائف خطوط الترام الأولى فى مصر الجديدة وشارع الأهرام:

«وقد أنشئ ترام خاص لشركة مصر الجديدة من ميدان العباسية، وكان يسمى بالترام الأبيض نظرا للونه، ومن ميدان الجيزة كان ينطلق ترام على قضيب مفرد على يسار شارع الهرم إلى الأهرامات، وما يكاد يصل [إلى نهاية الخط] حتى يقوم الترام المنتظر براكبيه عائدا إلى الجيزة على نفس الخط».

«وكان الراكب فى الترام أيام الفيضان يشاهد المياه وهى تغمر جانبى طريق الأهرام، وكان السكان ينتقلون من مكان لآخر فى قوارب صغيرة جدا لا يسع الواحد منها غير اثنين فقط».

(٦٤)

وفى مذكرات سويدان حديث مهم عن الملابس التى عاصر أهل القاهرة والأقاليم وهم يرتدونها، وهو يروى تجربته الشخصية مع الملابس بدقة ذاكراً تكاليف الملابس ومحلاتها المختارة، وهو لا يأنف من أن يذكر أن البالطو الخاص به قد عاش أربعين عاماً، كما أن البالطو الثانى لا يزال بمثابة الرداء المفضل له رغم مرور ثلث قرن:

«فى شتاء عام ١٩٣٢ أخذنى والدى إلى محل جاتينيو فى نفس مكانه الحالى فى شارع عماد الدين بغرض شراء قماش بالطو شتوى، واخترت لنفسى قماشا المتر [منه] بخمسة وسبعين قرشا، واختار والدى لنفسه بخمسة وثلاثين قرشا، وقد عاش البالطو الخاص بى - وكان من النوع التويد الجيد - حتى عام ١٩٧٢ ، فأهديته إلى أحد أقربائى، وكنت قد عملت بالطو آخر فى عام ١٩٤٨ ، وحتى الآن لا يزال هو المفضل لى فى الشتاء، إذ إنه من الصوف الذى يندر وجوده الآن».

(٦٥)

ولا تخلو مذكرات زكى سويدان من الاعتراف الواضح بأنه كثيرا ما كان يلجأ إلى الحلول التى يطلق عليها تجاوزاً اسم «الفتاكة المصرية»، وهى حلول خطرة من الناحية الأخلاقية لكنها تحظى فى كثير من الأحيان بالتقدير والامتنان نظرا لما توفره من حل للمشكلات البيروقراطية وللتطلعات الاجتماعية معاً، والأمثلة والقصص التى يرويها زكى سويدان كثيرة، ومن هذه القصص قصة حرصه على الحصول على أحد الأطباق الجميلة مما كان مملوكا للحكومة المصرية فى إحدى استراحات الدولة:

«... فى عام ١٩٦٢ كان طيب الذكر المرحوم الأستاذ الدكتور محمد النبوى المهندس ينتدب جماعات متجانسة من الأساتذة للسفر إلى المحافظات لإلقاء بعض المحاضرات، وفى ديسمبر انتدبت مع الأساتذة الأطباء مصطفى الديوانى للأطفال، وعثمان وهبى للنساء، ورمزى باسيلى للتخدير، وأنا للأمراض الباطنة، ووصلنا قنا فى ١٧ ديسمبر ١٩٦٢، وأقمنا فى استراحة الرى، وهذه كانت قد بنيت من سنين لإقامة تدابير الإعاشة فى هذه الاستراحة، وعند تناول الوجبات وجدتها تقدّم فى صحون صينى فريدة، كل طبق عليه علم أحمر ومكتوب عليه مصلحة الأشغال العمومية، أى من حوالى تاريخ ١٩١٢، وكانت مصر رسميا تابعة لتركيا، فسألت السفرجى: إذا كسر هذا الطبق منك ما هو جزاؤك؟ فقال: غرامة ثلاثة جنيهات ونصف جنيه، فقلت له: طيب أنا

كسرت واحـدا. . وأنا أدفع الغرامة. . ولازلت أحتـفظ بهذا الطبق إلى اليوم. وألقيت محاضرة عن أمراض البطن الطارئة».

. . . .

هكذا نرى زكى سويدان يخلط حديثه عن المحاضرة التى ألقاها بهذا الحـديث عن الطبق الذى احـتفظ به ودفع ثمـناً مقـابلاً له، ونراه وهو يكرر هذا السلوك فى مدينة الأقـصر مع «طاسة نحاسـية» أعجبـته حين كانت محاضراته عن اضطرابات الأيونات فى سوائل الجسم:

«ثم ذهبنا إلى الأقـصـر فى ١٨ ديسـمبـر ١٩٦٢، وفـرح بنا رئيس المدينة، وقام كل منا بواجبه فى إلقاء المحاضرات على أطباء المنطقة، وأقمنا فى فندق ونتر بالاس، قدمت لنا الفاكهة وبجـانبها طاسة نحاسية محلاة بالنقوش، تذكّرت أنه كانت لى واحدة مـثلها وأنا طفل، فتشبثت بالتى أمامى، فـاضطر رئيس مجلس المدينة إلى شـراء واحدة بدلا من التى أخذتها وألقيت محاضرة عن اضطراب الأيونات بسوائل الجسم».

(٦٦)

ويقدّم الدكـتور زكى سويدان فى مذكـراته حديثا شـيقا ومفـيدا عن تجربة اسـتزراع الأراضى فى ليـبيا، وهى التـجربة التى قـام بها الوزير المـصرى السـابق عـبد العـزيز عبـد الله سـالم، لكنه، فى رأى زكى سويدان، لم ينجح فيها بسبب النفـوذ الأجنبى، ويشير الدكتور سويدان فى روايته لـهذه القصـة إلى وعى الزعيم الإيطالى مـوسولينى بإمـكانية استزراع ليبيا وهو يقول:

«... ذكرت أنى فى ٢٧ أغسطس عام ١٩٥٤ سافرت إلى ليبيا - بنغازى - لزيارة مريض، وهناك قابلت المرحوم المهندس عبد العزيز عبد الله سالم، وقد كان قبل ذلك وزيرا للزراعة، وعلمت منه أنه جاء يسعى لإنشاء شركة زراعية فى أرض محافظة برقة الخصبة. قد كان موسولينى يقدر ذلك حق قدره، فأقام من بنغازى حتى درنة - وهى مسافة طولها ٣٠٠ كيلومتر - طريقا معبدا بالأسفلت، وعلى كل جانب من الطريق خمسة أصفف متتالية من المنازل البسيطة، كل منزل يتوسط خمسين فدانا، ومكون من حجرتين، وعلى الطريق تجد على كل ٢٠كيلومترا قرية تسمى «فيلاجيو»، هى مركز للمنطقة المحيطة بها، تباشر الإشراف على هذه المنطقة الزراعية التى نقل إليها الفلاحون الطليان، فكانت تدر هذه الأرض أطيب المحاصيل الزراعية. فمثلا كان الشعير الناتج أطيب من الشعير فى إيطاليا، فكان يستبدل الشعير الليبى بالطليانى، لأنه أصلح لصناعة البيرة».

«وبعد الحرب العالمية الثانية خرج الإيطاليون وسكنت هذه المنازل البدو بجمالهم وخيلهم ومعيزهم وخرافهم، وكانت درايتهم فى الزراعة تكاد تكون معدومة، فأجدبت الأرض».

«وكان المرحوم المهندس عبد العزيز عبد الله سالم على علم بجودة هذه الأرض، فقدم محاولا إنشاء شركة زراعية لكنه لم يتمكّن أيضا ، إذ أن ليبيا قد أصبحت فى حكم مستعمرة بريطانية بعد الحرب، خاصة

برقة وبها مطار العضم، أما منطقة طرابلس فقد نمت فيها السلطة الأمريكية، وأخيرا أقامت بها قاعدة «هويلس» الشهيرة».

....

ومن المؤسف أن مصادر التاريخ المتاحة لا تذكر شيئا عن هذه التجربة التى ينفرد الدكتور زكى سويدان بهذا الحديث العابر عنها، وهذا مثل واضح لما يمكن للمذكرات أن تنفرد به من إشارات إلى جوانب مهمة فى التاريخ السياسى والاقتصادى من قبيل التجارب المجهضة أو المحاولات التى لم تكتمل.

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور زكى سويدان يحدثنا فى مذكراته بأسف عن تجربة مشابهة فى السودان.

(٦٧)

ولأن الدكتور زكى سويدان رزق طولا فى العمر كما رزق صحبة كثير من طوائف المجتمع المختلفة، فإنه كان يجد فى بعض أقوال مَنْ عاصرهم ومَنْ عرفهم مصدراً للحكمة يعود إليه من آن لآخر، وهو يسجل فى مذكراته بعض هذه الحكم، ومن أمثلة هذه الحكم التى تعلمها من الشيخ سليمان قول هذا الرجل:

«مهمة الحاكم نحو الرعية هى حسب الأهمية بالترتيب التالى:

«الأمان، ثم الأبدان، ثم الأديان، ثم العرفان، ثم البنيان».

وعن المقرئ الشيخ محمد رفعت حفظ الدكتور زكى سويدان قوله:

«الخفـة مش عايزة جمال، والرزق مش عـايز شطارة، والموت مش عايز مرض».

وعن رجل الحاشية الملكية الاقتصادى إلياس اندراوس يروى الدكتور سويدان:

«وكان الياس أندراوس يقول للسيد اللواء محمد نجيب: أنا وزملائى المعتقـلين لازم نحميكم ولا تخافوا منا، لازم نساعـدكم لأنكم صحيح أخذتم الجاكتات بتاعتنا إنما لو أنتم رحتم غيركم حيقلعنا البنطلونات».

(٦٨)

ولا تخلو مذكرات الدكـتور زكى سويدان من الإشارة المتـعمدة إلى أجزاء حـذفها من المـذكرات، ومن هذا حديثـه عن عائلة الخليـفة فى قطور، ونحن نعجب لدقة الدكـتور سويدان فى ذكر التواريخ التفـصيلية لكثير من الأحداث التى تبدو لنا وكأنها هامشية، ومع أن الأحداث التى ترويها المذكـرات تبدو مفتقـدة الترابط فإنها كـانت تقدِّم لزكى سويدان بعض المعالم التى هو متـأكد منها فى قصة درامية شهـدت انتحار أحد أفراد عائلة «الخليفة» بعد أن قضى ليلة مع الدكتور زكى سويدان دون أن يستشف منه صاحب المذكرات أى نية للتفكير فى الانتحار.

وهذه على كل حـال هى رواية زكى سويدان المـوجزة عن مـعرفـته بالعائلة وحدود علاقته معهم:

«كنت قد ذكرت كيف التـقيت بالسيد عبد العزيـز الخليفة البالغ من العـمر حـوالي ٦٠ عامـا، وكيف طلبنـى للكشف على السيـدة حرمـه

وأعطانى ٢٥ قرشا كانت المنجاة لى وأنا خالى الوفاض، وتوطدت الصداقة بيننا، وذكرت كيف ركب القطار معى ومع جموع المودعين عند نقلى من قطور إلى اسطنها، بل جاءنى ذات مرة بمفرده إلىّ فى اسطنها (أى حوالى ١٠٠ كيلومتر) لزيارتى والاطمئنان على».

«وفى ٢٤ أكتوبر ١٩٣٨ اشترى نجله فؤاد سيارتى الموريس كاولى».

«وفى ٩ سبتمبر ١٩٣٩ توفى فجأة وسافرت إلى قطور لأداء واجب العزاء».

«وفى ٤ مايو ١٩٤١ فوجئت وأنا مسترخ فى المساء فى قهوة «سان سوسى» بزيارة ابنه الأكبر فؤاد الخليفة لى، وطبعا كان ضيفى وأمضى الليلة معى دون أن يذكر أى شىء و أى خبر، وأنه حضر إلى القاهرة للنزهة، وغادرنى فى صباح اليوم التالى».

«وفى ٩ مايو ١٩٤١ حضرت والدته وأخوه إبراهيم للسؤال عنه، وأخبرتهما أنه غادرنى فى صباح ٥ مايو ١٩٤١ ولا أعلم شيئا عنه، فغادر القاهرة إلى قطور فى صباح اليوم التالى ولكن فى ١١ مايو ١٩٤١ أبلغنى البوليس بانتحار فؤاد فى النيل من فوق كوبرى عباس (كوبرى الجيزة). وفى يوم ٧ مايو ١٩٤١ كما وجدت رسالة منه بذلك فأبلغت أهله وحضرت والدته وأخوه وتعرفا على الجثة، ونقلت (الجثة) إلى قطور فى ١٢ مايو ١٩٤١».

وتحفل مذكرات الدكتور زكى سويدان بكثير من وقائع الخبرة التلقائية والخبرة المنظمة كما نسميها فى الطب الإكلينيكي، وهو يروى من نوادر هذا الباب الكثير على مدى صفحات مذكراته، ومن هذه الأمثلة الكثيرة التى يرويها حديثه عن قتل كلب مسعور على يد رجل مسن سريع البديهة حيث يقول:

«... وبهذه المناسبة أذكر أن رجلا عجوزا من عائلة «مشة» ذكر حادثة وقعت له، ذلك أنه فى يوم بارد وكان ملتفا بالبشت (غطاء من الصوف المغزول) أقبل عليه مندفعا كلب مسعور، فنشر عليه فى الحال البشت وأعجزه عن الحركة، ثم مد يده من إحدى فتحات كم البشت وقبض على رقبة الكلب ثم والى ضرب رأسه بيده الأخرى بقطعة من الحجر حتى مات. إن هذا [يرينا] سرعة البديهة والتصرف المثمر من الرجل المسن».

(٦٩)

وتحفل مذكرات الدكتور زكى سويدان بعبارات وآراء سياسية أعجب بها فى وقت نشرها ، وآثر أن يحتفظ بها للتعبير عن رأيه أو انطباعه تجاه الأحداث ، ونكتفى بنموذج واحد من هذه الآراء وهو ما نقله باعتزاز من رأى الأستاذ إحسان عبد القدوس الثاقب فيما يتعلق بالوحدة مع سوريا وكيف أنه نبّه من أن هذا الشعور الجارف أمر يُخشى منه:

«ثم تلا ذلك الوحدة مع سوريا فى عام ١٩٥٨ ، وأذكر هنا ملاحظة

الأستاذ إحسان عبد القدوس، وكانت أجهزة الإعلام المختلفة ترى مبلغ ترحيب الشعب السورى بزيارة عبد الناصر له، فقد قال: إن قوما بهذا الشعور الجارف يخشى منهم، فإنهم سهل عليهم التغيير بنفس الاندفاع.. وقد صدق إحسان».

□

ومما تتضمنه مذكرات الدكتور زكى سويدان من طرائف الإحساس الزائد بالمسئولية أنه فيما يرويه عن واقعة من وقائع مناقشاته مع المسئولين تصور نفسه سببا فى النكبة التى حاقت بالدكتور رشوان فهمى فى عهد الرئيس عبد الناصر:

«فى ٢٨ مارس ١٩٦٢ قابلت السيد الأستاذ صلاح هدايت وزيرالبحث العلمى، وكان يناشدنا القيام بالبحوث الهادفة، فحملت معى تذاكر بعض المرضى، فى إحداها طلبت أقراص أسبرين لمريض ورُدَّت إلىَّ التذكرة بتأشيرة الصيدلى «غير موجود»، وعلى تذكرة أخرى طلبت أقراصا حيوية فى علاج هبوط القلب ورخيصة بقروش، وهى أقراص ديجوكسين، وأعيدت التذكرة وعليها نفس التأشيرة. وقلت لسيادته: إذا كان الأساسى غير متوافر، فكيف تنتظر منى القيام بأى بحوث؟ وأظن أن هاتين التذكرتين كانتا أساس اللوم الذى وجهه الرئيس جمال عبد الناصر إلى قصر العينى واتهامه بالتقصير».

وبالإضافة إلى حرص الدكتور سويدان على إثباته الطابع الخشن فى مناقشاته مع كبار المسئولين ومع صغارهم، فإننا نراه حريصا أيضا على الإشارة إلى حرصه الدائم على التمسك بحقه وبما يراه حقا.

ومن المؤسف أن حياتنا اليوم قد أصبحت تفتقد إلى أمثاله ، وقد كان بمثل هذا السلوك يضيف كثيراً إلى صورته القوية فى أذهان الناس:

ومن الوقائع التى تدلنا على أنه كان حريصاً على أن يستمسك بحقه أو بما يراه حقه ويجاهد من أجله.

«وفى عام ١٩٦٠ بناء على طلبى أرسل إلىّ الجراح مستر نورمان تانر عينة من كبد عبدالحليم حافظ على شريحة زجاجية، وقدرت الجمارك مبلغ ٩٨ قرشا فدفعتها وتسلمت الشريحة، لكن كيف تطالبنى الجمارك بأى مبلغ على مثل هذا العمل العلمى؟ ونشر لى الأستاذ الصاوى محمد تحت عموده «ماقل ودل» الموضوع، واعتراضى عليه، فردت الجمارك إلىّ المبلغ».

. . . .

وفى كل فصول كتابه فان الدكتور زكى سويدان لا يفتأ يتذكر الزمن القديم ويقارن بينه وبين الزمن الحاضر:

«كانت المعيشة فى منتهى الرخص إلى حد لا يصدق، فكنا نشترى بقرش صاغ واحد إحدى عشرة بيضة، وثمن الواحدة الآن اثنان وعشرون قرشا، وكانت كل مائة برتقالة بخمس قروش».

الباب الثانى

خواطر طبيب

مذكرات الدكتور مصطفى الرفاعى

(١)

للدكتوز مصطفى الرفاعى مكانة مرمـوقة بين أساتذة المسالك البولية فى مصر، وهو بالإضافة إلى هذا شاعر مطبـوع ينظم الشعر متدفقًا متى استثارته المواقف الداعية إلى هذا النظم، وفضلاً عن هذا فهو راوية بارز بين رواة شعر أمير الشعراء أحمد شوقى، وقد لفت الأنظار أكثر من مرة إلى كثير من تراث أحمد شوقى الذى حجبته السياسة بقصور نظرها.

وقد أحسن الدكتور مصـطفى الرفاعى صنعًا حين نشر بعض خواطره التى تكاد تصورٍّ اللقطات المهمة من حيـاته، وقد أجاد الدكتور الرفاعى اختـيار لقطات حياتـه ومواقفهـا التى عبَّر عن ذكرياتهـا فى هذا الكتاب الذى أصـدره عام ١٩٩٥ على نفـقـته، وتولَّت توزيعـه مكتـبة منشـأة المعارف بالإسكندرية.

وتتـوزَّع هذه الخـواطر على عـوالم الأدب والسيـاسـة والاجـتمـاع والرياضة والتاريخ، وتتنوَّع أزمنتها منذ طفـولته وحتى الحفل الذى أقيم له ولزملائه عند بلوغهم سن التـقاعد، وتتعدد أماكنها مـا بين بورسعيد

والمنصورة والمحلة الكبرى والإسكندرية وألمانيا والولايات المتحدة، ومع كل هذه التنوعات فإن تنويعات الخواطر لا تخرج عن حدود التعبير عن وطنية وثّابة، ونفس مفكرة، وحب لا ينتهى للعلم وللأدب ولكل ما هو جميل من قيم الحياة الدنيا.

(٢)

يعبِّر الدكتور مصطفى الرفاعى فى وضوح شديد عن مأساة الجيل الذى ينتمى إليه، وهو الجيل الذى شارك فى صباه وشبابه فى الحركة الوطنية حتى استشهد بعض طلائع هذا الجيل، وأصيبوا فى المظاهرات والاحتجاجات، فلما بلغوا سن الرشد والقرار والحكمة فوجئوا بأنفسهم بعيدين عن موقع قيادة الوطن، فلا هم يقودون وطنهم، ولا هم يشاركون بوطنيتهم أو علمهم أو خبرتهم فى قيادته، ولا هم يحسون بالرضا وهم يجدون الأمور تسير فى الطريق الخطأ، وهم ينتقدون سير الأمور لكنهم لا يملكون الصوت العالى الكفيل بوصول النقد إلى حيث يؤثِّر، وهم يعانون شأنهم شأن غيرهم، وتغريهم الهجرة فيجدون الأبواب مفتوحة أمامهم فى الخارج، بل يهاجر بعضهم، ويفضِّل بعضهم البقاء على نحو ما فعل مصطفى الرفاعى، ولكنه بعد أن بقى يسأل نفسه بطريقة عابرة حين يتذكر الفرصة القديمة فيقول لنفسه بصوت عال: هل كان أولى به أن يهاجر أم أن بقاءه كان هو الأفضل وهو يقول:

«أنظر إلى الماضى بعد كل هذه السنوات ثم أنظر إلى الحاضر

وأسائل نفسى: هل قرارى بعدم الهجرة كان قراراً سليمًا؟».

«ربما كنت سأحقق فى أمريكا إنجازات علمية أكبر، فالإمكانات للأبحاث العلمية هناك أكثر من هنا بكثير».

«هل وجودى بمصر كان ذا فائدة لبلدى، كما كان قد توقعه أصدقاؤنا الكبار، الذين نصحونى بالبقاء فى مصر منذ أربعين عاماً ؟».

ويجيب الدكتور الرفاعى على نفسه بقوله :

«أترك تقدير ذلك لغيرى من الزملاء والأصدقاء، فهم أقدر منى على هذا التقييم».

(٣)

وقبل هذا فإن مصطفى الرفاعى يتذكر زملاءه السودانيين الذين زاملوه فى الدراسة والتخرج فى مصر، ويتأمل فى أكثر من موضع المواقع المرموقة التى وصلوا إليها فى السودان، حتى إن أحدهم ـ على سبيل المثال ـ أصبح سفيرًا للسودان فى مصر، لكنه عاد مرة أخرى إلى الطب وترك السياسة.

وفى موضع ثالث يعبِّر مصطفى الرفاعى بكل وضوح عن أساه وأسفه لضياع الفرصة على وطنه فى مصر والسودان بعدم وصول هذا الجيل المتميز للحكم هنا أو هناك، وهو يقول بكل وضوح:

«وكان اشتراك الإخوة السودانيين معنا فى العمل السياسى تلقائيًا فلم يخطِّط أحد. ومرت السنين وأصبح هذا الجيل، جيلنا وجيلهم، على

قمة المجتمع المصرى والمجتمع السودانى، ولكن لم يتوليا الحكم لا فى مصر ولا فى السودان. . فقد تولاه غيرنا هنا وغيرهم هناك».

«ولو كان هذان الجيلان قد توليا الحكم، فلربما تمت الوحدة بين مصر والسودان، وانطلقت بعد ذلك إلى الوحدة العربية الكبرى».

«ولكن هذا هو قدرنا. . .».

(٤)

ويبدو الدكتور مصطفى الرفاعى وهو فى هذه السن المتقدمة وقد وصل إلى كثير من أسرار الحياة، وهو الذى مارس الرياضة والعلم والطب، وهو يبلور نصائحه وخلاصة تجاربه فى فقرات عابرة لكنها تأتى فى محلها من القصص التى يرويها عن تجاربه المبكِّرة، وهو يتحدث حديثا مطولا عن مباريات الكرة فى الجامعة، ثم يصل إلى الخاتمة المحملة بالحكمة فيقول:

«قاتل الله الغرور والتعالى والاستهانة بالخصم، فهى الطريق المؤكد للهزيمة. عندما هزمنا عام ١٩٦٧ تذكرت أول ما تذكرت ما حدث لفريق كلية الزراعة من فريق أقل منه كفاءة. ولم أر طبيبًا بعد ذلك تملكه الغرور إلا وسقط وأصبح نسيًا منسياً».

وعلى الرغم من هذا الإيمان بدور الحياة والبيئة والخبرة والتجربة، فإن مصطفى الرفاعى يقف وقفة المؤمن الصادق الإيمان أمام كل ما هو خارج عن نطاق إدراك الإنسان، وهو ـ على سبيل المثال ـ يروى أكثر

من تجربة من تجارب الممـارسة الإكلينيكية التى يُفاجأ فيـها الأطباء بما ليس مـوجودا فى الكـتب من شكاوى أو مضـاعـفات، ومع هذا فـإن البحث الجـاد يقود إلى معرفـة الحقيقـة التى لم تصرِّح بنفسـها للوهلة الأولى، وهو يروى فى هذا الصدد قصة «دودة الإسكارس» التى وجدها المريض وقد خرجت من مجرى البـول والأطباء الشبان يظنون بالمريض الخبل، بينما الحقيقة أن دودة الإسكارس هذه وصلت إلى هذا المجرى عبر ناسور كان بمثابة أحد مضاعفات الإصابة بالبلهارسيا.

(٥)

وتحـفل هذه المذكـرات بما يرويه الـدكتـور مصطفى الرفـاعى عن ذكرياته مع أكـثر من حالة طبـية غريبة فى مـصر والولايات المتـحدة، ولكنه يقف بواجـدانه اليقظ وبعـقله الذكى متـسائلا أمـام ظاهرة الطفل اللقيط النبيل الذى شاهده ذات مرة فـى ملجأ للقطاء، وهو يروى قصته وانطباعاته عنه فيقول:

«يجلس وحده فى ركن من الحـجرة، لا يشارك الأطفـال فى عنفهم وشقاوتهـم، ولا يرفع عينيه إلى أعلى، فهـو ينظر دائما إلى الأرض ولا ينظر إلى أحد وكأنه فى حالة خجل دائم».

«قالت لى الممرضة: هذا الطفل الجميل يجلس معنا ولا ينسجم مع الأطفال ولا يشاركـهم فى شقاوتهم ولا فى طعامهم، فـهو يأكل معنا، وهو على هذا المنـوال منذ أحضـر إلينـا، قدّمت له بـعض الحلوى فلم

يقبلها، فهو لا يقبل طعامًا أو أى شىء من أحد».

«حان وقت طعام الغداء فأحضر الطعام للأطفال فهجموا للحصول على الطعام، أما هو فلم يتحرَّك من مكانه. سبحان الله.. كيف يتصرَّف هذا الطفل بهذا السلوك الراقى وسط هذه المجموعة ووسط هذا الضياع؟! كيف يحمل كل هذه الكرامة وعزة النفس؟! مَنْ ربّاه على هذه القيم؟ ومَنْ لقّنه هذه الصفات؟!

«هل هذه الصفات النبيلة موروثة، وتظهر على هذا الطفل تلقائيًا بالرغم من تواجده فى مثل هذا الوسط؟! إن الله قادر على كل شىء».

«لقد تَرَكَت ظروف هذا الطفل فى نفسى أثرًا عميقًا، وكنت أتساءل: كيف سيتعايش هذا الطفل مع من حوله؟».

«كتبت هذه القصيدة وقلما كنت أكتب إلا إذا كان التأثير فى نفسى عميقًا، وأتذكَّر أن الزملاء فى الكلية كتبوها وكانوا يحفظونها.. وهذا بعض ما كتبت اعتمادًا على الذاكرة:

إنى رأيت اليوم ما أضنانى	وأهاج شعرى واستفز بيانى
طفل تشرَّد فى شروق حياته	لم يلق عطفًا أو يفزْ بحنان
ماذا جنيت من الذنوب لكى أرى	عينيك تبعد ما رنتْ لترانى
أفهمت أنك فى الحياة معذَّبٌ؟	أعلمت أنك فى الحياة تعانى؟
هل أنت مصرىٌ؟ أأنت أخٌ لنا	أم هل يفرِّقنا مكان ثان؟

من ذا الذى أعطى لنفسك عـزةً وأثـار فيك كرامة الإنسان؟

لم تلـق أبًا هاديًا أو مـرشـدا والأم لن تأتـى بأى زمـان

أتعـود يومًا كى يضمّك صـدرها وتشب مثل بقـية الفتـيـان؟

وأرى بوجهـك بسمة ونـضارة وتعيش مـبتـعدًا عن الأشـجان

أم هذا وهم نـابع من شـاعـر لا يقبـل الدنـيـا بغيرحنـان؟

وقع الفراق على الطريق ولا أرى يـومًا طـوال العمـر تلتقـيان

سـبحـانك اللـهم تُغنى أنـفسـا بمكارم الأخـلاق والإيمـان

وتعلّم الطفل الضعيف وتصطفى مـا شئت من ملك ومن إنسان»

(٦)

ومع أن الدكتور مصطفى الرفاعى لم يشـأ بهذا الكتاب أن يكون كتابًا فى الوطنية، فـإنه على الرغم منه قد أخرجه على هذا النحـو، والسبب واضح وبسيط وهو أنه مهموم إلى نخاعه بقضايا وطنه، وهو طيلة حياته شأن المهنيين الناجحين يتمنّى لهذا الوطن الرفعة، ويبحث عن الأسباب التى حالت بين الوطن وبين تحقيق أمـانيه، وهو يقدّم لوحة من أدق ما يمكن لشعور جيله بالغربة فى الوطن حين كان تصنيف المواطنين قد بدأ يخضع للتقارير والأهواء وهو يقول:

«وفى سنة ١٩٥٦ حدث العدوان الثـلاثى على مصر فتوحـدت مصر كلها وقاومت الغزو الغاشم».

«توحَّد الشعب للدفاع عن التراب المصرى، وليس للدفاع عن الفكر السياسى، لا جدال فى ذلك».

«ومثل هذا الموقف وقفه الشعب الروسى فى الحرب العالمية الثانية، فقد حارب ببسالة ضـد الغزو الألماني، دافع الشعب عن ترابه ولم يكن قطعًا يدافع عن النظام الشيوعى».

«تطوّعت فى قوات الـحرس الوطنى وانتظمت فى تدريبـات عسكرية مكثفَّة، ثم أنشـأت وحدة طبيـة فى سيارة ملحقـة بالكتيبـة العسكرية، وتطوَّع معى الزميل العزيز المرحوم الدكتور كمال عبدالغنى عثمان».

«وشعرت بـأن قائد الكتيبـة الصاغ سامى أبو الوفا مـعجب ومندهش مما أقوم به، ولم يلبث أن صارحنى:

«لا تؤاخذنى عما سأقوله «لم أكن أتوقع منك كل هذا».

«لماذا؟».

«لقد قيل لى منذ حضورى إلى هنا بأنك غير متجاوب. كما أنه ليس لك ولاء لوطنك، وهاأنذا أرى أننى كنت مـخطئًا فى التقدير، فـهؤلاء الذين كانوا يرددون هذه الأقوال لم أر منهم أحدًا الآن، ولم يتطوع منهم أحد».

وهنا يردف صاحب المذكرات بقوله :

«إن هذه الأقـوال فسـرَّت لى بعض تصرفـات القائد فى المـاضى،

فعندما كـان يحضر للمستـشفى لعمل رسمى، كان يتكلّم بطريقـة جافة فلم ألبث أن تجنّبت لقاءه أو الحديث معه».

«قلت: إن هذه الأقاويل التى بلغتك عنى لا أسـاس لها من الصحة، وقديما قال المتنبى:

وإذا أتتك مـذمـتـى من ناقص فـهى الشـهـادة لـى بأنى كـامل

«ومثل هؤلاء المنافقين موجودون فى كل التجمُّعات، فهم كالخفافيش، لا تعمل إلا فى الظلام - ولو ترك لهم الأمر لدمروا كل شىء. وقد رأيت أنت سلوكهم المعيب والوطن فى محنة - ولن يظهروا ثانية إلا للحصول على بعض المكاسب».

«أما انتمائى وولائى لوطنى فهو مبدأ وعقيدة منذ الصغر، ولايصح أن نفتخر بذلك أو نتباهى به، فهو فرض علينا وليس عطاء نقدمه».

«وأنت وأنا كنا طلبة فى المنصورة الثانوية، وأظنك تتذكّر مواقفها الوطنية التى اشتركنا فيها».

«وأنا أكتب الشعر أحيانا عندما تتأثر نفسى تأثرا عميقا».

«وسوف أعرض عليك ما كتبته هنا فى المعسكر مساء أمس مخاطبا مصر، ولم يقرأه أحد قبلك، وهذه القصيدة كان قد جاء فيها:

أأسـو الجـراح وأشـفى البـشرْ وفى القلب جـرح عـميق الأثرْ

أحـبـكِ عنـد ضـفـاف الغـديرِ وبين المروج وظـل الشـجرْ

أحبـكِ فى الليـــل لمـا سجى وأعشق فيــك جـمـال القمرْ

وحِـرص المحبين كـتمْ الهـوى وعنـد هــواك أذعــتُ الخبرْ

تجـاهـلـتِ حـبى وأهـمـلتنى فـا لى رأى ولم أستـشــرْ

وحـل الظـلام فأعمـى القـلو فأيـن الخـلاص وأين المفـرْ

تلفـتُ حـولى أروم الرحـيـل فـكل الـتراث العـريق اندثرْ

ففى الشـرق مـالٌ يقيم الحياة وفى الغـرب عِلم يفـوق البشرْ

وناديتنى فـرفـعـت الســلاح لأحـمل عنكِ الأذى والضـررْ

فمهـما قسوتِ ومـهما ظلمـتِ فحبـكِ فى مهجتى مستقـرْ

أحـبـكِ مصـرُ فـأنــت الحـيا وأنــت المصـير وأنــت القـدرْ

«هذا هو رأيـى وهذا هو مــبــدئى، ولا يـمكن أن أتخلـى عنه، واختلاف الرأى لا يُفسد للود قضية».

«فلم نلبث أن صرنا أصـدقاء، وصارت بيننا ألفة ومـودة، وقد توفى رحمه الله فى شبابه بعد مرض قصير لم يمهله».

(٧)

وتتبدّى مشـاعر مصطفى الرفاعى الوطنية فى دأبه على انـتقاد كل ما هو خاطـئ من تصرفـات وأخطاء كانت كـفيلة بأن تدمّر مـستقـبل هذا الوطن، وهذه فقرة تدلنا على هذه الروح:

«الجو حار فنحن فى شهر يونية سنة ١٩٦٠، الساعة ٧ صباحا كنت فى الطريق إلى المستشفى لإجراء عمليـة، ففوجئت بوجود عشرات من الطلبة يجلسون فى مـقهى بالشارع الرئيسى بالمحلة الكبـرى، وبعضهم واقف لعدم وجود مقاعد كافية، ورأيت الأستاذ عتابى - وهو أستاذ اللغة الإنجليزية بالمدرسة الثانوية - يكتب على سبورة والطلبة ينقلون ويرددون خلفه عبارات باللغة الإنجليزية».

«ما الذى يحدث هنا؟».

«إنه يشرح لهم إجابات امتحان الثانوية العامة الذى سيعقد بعد ساعتين؟».

«هل هذا معقول! وكيف حصلوا على أسئلة امتحان عام...؟!».

«يقولون إنهم حصلوا عليها من محطة إذاعة إسرائيل».

«هذا كلام غير معقول، إنهم يضيعونّ وقتهم فيما لا يُجدى».

«لا.. إنها الحقـيقة: لقد أذاعت إسرائيل أمس الأول امـتحان أمس وكان مطابقًا تطابقًا تامًا لورقة الأسـئلة، وقد ضاع مَنْ لم يصدق ذلك، لذلك تجد هذه الأعـداد الغفيرة من الطلبة هنا، وهـم يذاكرون الأسئلة طوال ليلة أمس».

□ومن هذه الواقعة يستطرد الدكتور مصطفى الرفاعى فى حديثه كأستاذ جامعى مصورًا مأساة التعليم العام فى مصر:

«أتذكر وأنـا طالب الاحتـرام والرهبة للجنة الامـتحـان والمشـرفين عليها، والالتزام التام بالنظام والسلوك الحضارى».

«علمت بعد ذلك أن الحكومة ألغت الامتحان، فلم يكن هناك بديل لذلك، وأعادوا الامتحان بعد شهرين، فقد ثبت بما لا يقبل الشك أن الامتحان قد تسرَّب من أيد غير نظيفة. إن الضبط والربط فى وزارة التعليم انهار تماما».

«ومرت الأيام وتدهورت الأحوال من سيئ إلى أسوأ، ودخلت الامتحانات العامة عصر الغش الجماعى».

«داخل اللجان يدخل الطلبة بأوراق مكتوبة للغش منها، كما تتسرب الأسئلة بعد دقائق من توزيعها إلى خارج اللجان، وترسل إجابات يكتبها بعض المدرسين من خارج اللجان، تُدخل إلى الطلبة بطريقة أو بأخرى».

«كما تُعلقّ مكبرات الصوت خارج اللجان فى منازل أو سيارات متحركة تُملى إجابة الامتحان سؤالا سؤالا ولا يتحرك أحد، وإذا حاول المراقب أن يضبط أحد الطلبة متلبسا بالغش، أو أغلق النوافذ حتى لا تُسمع الميكروفونات، هدده الطلبة داخل اللجان بالأسلحة البيضاء وربما اعتدوا عليه.. فالغش حق مكتسب من وجهة نظرهم».

«أما خارج اللجان فيعتدى الطلبة وأهاليهم على المدرسين، وكثيرا ما أصابوهم بجروح نافذة. هل هذا هو المدرس الذى قال فيه شوقى:

«قم للمعلم وفه التبجيلا... كاد المعلم أن يكون رسولا».

«وفى بعض اللجان لا يستطيع مراقبو اللجان الخروج من البلدة إلا بحراسة البوليس».

«واشتهرت بعض اللجان فى المناطق النائية بسهولة وتسهيل وسائل الغش الجماعى، فحول إليها كثير من الطلبة المنحرفين مع أهاليهم لتأدية الامتحان بها، علما بأنه لا توجد علاقة لهم بهذه اللجان من قريب أو بعيد، وتسمع من مراقبى الامتحانات قصصا يندى لها الجبين تحدث فى هذه اللجان وهم عاجزون عن التعامل معها».

«ووصل الحال أن فقد رجال الأمن السيطرة على إحدى اللجان، فألغيت هذه اللجنة ونقلها المسئولون إلى عاصمة الإقليم».

«هل بعد كل هذا عندما يصل إلى كلية الطب مثلا بعض الطلبة بمجاميع عالية مع تواضع مستواهم العلمى، هل نصدق أن مثل هذه المجاميع لم يحصلوا عليها بطرق ملتوية؟!».

«هل يحدث كل هذا فى وزارة التربية والتعليم، أى تربية هذه! وأى تعليم هذا!».

....

ثم يبلور الدكتور مصطفى الرفاعى رؤيته المستشرفة لمستقبل خطر ويقول:

«سوف يصل مثل هؤلاء الطلبة يوما ما إلى مراكز قيادية، وإذا تحكّم فى أمور الناس من بدأ حياته بالغش، فقل على مصر السلام».

(٨)

ونحن نرى الدكتور مصطفى الرفاعى فى هذه المذكرات وهو يجيد تصوير نفسه فى صورة الشاب الذى شارك فى مظاهرات ١٩٣٥ فى المنصورة، فإذا احتج عليه والده أو نصحه ألا يشارك فى المظاهرات لم يكن جواب الفتى إلا أن أباه نفسه كان يحكى له أنه شارك فى مظاهرات ١٩١٩.

ولا يزال مصطفى الرفاعى يحتفظ فى ذاكرته بكل تفصيلات مظاهرات طلبة المنصورة الثانوية عندما اتحدوا مع مدرسة الصنايع فى المنصورة:

«. . . وكنا صغاراً لا تتجاوز أعمارنا الحادية عشرة، وتوفيق السيد كان فى السنة الثالثة (تقابل السنة الأولى الآن) وكان قصير القامة، شخصية قوية، إذا تكلم صمت الجميع، زعيم بلا جدال».

«ارجع ياتوفيق، البوليس ناوى لك على نية وحشة، مستقبلك يابنى».

«لا يا أستاذ، نموت وتحيا مصر، الدستور أو الثورة».

«ويتجمع تشكيل كبير من البوليس المسلح بالعصى والدروع والبنادق خارج المدرسة فتزيد ثورة الطلبة ويتسلحون بالحجارة والمقاليع وفروع الأشجار وخراطيم المياه ويتوتر الموقف. نحن الصغار نساعد الكبار بجمع الحجارة وفرد خراطيم المياه. يهجم تشكيل من البوليس ويدخل حوش المدرسة من الباب الرئيسى، تزداد ثورة الطلبة، كيف يدخلون المدرسة، لن نمكنهم من ذلك».

«يتصدى مئات من الطلبة بقيادة توفيق السيد لرجال البوليس ويمطرونهم بوابل من الحجارة، ثم يهجمون عليهم بالعصى، فيفر البوليس أمامهم ويقع أحد العساكر فى الأسر ويستولى الطلبة على سلاحه».

«تنضم مدرسة الصنايع الملاصقة للإضراب «يحيا اتحاد الطلبة»، يعود تشكيل أقوى من البوليس المسلح، يضرم الطلبة النار فى المبنى الخارجى بين المدرسة الثانوية والصنايع لإعاقة تقدم البوليس».

«يقاوم الطلبة التشكيل الجديد بشجاعة وفدائية، يطلق البوليس الرصاص من بنادق لى انفيلد «بنادق ميدان»، يتساقط الطلبة هنا وهناك، ونهرب نحن الصغار من فوق السور الخلفى للمدرسة إلى العزب المجاورة، ويطاردنا البوليس. يخفينا أحد الفلاحين فى عشة الفراخ فوق سطح منزله، ويصر أحد العساكر على دخول المنزل، ويصر القروى الشجاع على منعه فلا يدخل، فمصر كلها وراء الوفد، ومصر كلها وراء ثورة الطلبة».

«تمر علينا الساعات وكنا ثلاثة صغاراً ولم نعد لمنازلنا إلا بعد الغروب، وقد ألبسنا الفلاح الشهم الجلاليب فوق ملابس المدرسة بالبنطلون القصير».

(٩)

ويسجل مصطفى الرفاعى من ذاكرته أسماء الشهداء والمصابين فى

ذلك اليوم العصيب وهو يفعل هذا باعتزاز وإيمان شديدين حيث يقول:

«مات شطا محمد شطا داخل المدرسة، وكان فى السنة الرابعة، أصابته رصاصة فى رأسه، ومات صديقى وزميلى على حسين حسن، وكان والده قاضيًا، وكان عمره إحدى عشرة سنة، مات بعد أيام فى المستشفى بعد إجراء عملية جراحية من رصاصة أصابته فى بطنه وهو داخل الفصل، وكان هادئًا وديعًا ولا أعتقد أنه غادر الفصل».

«أطلق جندى عليه النار داخل الفصل «قلت له ما تضربنيش قام ضربنى»، ذهبت لزيارته بالمستشفى وكان محاطا بالبوليس «امشى ياولد من هنا» فبكيت، مات ولم أره».

«ثم مات الشاذلى بعد حوالى شهر، وكان طالبًا بمدرسة الصنايع، وكان مصابًا برصاصة فى العمود الفقرى».

«أصر الطلبة على عمل جنازة كبيرة للشاذلى فوافق البوليس على أن تكون جنازة صامتة، فوعدهم بذلك توفيق السيد ونفَّذ وعده».

«أما عدد الجرحى فكانوا كثيرين، أذكر منهم عادل البتانونى، وكان من زعماء الطلبة، وكان قد أصيب فى رأسه، وحضر إلى المدرسة بعد شفائه وقابلناه بالتصفيق فى طابور الصباح».

«وإبراهيم الجمال، وشُفى من إصابته وقد زاملته فى طب الإسكندرية وعمل طبيبًا بالإسكندرية، أما عدد المقبوض عيهم فكانوا كثيرين».

«ما هذه القسوة! وما هذا العنف! طلبة أبرياء هم طليعة شعب مصر

يطالبون بالدستور فتُقتحم مدرستهم ويُقتَلون برصاص بنادق الميدان».

«هل حُكم على هذا الشعب بالهوان إلى الأبد، عندما يطالب بحقه الدستورى وحقوقه الوطنية».

«أما فى القاهرة فقد سقط شهداء من طلبة الجامعة، قتلهم البوليس وكان يوجد إنجليز بين قوات البوليس المصرى».

«فاستشهد عبد الحكيم الجراحى، وعبد المجيد مرسى، وجُرِحَ إبراهيم شكرى، وهو الزعيم الوطنى الكبير الذى مازال يعطى إلى الآن».

«قابلت توفيق السيد بعد هذا التاريخ بحوالى عشرين عامًا، وكان يعمل معاون إدارة بالمنصورة، وكان نشيطًا متفانيًا فى عمله، وقد توفى رحمه الله فى ريعان شبابه».

«أما الدكتور محمد بلال رحمه الله فلم أقابله إلا فى سنة ١٩٨٥ فى ندوة فى حزب الوفد فى المحلة الكبرى، أى بعد خمسين عامًا من ثورة سنة ١٩٣٥، ومكثنا برهة من الزمن نتذكَّر هذه الأيام المجيدة من تاريخ مصر، تاريخ ثورة الطلبة التى قادها زعيم شباب الوفد محمد بلال الطالب بكلية الطب».

ثم ويبلور الدكتور الرفاعى ذكرياته وآراءة عن هذه الفترة الباكرة من حياته فى عبارة قصيرة يقول فيها :

«نجحت ثورة الطلبة سنة ١٩٣٥ وعاد الدستور».

(١٠)

ويروى الدكتور الرفاعى فى مـذكراته قصة محاولته اسـتعادة ذكريات تلك الفترة بعد سنوات طوال من حدوثها فيقول :

« . . . وتمر السنون وأذهب إلى المنصورة الثـانوية لعمل طبى فأرى المدرسة وأرى جدرانها، وقد حرص المسئولون على ترك آثار الرصاص فى الجدران كمـا هى لا ترمم كشاهد على الجريمة البشـعة التى طالما اقترفت فى حق هذا الشعب العظيم».

«وذهبت إلى النصب التذكـارى للشهداء بالمـدرسة وقرأت الفـاتحة على أرواحهم الطاهرة».

«رحم الله شهـداء المنصورة، ورحم الله شـهداء مـصر الذين رَوَوا بدمائهم الشجرة التى لا تُروى إلا بالدماء، شجرة الحرية».

□

ونحن نرى الدكتور مصطفى الرفاعى قـرب نهاية كتابه وهو يعود إلى تذكر هذه الأيام المجيدة التى حفلت بكفاح الشباب الواعى ووطنية أبناء مصر، ويقول:

« . . . أيقظنى الأستاذ عـبد الحميد مـن الماضى، وقادنى إلى داخل المدرسة ليرينى النصب التذكارى لشهداء المدرسة سنة ١٩٣٥».

«لا يا أستـاذ عبد الحمـيد، إن النصب كان أمام المـبنى الخارجى، ليس هذا نصب شهداء سنة ١٩٣٥ . ولمـا تمعنت فى النصب، وجدت

أن هذا النصب هو لشهداء المدرسة سنة ١٩٤٦، ولم أكن قد رأيته من قبل، شهداء ثورة الطلبة ضد معاهدة صدقى ـ بيفن التى رفضها الشعب المصرى وأسقطتها ثورة الطلبة».

«هى هى المنصورة حفظها الله، قمة فى الوطنية والفداء، أليست هى التى أنقذت مصر وقضت على جيش لويس التاسع، وأسرته وسجنته فى دار ابن لقمان، ولازالت الدار على عهدها كما قال الشاعر.. وقرأت على النصب من بين أسماء الشهداء اسم الشهيد فتحى عثمان، شقيق الزميل الدكتور عبدالمنعم عثمان زميلنا فى كلية طب الإسكندرية، وقد كان ولا يزال مثلاً رائداً فى الوطنية والتضحية. بحثت عن النصب التذكارى لشهداء سنة ١٩٣٥ فلم أجده».

«حزنت لذلك حزنًا شديداً، أين يوجد هذا النصب؟».

□

ويأبى صاحب المذكرات إلا أن يعبّر عن أمنيته فى أن تتخلد ذكرى هؤلاء الأبطال، وألا تضيع هذه الذكرى مع السنوات:

«هل ضاعت إلى الأبد ذكرى الزميلين شطا محمد شطا وعلى حسين حسن شهيدى ثورة ١٩٣٥؟! لابد من إيجاد وسيلة لإعادته إلى مكانه».

(١١)

وقبل هذا فإن مصطفى الرفاعى لا يزال يذكر ما حدث وهو فى طفولته حين توفى الزعيم سعد زغلول فخرجت مدينة بورسعيد تودّعه،

ويترسَّب في وعي صاحب الخواطر أن سعداً قد مات في بورسعيد ولم يدرك إلا متأخراً أن سعداً قد مات في القاهرة، وأن ما شاهده في بورسعيد لم يكن إلا صورة مما تكرر في مدن العروبة جمعاء، وهو يصور فقد سعد تصويراً بديعاً بليغاً تعينه عليه ذاكرته الحافظة للأشعار التي نظمت في رثاء ذلك الرجل العظيم فيقول:

«والدتي تبكي بكاءا حاراً والناس في بكاء ونحيب».

«وأنا واقف بجانبها في شرفة كبيرة تُطل على شارع رئيسي في مدينة بورسعيد، حتى بائع الجيلاتي على الرصيف المقابل يبكي، أما ببغاؤه الكبير فيتحرَّك بعصبية داخل قفصه وتصدر عنه أصوات عالية مزعجة».

«وأرفع رأسي وأنظر إلى الشارع بين فجوات الشرفة فأرى جنازة مهيبة والنعش مُغطى بعلم مصر الأخضر، وأمامه رجل يحمل صورة كبيرة لسعد زغلول، صورة مألوفة لي، وأعرفها تماماً، فهي في كل مكان، حتى غطائي الصغير على السرير، مطبوع على نسيجه صورة سعد زغلول».

«يتقدم الجنازة شيوخ معممون مع رجال الدين المسيحي بملابسهم السوداء ورجال وسيدات وأطفال».

«ويصيح بائع الجيلاتي القريب إلى قلبي «نحن أيتام من بعدك ياسعد». لقد رثى سعد زغلول شعراء الوطن العربي من مشرقه إلى مغربه».

«ولكن لم أجد وصفًا يصف ما أصاب مصر من هلع كما وصفها شاعر لبنان الأخطل الصغير «بشارة الخورى»:

قالوا دهت مصر دهياء فقلت لهم هل غيض النيل أوهل زلزل الهرمُ؟

قالوا أشدُّ وأدهى قلت ويحكمُ إذا لقد مات سعدٌ وانطوى العلمُ

لم لا تقولون إن العُرْب قاطبة تيتمَّوا كان زغلول أبًا لهمُ»

. . . .

ثم يروى الدكتور الرفاعى ذكرياته حين انتقلت أسرته إلى المنصورة والتحق بمدرستها الابتدائية وسأله المدرس عن وفاة سعد زغلول أين حدثت فاذا به يستعيد من ذاكرته صورة جنازة سعد زغلول التى رآها فى طفولته فى بورسعيد ، ومن الطريف أن نراه يمزج حديثه عن هذا الموقف بحديث عن القيمة المعمارية والتاريخية لمدرسته الايتدائية .

«وتمر سنوات، . . . سنة أولى المنصورة الابتدائية. المدرسة العريقة التى بناها محمد على الكبير منذ أكثر من مائة وستين عامًا، ولازالت إلى الآن شامخة بلونها الأحمر الداكن، الذى لم يُسقط منها الزمن ولا الزلزال حجرًا واحدا، لا تزال قائمة تصارع الزمن، كم خرَّجت من أجيال ملأوا مصر علمًا وثقافة».

. . . .

«مدرس اللغة العربية يسألنى: «أين مات سعد زغلول؟».

«مات فى بـورسعيـد. . أقعـد أنت ما تعـرفش حاجـة. . مات فى القاهرة».

«لا . . . هو لا يعلم الحقيقة . . فقد رأيت بعينى جنازته».

«فلم أكن أدرى أن هذه الجنازة كانت جنازة رمـزية، وأن جنازة سعد زغلول شيعت فى كل مدينة مصرية».

(١٢)

وفى مقابل كل هذا الاعتزاز بالعصر الذى شهد طفولته وصباه وشبابه فإن الدكـتور مـصطفى الرفاعى لا يذكـر ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالخـير أبدا!! وهو يصرِّح بأنه لم يكن فى وسعه أن يتقـبَّل الثورة وسلوكها وقد شهد آسفاً تعاملها القاسى مع الدكتور رشوان فهمى، الذى كان أول مَنْ أيدها.

وفى الحقـيقة فإن مذكـرات مصطفى الرفاعى تمثل مـصدراً من أهم المصادر التى تلقى الضـوء بالتفصيل على مأساة الدكتـور رشوان فهمى فى عـهد الثـورة، وهو يقدِّم للحديث عن دور الرجل فى عـهد الـثورة بحديث عن ثوريته المبكرة فيمـا قبلها حين دعا إلى إضراب الأطباء فى عـهد وزارة الوفـد الأخيـرة وشاركـه مصطفى الرفـاعى نفســه فى هذه الدعوة، ولا تزال قصة هذا الإضراب الفعال المنظم الذى قام به الأطباء واستـمر خمسـين يوما بحاجـة إلى مَنْ يكتبها ويـسجلها، وقد اكـتفى الدكتور الرفاعى فى المذكرات بإضاءة سريعة تحتاج إلى إضاءات:

«. . . تعـود بـى الذاكـرة لسنة ١٩٥١، عنـدمـا كنت نائبًا بـقـسم الجراحة، وكـان الدكتور رشوان مدرسًا بكليـة طب الإسكندرية. الحياة السيـاسية مضـطربة ومصر تموج بأفـكار سياسيـة متضـاربة ومتطاحنة، شباب مصر يتطلع إلى حياة مثالية، فنحن غير قابلين للأوضاع السياسية والاجتماعية التى نعيش فيها».

«ولم نكن ندرى أن العـدالة المطلقة لا توجـد إلا فى السـماء، وأن المدينـة الفاضلة لا توجـد على هذا الكوكب.. ويمكننى أن أردد الآن قول الشاعر:

رب يوم بـكيت مـنه فلـمـــا صـرت فى غـيـره بكيت عـليـه

«كانت مرتبات الأطباء ضيئلة والحكومة لا تستجيب، فليُضرب الأطباء ولكن كيف يكون ذلـك؟ نعم نُضرب عن العمل فى العـيادات الخارجـية بالمستشفيات، ولكن لابد أن يسـتمر العمل فى الحالات العاجلة (حالات الاستقبال والحوادث) فلا يمكن أن يمتد الإضراب إليها».

«بدأت الفكرة فى منزل الأطباء النواب بـطب الإسكندرية بين الزميل الدكتـور على نوفل وبينى.. اقتنع الأطبـاء النواب والامتيـاز بالإضراب ولكن لم يكن هذا كافيا، وهنا ظهر الدكتـور رشوان فهمى فأعطانا دفعة قوية وأقنع أعضاء هيئة التـدريس فأيدوا الإضراب.. وكوَّنا لجنة، سافر كل عضـو منا إلى عدد من المـحافظات داعـيًا إلى الإضراب فـأضرب جميع أطباء مصر».

«أتذكر أنى سافرت إلى محافظات القنال : السويس والإسماعيلية وبورسعيد. . دعونا إلى مؤتمر صحفى بالكلية، تكلم رشوان فهمى بشجاعة وطلاقة: «إن المبالغ المالية اللازمة لإصلاح حال الأطباء أقل مما يصرف على حفلات عيد ميلاد الملك».

«لقد آن لنا أن نتكلم».

«ثم دعانى إلى الكلام فقلت إن المبالغ اللازمة لنا أقل من الميزانية التى اعتمدتها الحكومة للإنفاق على سيارات ويخوت الخاصة الملكية.

(١٣)

ويذكر مصطفى الرفاعى أنه فى أعقاب هذا الإضراب ردّ على وزير الصحة الوفدي ردا منطقيا ولكنه قاسٍ، وأن هذا الرد قد نشر فى بعض الصحف، ومع هذا فإنه لم يتعرّض للاضطهاد بسبب هذا الهجوم الواضح على وزير الصحة الوفدى:

«وكان وزير الصحة عبد الجواد حسين، قد هدد الأطباء بأنه سيقدم للنيابة كل مَنْ يضر بحياة المرضى، فبينت للصحافة أسلوب الإضراب، الذى لا يرفض علاج الحالات العاجلة، بل ويصر على علاجها، وقدمت لهم قائمة بالعمليات التى أجريت بالمستشفى فى اليوم السابق».

«ثم قلت: ونحن نوافق على ما صرح به وزير الصحة، لذلك أطلب تقديم الوزير للنيابة، لأنه المسئول الأول عن الإضرار بحياة المرضى

لعدم توافر العقاقير اللازمة للعلاج، كما هو مثبت فى أوراق المرضى، وكنا نحن الأطباء المقيمين نتبع إداريًا وزير الصحة».

«وفى اليوم التالى صدرت بعض الصحف وبها أخبار المؤتمر فى الصفحة الأولى «طبيب يطلب تقديم وزير الصحة للنيابة، مدرس بكلية الطب يعارض إهدار مال الدولة على الحفلات الملكية».

«كانت الحكومة التى تحكم مصر هى حكومة الوفد برئاسة مصطفى النحاس، انتظرنا أن يقبض علينا، فلم يقبض علينا أحد ولم يستدعنا أحد ـ قمة الديمقراطية ـ ولكن قال لى الدكتور رشوان:

«أعتقد أننا أصبحنا من غير المرغوب فينا فى هذه الكلية، وأنت لا تزال نائبًا ولا أعتقد أنك ستعيَّن هنا».

«فليكن ما يكون وسنستمر فيما بدأنا فيه، فلا سبيل إلى التراجع.. استمر الإضراب خمسين يومًا وعم مصر كلها، وتم الإصلاح».

□

ثم يردف مصطفى الرفاعى هذه القصة مباشرة برواية دور الدكتور رشوان فهمى فى بداية عهد الثورة مفصلاً القول فى الجهد الذى بذله هذا الرجل العظيم ويقول:

«... ومرت الأيام وجاءت «حركة الجيش» فكان أول المؤيدين لها رشوان فهمى، الذى اجتمع فورًا بالدكتور محمد الغراب والدكتور محيى الخرادلى المدرسين بكلية طب الإسكندرية، وتم الاجتماع بمنزل

الدكتور الغراب يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٢، وأرسلوا تلغرافًا إلى جريدة الأهرام باسم أعضاء هيئة التدريس بجامعة فاروق الأول يؤيدون فيه حركة الجيش، كما أرسل الأطباء النواب والامتياز بمستشفيات جامعة فاروق الأول تلغرافًا مماثلا، وقد نشر كلا التلغرافين فى الصفحة الأولى من جريدة الأهرام يوم ٢٥ يوليو سنة ١٩٥٢، وقد أذاعت محطة الإذاعة البريطانية ما كُتب فى تلغراف هيئة التدريس بعد إرساله بعدة ساعات، كان هذا أول تأييد لثورة ١٩٥٢ ففتح الطريق إلى عشرات ومئات من برقيات التأييد».

(١٤)

ويصل الدكتور مصطفى الرفاعى بعد هذا إلى رواية حقيقة مأساة رشوان فهمى مع نظام الحكم فى عهد الثورة، نقتطف مما يرويه بعض الفقرات:

«... ومرت الأيام وفى سنة ١٩٥٧ انتخب رشوان فهمى نقيبًا لأطباء مصر وأعيد انتخابه سنة ١٩٦١ وأعيد مرة ثالثة سنة ١٩٦٥ بالرغم من محاربة الحكومة له، وكان ينافسه فى كل مرة طبيب من القسم الطبى للجيش، لم ترتح الحكومة لذلك خصوصا سنة ١٩٦٥، فلقد أصبحت له شعبية».

«وفى سنة ١٩٦٦ نشرت جريدة الأهرام تصريحا لرئيس الجمهورية يقول: «إننا نجحنا فى إدارة قناة السويس وفشلنا فى إدارة قصر العينى»، وكان يعزو ذلك ويردد أن الفشل فى إدارة قصر العينى يرجع إلى جشع الأطباء وإهمالهم.. لم يحدث أى رد فعل من الأطباء أو النقابة على

هذه الإهانات. والحقيقة أن مستشفى قصر العينى كان يعمل تحت ظروف قاسية من الحرمان. كان هناك نقص شديد فى المعدات والتجهيزات والدواء والغذاء، فقد كانت كلفة المريض المسموحة فى اليوم هى «تسعة قروش!!».

«وفى ٥ يوليو ١٩٦٦ أقامت كلية طب جامعة القاهرة حفلها السنوى لتوديع الأساتذة المحالين إلى المعاش والترحيب بالمدرسين الجدد، حضرها وزير الصحة وعميد كلية الطب ومسئولون سياسيون من أطباء قصر العينى لعلاقتهم بالاتحاد الاشتراكى! وتوالت الخطب التى تمجد رئيس الجمهورية، ولم يتطرق أحد إلى تمجيد جيل الأساتذة الرواد أو الدفاع عن قصر العينى!».

«وهنا اعترض الأستاذ الدكتور عثمان وهبى بكلية طب القاهرة بصوت مرتفع على أسلوب الخطباء، وعندما هم بالكلام، قام النقيب رشوان فهمى واستأذنه وأخذ مكانه».

«أشار رشوان فهمى إلى النقص الشديد فى الإمكانات فى جميع النواحى، وذكر بفخر أمجاد قصر العينى فى الماضى والحاضر، مبينًا أنه المدرسة التى خدمت مهنة الطب فى الشرق الأوسط كله».

«وأنه ما من قوة يمكنها أن تنكر أو تتنكر لفضل قصر العينى، وقال: «اعطوا قصر العينى الإمكانات المتاحة لقناة السويس وسترون ما يمكن أن ينجزه».

«رشوان فهمى يدافع عن قصر العينى، فقد تخرَّج فيه، كما أن والده الدكتور فهمى مصطفى كان مديرًا لقصر العينى».

«وتحمس الحاضرون ولكنهم فجأة توقفوا عن التصفيق، فلم يستحسن الأستاذ الدكتور عثمان وهبى هذا التوقف، وحثهم على التصفيق «لقد رد رشوان فهمى اعتباركم ومكانتكم وكرامتكم»، وسرعان ما وشى بهما أحد المنافقين وكوفئ على ذلك بسخاء. . كيف يجرأون على ذلك، فرضت الحراسة على رشوان فهمى وعثمان وهبى فى يوليو ١٩٦٦ ، ثم فصلا من الجامعة بقرار جمهورى».

«وكان ثمن العفو أن يعتذر رشوان فهمى شخصيًا عما قاله! فلم يقبل أن يعتذر. . لقد رد رشوان فهمى وعثمان وهبى وحدهما كرامة الأطباء، ودفعا وحدهما ثمن ذلك بكل شهامة وكل شجاعة».

«كما فُصِل رشوان فهمى أيضًا من الاتحاد الاشتراكى ومستشفى التأمين الصحى، كل هذا حدث لرشوان فهمى أول من أيد ثورة يوليو».

«أما نقابة الأطباء فقد اجتمع مجلسها «العام الموقر»! فى ٢٣ أغسطس ١٩٦٦ ، وفُصل رشوان فهمى من عضوية مجلس النقابة ومن منصب نقيب الأطباء، وكذلك اجتمعت مجالس النقابات الفرعية وفصلته أيضا!!».

«وجاء فى قرار الفصل «استنكار مواقف الدكتور رشوان فهمى الشخصى دون أن يرجع فيه إلى مجلس النقابة»، استنكار دفاعه عن قصر العينى، الذى علّمهم وخرّجهم. ما هذا الذى فعلتموه يامجلس أعرق نقابة فى مصر، ويا طليعة المثقفين. . سامحكم الله وعافاكم».

«حتى خط التليفون قطع عن منزله. . عن منزل طبيب!».

(١٥)

ولا يقف الدكتور مصطفى الرفاعى عند لحظات أو ساعات انتصار الشر فى قصة كفاح الدكتور رشوان فهمى لكنه بذكاء شديد ينبه إلى الجوانب التى انتصر فيها الخير فى قضية هذا الرجل النبيل ، وهو يشير إلى عدة مواقف مجيدة لزملائهم فيما يتعلق بهذه القضية :

«ويجب أن أسجل للتاريخ موقفًا مشرفًا للأستاذ الدكتور محمد الغراب بطب الإسكندرية ورئيس نقابة أطباء الإسكندرية فى ذلك الوقت، والدكتور عباس ذكرى رئيس نقابة أطباء بنى سويف، فقد رفضا، كما رفض أعضاء كلتا النقابتين الموافقة على فصل رشوان فهمى».

«لقد رد محمد الغراب وعباس ذكرى للأطباء كرامتهم التى أهدرها مجلس النقابة العامة».

«لقد كانا شعلتين مضيئتين وسط الظلام الدامس».

«لم تكتف الحكومة بما فعلته، فلم تصرف لرشوان فهمى معاشه لسنوات فأصبح بلا مورد. . فلم تكن له عيادة خاصة».

«ذهب مندوب الحراسة إلى مسكنه وألقى نظرة على محتويات الشقة ثم سأله:

«هل هذا هو كل شىء؟».

«بل إن بعضه لم أسدد ثمنه».

«هل تملك خيول؟».

«أنا لا أملك خيول كما لا أملك سيارة، أما عن حسابى فى البنك. . .».

«أنا ذهبت إلى البنك قبل حضورى إليك، فلم أجد لك رصيدا!....».

«قابلت دكتور رشوان بعد هذه الحوادث، وكان بشوشًا ضاحكًا كعادته فقال لى: تصور عملوا علىّ حراسة فوجدوا أن رصيدى مدين للبنك بمبلغ ٢٨ جنيه هل سيدفعوهم؟».

«كان رشوان فهمى يعيش وحده، وكان يجد كل صباح مظروفًا يدخل عليه من تحت باب الشقة التى يسكنها به مبلغ من المال، لا يعرف مصدره؟».

«كما قام مدرس بقسم العيون بكلية الطب بالاجتماع ببعض أعضاء هيئة التدريس بالكلية فأنشأوا عيادة جيدة للدكتور رشوان بجوار تمثال الجندى المجهول بالإسكندرية ولم يكن له عيادة قبل ذلك، ولكن ... لا بأس أن يدخل مجال العمل الحر».

«وفى ظروف خاصة، بدون علم دكتور رشوان، قدم أعضاء هيئة التدريس بكلية طب الإسكندرية التماسا لرئيس الجمهورية لكى يعاد تعيين رشوان فهمى بكلية الطب، فرُفِض الالتماس، ولكن حُدد له معاش استثنائى كبير، وكان معاشه الرسمى ضئيلاً ، لأنه كان قد استبدل جزءًا منه، ولما بلّغ المسئول الدكتور رشوان بذلك رفض رفضًا قاطعًا «كرامته وعزة نفسه تأبى عليه ذلك»، قال للرسول هذه هى إجابتى: «يستطيع الحاكم أن يحرمنى مما أستحق، ولكنه لا يملك أن يجبرنى على أن آخذ ما لا أستحق»، وكيف تتصرف الدولة فى أموال الشعب بهذا الأسلوب، هذا ليس من حقها».

....

(١٦)

وبعد هذا كله يعلق الدكتور الرفاعى راويا أحد المواقف النبيلة التى كان الدكتور رشوان يقفها وهو على علاقة جيدة بالسلطة وبرجال الحكم:

«هو هو رشوان فهمى الذى لم يقبل أن يهدر المال العام قبل الثورة، لم يقبل أن يُهدَر بعد الثورة، حتى لو كان ذلك المال لصالحه».

«هو هو رشوان فهمى الذى رفض قرارا بترقيته هو والدكتورة عايدة اللقانى إلى درجة أستاذ مساعد سنة ١٩٥٢ بعد الثورة، وكتب إلى مدير الجامعة يقول:

«إن ترتيب الدكتورة عايدة (١٦) وترتيبى أنا (١٧) فى أقدمية المدرسين بالجامعة، فكيف تتخطون ١٥ مدرسا أقدم منا، وربما يكونون أيضا أكفأ منا. أخشى أن يقال إن علاقتنا برجال الثورة هى المبرر لذلك. فأوقفت الترقية»

□

ويستأنف الدكتور الرفاعى رواية ما حدث للدكتور رشوان فهمى بعد ثورة التصحيح فى مايو ١٩٧١:

«بعد ثورة التصحيح رفع قضية ضد الجامعة لفصله تعسفيًا، فصدر الحكم بإلغاء القرار الجمهورى الصادر بفصل الدكتور رشوان فهمى من الجامعة، وبإلزام الجامعة بأن تدفع تعويضًا عن الأضرار التى لحقت به، إن قضاء مصر العريق كان ولايزال شامخًا كما عهدناه، فهو حصن مصر

الحصين، وقد حكم فى هذه القضية المستشار عادل البندارى فى محكمة القضاء الإدارى بالإسكندرية».

«وفى يونية سنة ١٩٧١ صدر قرار بتعيينه أستاذًا غير متفرغ بقسم العيون بكلية طب الإسكندرية لأنه كان قد بلغ سن الإحالة إلى المعاش فقد مرت سنوات...».

«وفى ٢٤ مارس سنة ١٩٧٢ أقيم له حفل استقبال فى نادى أطباء كلية الطب بمناسبة عودته أستاذًا بالجامعة وألقى خطبة».

(١٧)

ويعد أن ينقل الدكتور الرفاعى بعض فقرات من خطبة رشوان فهمى فى حفل تكريمه، يروى أنهما كانا يلتقيان فى القطار (فى أواخر حياته) حين كان كلاهما منتدبا للتدريس فى كلية طب طنطا، ثم يقول:

«ومات رشوان فهمى وحيدًا فلم يكن يعيش معه أحد، ولكنه يستمر فى عطائه بعد موته، لم يكن عنده ثروة لكى يتركها للكلية فتبرع بجسمه لقسم التشريح بعد وفاته، ولكن الكلية اعتذرت عن تنفيذ وصيته».

□

ونقتطف من كلمة مصطفى الرفاعى فى تأبين رشوان فهمى قوله:

«رشوان فهمى ظاهرة لا تتكرر بسهولة، شجاعة، إقدام، كرامة، قوة فى الحق، لا يخفض رأسه أبدًا، فى وقت أذل الحرص فيه أعناق الرجال».

«شخصية فذة، يذكرنا بالصحابى أبو ذر الغفارى الذى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عاش وحده، وجاهد وحده، ويموت وحده، ويبعث يوم القيامة وحده»، معتنقًا لقول الإمام الشافعى رضى الله عنه:

أنا إن عشت لست أعدم قوتا   وإذا مت لست أعدم قبرا
همَّتى همَّة الرجال ونفسى   نفس حُرٌ ترى المذلة كفرا».

وهذه بعض أبيات صاحب المذكرات فى تأبين رشوان فهمى :

العلم والأخلاق يجتمعانِ   والنبل والإقدام يلتقيانِ
علَّمت أجيالاً وصنت مبادئا   ورفعت هامتنا بكل مكانِ
ودعوت للعدل الشريف مناضلا   بالحق فى سرٍّ وفى إعلانِ
ولقد ذكرتك والجموع تحوطنا   مستمتعين بحكمة وبيان
فأخذت منا العهد عما قلته   وأخذت منك مواقف الشجعان
ورفعت رأسك عاليا متعاليا   بالزهد مبتعدًا عن الأقران
ورفضت أهل الذل فهو خطيئة   ذل الحياة وكفرها صنوان
هم فضلوا العيش الهنىء وما دروا   أن الضمير محاكم الأزمان
ليس الولاء لقائد أو حاكم   إن الولاء لنرة الأوطان
يامصر حسبك ما ظلمت وإنما   ما رمت إلا أن أعيد كيانى
يا مصر إن العلم سلطان الورى   هل يستوى العلماء بالسلطان؟

تعطى العُلو لظالم أو جاهل ... وتجانبين أئمة العرفان!

يا مصر ابنك فى الخلود مكانه ... لا تتركيه إلى الهباء الفانى

لو يحسن الشعراء صوغ قصيدهم ... لن ينظموا إلا على رشوان

ما مات مَنْ أحيا أصالة أمة ... وأعزها بكرامة الإنسان»

(١٨)

ويبدو - والله سبحانه أعلم - أن تحفُّظ الدكتور مصطفى الرفاعى على تصرُّفات ثورة ٢٣ يوليو قد دفعه إلى أن يعبِّر بالاسقاط عن إحساسه بالراحة من حديث استمع إليه من طبيب أمريكى بارز، وكان هذا الطبيب من أصل فرنسى عريق، وهو ينتقد الثورة الفرنسية على نحو ما يروى مصطفى الرفاعى:

«إن الثورة الفرنسية لم تكن عملاً جيدًا، لقد قتل الثوار (سُدس) سكان فرنسا بمحاكمات صورية وشوهوا التاريخ».

- «هل تعرف كم عدد المسجونين الذين كانوا فى الباستيل عندما استولى عليه الثوار».

- « لابد أنهم كانوا مئات».

- «لم يكن فى السجن إلا سبعة أفراد فقط.. ولم يكن هناك إلا مسجون سياسى واحد، كان قد حاول قتل الملك بقنبلة فلم تنفجر، حكم عليه بالسجن ولم يعدم، وستة مساجين محكوم عليهم فى قضايا مدنية سرقة ونصب.. إلخ. ألم أقل لك إنهم شوهوا التاريخ..».

ويعقب الدكتور مصطفى الرفاعى على حواره مع الطبيب الفرنسى بقوله:

«إن إضافة كلمة «دى» إلى اسم الشخص فى فرنسا تدل على عراقة أصوله، فربما يكون هذا هو السبب فى تحامله على الثورة الفرنسية، ولكن كيف يكون قتل (سُدس) سكان فرنسا عملا جيدا؟».

(١٩)

وتحظى المهنة الطبية ممارسة وتعليمًا باهتمام بالغ من الدكتور مصطفى الرفاعى صاحب هذه الذكريات، وإذا كان لابد لنا أن نعرض نموذجًا لحديثه فى هذا الصدد فإننا نعرض ما يرويه من تجربته التعليمية المبكرة فى كلية طب طنطا حيث أتيح له وهو أستاذ للجراحة أن يتولى تدريس علم التشريح وعلم الأجنة لطلاب السنة الأولى، وقد نجح فى هذا العمل الجليل نجاحًا بالغًا، كما سعد هو نفسه بهذا النجاح حين تبلور بعد سنوات فى حديث أحد أساتذة طب طنطا الذى روى له كيف أن «مذكرته» فى علم الأجنة لا تزال تحظى بإقبال الطلبة، ومن العجيب أن الدكتور الرفاعى لا يتحفظ على هذا الوضع الاستثنائى الذى حظيت به مذكرته، بينما كان الأولى به على نحو ما تعلمنا أن يشير إلى ضرورة أن يحصل الطلاب على العلم من مصادره لا من مثل هذه المذكرات:

«أنشئت كلية طب طنطا سنة ١٩٦٣، وكانت تتبع جامعة الإسكندرية، بدأت الدراسة فى السنة الأولى سنة ١٩٦٤، ولم يكن هناك عدد كاف من أعضاء هيئة التدريس فى قسم التشريح، كما لم يكن هناك طلبة قدامى لكى يساعدوا المستجدين كما يحدث دائما».

«انتدب أستاذنا الدكتور يوسف الأعسر لإعطاء المحاضرات ثلاثة أيام في الأسبوع، وكان مقيما بالقاهرة بعد انتهاء خدمته بجامعة الإسكندرية».

«كما انتدب الأستاذ الدكتور إدوارد مينا أستاذ التشريح بطب الإسكندرية.. وكان بالقسم معيد واحد.. لم يكن ذلك كافيا، فقام عميد الكلية الأستاذ الدكتور لطفي بيومي بانتداب عدد من الأطباء للمساعدة في تدريس التشريح، فانتدبني لذلك، كما انتدب الزملاء: دكتور عمر البسيوني، ودكتور محمد غزالي، ودكتور عبدالحي مشهور، ودكتور حسن مصطفى».

«سعدت جدا بهذا العمل، فأنا أعتبر علم التشريح هو أساس علم الجراحة، ولم أقتنع مطلقا بالإقلال من حجم دراسته، وكان أستاذنا الدكتور يوسف الأعسر يقول: «إن أية معلومة ولو كانت بسيطة في علم التشريح سوف يحتاج لها الجراح يوما ما في أثناء إجراء جراحة».

«وقد تأكدت لي هذه الحقيقة خلال سنوات العمل الطويلة، إذ كيف يسير إنسان في طرق ملتوية بدون أن يعرف دقائقها!».

«كانت هذه هي الدفعة الأولى، وكان الطلبة يشعرون بعدم توافر الإمكانات التي توجد في الجامعات العريقة، فضاعفوا من جهدهم كما ضاعفنا نحن من جهدنا حتى بلغ المستوى العلمي للطلبة مستوى مشرفا».

....

«من جهتى قمت أيضا بتدريس علم الأجنة «Embryology »، وكنت أعطى محاضرة أسبوعيا بعد الظهر، وقلّما كان يتخلف أحد الطلبة عن الحضور».

«وكنت أصنع نماذج ملونة من الورق المقوى للمساعدة على شرح التطور الجنينى. مرت سنوات بعد هذه الحقبة وتقابلت مع الأستاذ الدكتور (محمد) نور الدين أستاذ التشريح فى جامعة الأزهر، وكنا نمتحن طلبة التشريح سويا فى طب الإسكندرية فأخبرنى بما أثلج صدرى وقال: «إن الدفعة الأولى فى طب طنطا كانت أحسن دفعة فى التشريح فى الجامعات المصرية، وقد سجلنا ذلك نحن الممتحنين فى سجلات الكلية فى حينه».

. . . .

«أخبرنى الأستاذ الدكتور شريف لطفى بيومى أستاذ الباثولوجيا بطب طنطا، بأنه رأى طلبة الكلية يتبادلون مذكرات الدكتور مصطفى الرفاعى فى علم الأجنة، وكان بعض الطلبة قد قاموا بطبع محاضراتى التى ألقيتها سنة ١٩٦٤ ولازالت هذه المحاضرات تتداول وقد مر على إلقائها ثلاثون عاما».

(٢٠)

ومن بين ممارسات الدكتور الرفاعى الإكلينيكية التى يحدثنا عنها كجراح للمسالك البولية، فإنى أفضل أن أنقل للقارئ هذه التجربة الحافلة بالحديث عن بعض تجاربنا «الشعبية» التى لانزال نعانى من آثارها السلبية وهى مغامرة التسطيح على القطارات:

«إن هيئة السكك الحديدية المصرية من أعرق مصالح السكك الحديدية فى العالم».

«فقد أنشأ عباس الأول(١٨٥٢ ـ ١٨٥٦) ثانى خط فى العالم بين القاهرة والإسكندرية بعد انجلترا، قبل أوروبا وقبل أمريكا، فلما حكم الخديو إسماعيل مد ١٠٠٠ (ألف)ميل من السكك الحديدية فى مصر».

«ولا تزال السكك الحديدية المصرية تقوم بخدمات جليلة، وقد تحسن الحال فى السنوات القليلة الماضية».

«ولكن إذا نظرت إلى قطار أبى قير وجدت مئات من الناس يقفون على السلالم وعلى القاطرة ـ أطفال وطلبة ورجال ـ وهم متشبثون فى مواقعهم بمهارة، ولكن الأمر لا يسلم أحيانا، وعندما يسقط أحد الأطفال فغالبا ما يصاب، ضمن ما يصاب به، بكسر فى الحوض العظمى وقطع فى مجرى البول الخلفى، وهى إصابة خطيرة من الصعب إصلاحها».

«ولكثرة هذه الإصابات وخصوصا فى الأطفال، كنت قد أجريت عمليات كثيرة لإصلاح هذه الإصابة».

«ألقيت محاضرة عن إصلاح هذه الحالات فى جامعة ميونيخ سنة ١٩٨٦، تعجَّب الأستاذ الألمانى: «لم نر إلا حالة واحدة فى الثلاث سنوات الماضية» ما الذى يكسر هذا العدد من الأطفال؟!».

- «إنهم أطفال أشقياء يتسلقونَّ الأشجار ويسقطون من فوقها».

«لم أستطع أن أقول إنهم يتسلقون القطار».

....

«وفى مساء اليوم نفسه قالت لى إحدى الطبيبات إنها زارت مصر وأعجبت بها، ولكنها لاحظت أن كثيرًا من الناس يركبون فوق القطارات، إحراج، ولكنها ربما فسرت لهم هذا العدد الضخم من الإصابات».

«سألنى دكتور دونالد سميث ـ وهو أستاذ أمريكى زائر من سان فرنسيسكو كان يعمل فى قسمنا ـ عن هؤلاء الجنود الذين يركبون فوق القطار، تصدى أحد النواب بالقسم للرد عليه:

- «إنهم أفراد من الكوماندوز يتدربون».

- «حسنا، ولكن لماذا يغنون ويرقصون».

- «زيادة فى تحديهم للخطر».

....

وسرعان ما يعلق الدكتور مصطفى الرفاعى قائلا:

«ولا أعتقد أن الأستاذ سميث قد صدقه، لا أنسى منظر جندى فصلت رقبته من جسمه فوق القطار وكان الدم يتساقط على زجاج النافذة بجوارى، فحمل الناس جثمانه ووضعوه على رصيف محطة بنها وغطوه بالجرائد».

«وجندى آخر كسرت ساقه أمامى وهو يقفز من فوق القطار فى المحلة الكبرى فحمله الأهالى وربطوا ساقه حتى يحضر رجال الإسعاف».

«هل يوجد نظير لهذا الوضع فى أى مكان فى العالم، لا أعتقد؟».

□

وقريب من هذا الشعور الإنسانى المختلط بممارسة المهنة الطبية، ما نجده فى حديث صاحب الخواطر عن سكن المقابر حيث يقول:

«لم يخطر ببال فيلسوف المعرة أن التزاحم فى القبور سيكون من نصيب الأحياء أيضا. ولو كان المعرى يعيش بيننا الآن ربما كان سيقول:

«رب لحد قد صار مأوى لحىّ   ضاحك من تزاحم الأضداد»

(٢١)

وفى الحقيقة فإن الدكتور مصطفى الرفاعى قد نجح نجاحا بالغا فى وصف كثير من معاناته الإنسانية فى مهنته، ولكنه قصر فى أن يوفى المعاناة النفسية العميقة حقها الذى وفاه حينما تناول المعاناة العقلية فى ممارسة المهنة، وقد كان فى وسع الدكتور الرفاعى أن ينمى فكرة مهمة وردت بصفة عارضة فى خواطره حين تحدث تحت عنوان «أحلام اليقظة» عن بعض المعاناة التى نكابدها جميعا فقال:

«وهذه الأحلام تراود الإنسان وهو بين النوم واليقظة».

«عجيب أمر هذا المخ البشرى، فهو يعمل بلا كلل حتى فى أثناء النوم يعيش فى أحلام سعيدة أو مزعجة».

....

«الليلة التى تسبق إجراء جراحة كبيرة لمريض، يكون نومى قلقا بعض الشيء، كالقائد الذى يكلَّف بعملية حربية أو بوليسية، فهذه معركة ضد العدو، وهذه معركة ضد المرض. وكثيرا ما تنتابنى أحلام اليقظة فأصحح بعض خطط العملية، ولا ألبث أن أترك الفراش وأضىء الحجرة ثم أدون هذه الأفكار، وربما فتحت دولاب الآلات فأضيف آلات إلي حقيبة الآلات التى سأحملها فى الصباح».

«أما فترة ما بعد العملية فلا تزال هذه الأحلام تراودنى فيتكرر نفس الشيء وأكتب خطط العلاج، وكثيرا ما أتصل بالطبيب المقيم وأوقظه لكى يعدِّل فى العلاج، هل يعلم المريض كم يقاسى الطبيب من أجله؟».

. . . .

. . . .

. . . .

«ويتكرر نفس الشيء عند كتابة مقالة علمية، فهى حصيلة سنوات من العمل الجاد والبحث والتسجيل».

«والمقالة المكتوبة بدقة وأمانة هى عملية شاقة مجهدة، أحيانا تأتى لى بعض الأفكار فى أحلام اليقظة فأترك الفراش وأدون الملاحظات خشية أن أنساها فى الصباح».

«ما أعجب المخ البشرى الذى يفكر ويخطط بكفاءة فى أحلام اليقظة أكثر منها أحيانا فى حالة اليقظة».

(٢٢)

بقى أن نتحدث عن نموذج للمفارقات الطريفة التى يقدمها صاحب هذه الخواطر نجتزئ بقصة المصرى اليهودى زكى شالوم زميل دراسته فى الزقازيق الثانوية، وقد عيّن بعد ١٩٦٧ حاكما لغزة وسيناء من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلية، فما كان منه ـ رغم هذا الموقع القيادى فى السلطة الإسرائيلية ـ إلا أن أحسن معاملة الأسرى المصريين من أبناء الشرقية لأنهم بلدياته، وكلّفهم بأن ينقلوا تحياته لبلدياته القديم محمود العسال، وأصبح محمود العسال بسبب هذا الموقف بمثابة الشخص المرعوب من هذا التصرف وذلك على الرغم من أن العسال نفسه كان فى شبابه مثال الشقاوة البريئة:

«زكى شالوم.. يهودى من أبناء الزقازيق.. صديق حميم لمحمود العسال، تعرفنا عليه وكان فى محنة».

«هربت أخته إلى فرنسا واعتنقت المسيحية وكانت فى القسم الداخلى فى مدرسة فرنسية فى القاهرة بها راهبات، وكان يقال إنها دخلت الدير فى فرنسا».

....

«وكان والده شالوم الباز رجلا فارع الطول، ضخم البنيان، أحمر الوجه، يلبس جلبابا وطربوشا، وكان يبكى على ابنته، وقد تعاطف معه كل الناس، ولكن ابنته لم تعد ولم يعرف لها مكانا».

«وشالوم كان يمتلك صيدلية كبيرة وكان على درجة كبيرة من الثراء، وزكى صديقنا كان شخصية محبوبة وكان يرأس ناديا متواضعا للألعاب الرياضية، وكنا نحن أعضاء فى هذا النادى».

«وزكى كان يمتلك عربة فارهة «تيجوا تتفسحوا فى مصر» طبعا ونعود فى المساء».

«ومات شالوم بدون أن يرى ابنته».

....

«استمرت علاقتنا بزكى بعد أن دخلنا الجامعة».

«وتأتى حرب فلسطين، فيبيع الصيدلية ويعيش فى القاهرة ويعمل مندوب دعاية لإحدى شركات الأدوية ويزورنى مرارا فى الإسكندرية للدعاية والصداقة، ثم اختفى فجأة فى منتصف الخمسينيات».

«فين زكى يامحمود؟ «لا أعرف له مكان».

«يقال إنه ذهب إلى فرنسا للبحث عن أخته، ويقال إنه هاجر إلى إسرائيل».

....

....

«وتمر السنون وتأتى هزيمة ١٩٦٧ التى هزت مصر كلها».

«راديو إسرائيل يبث سمومه».

«أبشروا أيها المصريون قد عينا لكم حاكما لغزة وسينا، مصرى مثلكم، زكى شالوم من الزقازيق، أخيرا ظهر زكى!».

«وبعد عدة أسابيع فوجئت بمحمود العسال يدخل علىّ وهو فى حالة هلع وخوف».

«هل سمعت عن زكى شالوم حاكم غزة، هذا النذل «عايز يودينى فى داهية»، لقد حضر إلى منزلى بالزقازيق بعض جنودنا الذين كانوا أسرى فى إسرائيل، أطلق زكى سراحهم «ماحدش يزعل دول، أعطوهم كل متعلقاتهم، دول بلدياتى من الشرقية».

«السلام أمانة، سلموا على حبيبى محمود العسال بكفر النحّال بشارع الغندور بالزقازيق».

«شوف ابن. . . يخونه العيش والملح، عاوز يخرب بيتى الله يخرب بيته».

«سأكلم إبراهيم الطحاوى «زميلنا وكان من الضباط الأحرار» وأشرح له الوضع».

«فاكر لما كانوا حيمسكونى فى جنازة النحاس باشا»، أنا سأختفى عندك ولن أذهب إلى الزقازيق مطلقا حتى لا أقابل هؤلاء الملاعين، ونبهت على أشقائى ألا يذكروا شيئا عن مكانى».

. . . .

ثم يعقب الدكتور مصطفى الرفاعى على هذه المفارقة التى يرويها بقوله:

- «فضحكت كثيرا».

- «وبتضحك كمان!».

«طبعا أضحك.. لا تخش شيئا.. زكى إنسان طيب وأصيل تربى فى مصر وهو لا ينسى العشرة، والظروف السياسية أجبرته على الهجرة.. وبعد عدة شهور عزل اليهود زكى شالوم لتعاطفه مع المصريين».

الباب الثالث

قصة حياتى

مذكرات الدكتور مصطفى الديوانى

(١)

للدكتور مصطفى الديوانى مكانة كبيرة بين أساتذة طب الأطفال فى مصر والعالم العربى ، وقد امتدت ريادته لهذا التخصص لفترات طويلة ، وقد حظى بالحظ الذى حفظ عليه أستاذيته فى قصر العينى ، وفى كليات الطب المصرية بالتالى ، دون أن يخرج إلى الحياة العامة، ودون أن يفرط فى حقوق الأستاذية. وهو، بلا جدال، أنجب تلاميذ أستاذه الدكتور إبراهيم شوقى الذى كان رئيسا لقسم الأطفال ومديرا لجامعة القاهرة ووزيرا للصحة، وقد تبناه هذا الأستاذ ودفع به إلى مدارج الرقى فى الكادر الجامعى، واستحوذ الدكتور الديوانى على مكانة متقدمة بين أطباء عصره علما وممارسة ، وكان صاحب قلم يعبر به عن خواطره على الدوام، وقد مكّنه علمه وطبه وقلمه من أن يحظى بمكانة اجتماعية واضحة، و بتأثير سياسى ونفوذ فكرى، كما مكّن قلمه لكتاباته ولأفكاره أن تجد سبيلها إلى حيّز الوجود، وعلى سبيل المثال فقد تبنى الدكتور الديوانى قضية مكافحة مرض شلل الأطفال، وقد ظل يكتب فيها وينشر آراءه حتى تبنت الدولة آراءه وحتى أصبح «الطعم» متاحا ثم

واسع الانتشار والاستعمال ثم إجباريا، كما أصبح هناك معهد متخصص لشلل الأطفال.

وقد كان تأثيـر الدكتور الديوانى فى تلاميذه كبيراً، وقد وصل ثلاثة من تلاميـذه المباشـرين إلى مـوقع الوزارة وهم: النبـوى المـهندس (١٩٦١- ١٩٦٨)، وممدوح جبـر (١٩٧٨ - ١٩٨٠)، وحسين كامل بهاء الدين (١٩٩١ - ٢٠٠٤)، وكانت علاقته بثلاثتهم وبغيرهم علاقة أبوية ذات أبعاد متعددة.

وبالإضـافة إلى هذا كـانت للديوانى صـلات نسب وقرابة بعـدد من الوزراء المهـمين فى عهـد الثورة، منهم الدكاترة: أحـمد فؤاد مـحيى الدين، وإبراهيم بدران، وعثمان عدلى بدران، ومصطفى الرفاعى.

وهكذا كان تأثيره وحضوره دائما ومتصلا.

وفضـلا عن هذا كله فإن للدكتـور الديوانى ابنا متـميزاً هو الدكـتور خليل مصطفى الديوانى، عـمل أستاذا لطب الأطفـال وترأس قسم طب الأطفال فى كليـة طب الأزهر بنين، وكانت له ـ شـأنه شأن أبيـه وربما أكثر من والـده ـ قدرات أدبية وسياسـية وفنية عاليـة مكّنته من أن يكون دائماً من حملة مشاعل الرأى والتنوير فى المجالين الطبى والثقافى على حد سواء.

تخـرج الدكـتـور مـصطفى الديوانى فى كليـة طب قـصـر العـينى (١٩٢٩)، ودرس فى انجلتـرا حتى نال عـضوية الكـلية الملكيـة بلندن

وجلاسجو، وعاد فعمل فى هيئة التدريس إلى أن أصبح أستاذا للكرسى ورئيسا لقسم الأطفال (يناير ١٩٥١)، ومديرا لمستشفى أبو الريش (١٩٥٨). وقد ذاع صيته كطبيب أطفال، ونال شهرة واسعة، ومثل بلاده فى كثير من المؤتمرات الدولية، وكتب انطباعاته عن رحلاته فى كثير من المواضع.

على الصعيد العلمى نجح الدكتور الديوانى فى وصف عظمة القص فى الأطفال وتشريحها، ونشر أبحاثا عديدة فى سوء التغذية وأمراض الأطفال، ونال كثيرا من التقدير الدولى والمحلى. وقد رأس اتحاد أطباء الأطفال فى الشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض المتوسط (١٩٦٦)، ونال زمالة كلية الجراحين الفخرية بأدنبرة (١٩٦٥)، ومنح وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى (١٩٦٨)، ونال جائزة الدولة التقديرية (١٩٨٣)، واختير أمينا للمجلس الأعلى للطفولة (١٩٨٠).

من مؤلفات الدكتور الديوانى المنشورة كتابه «حياتى» وهو الترجمة الذاتية التى نتدارسها فى هذا الباب، و«عزيز الذكريات» و«حديث الطب» و«نابليون على فراش الموت»، بالإضافة إلى كتاب عن «شلل الأطفال».

وقد كان الدكتور الديوانى من المجيدين والرواد فى تقديم الثقافة العلمية والطبية فى عبارة جميلة وصور أخاذة وتناول سهل محبب، كذلك كان الدكتور الديوانى من كتاب مجلة «الثقافة» وغيرها من المجلات الثقافية الأخرى.

وقد صدرت مذكرات الدكتور الديوانى بعنوان «قصة حياتى» عام ١٩٦٥ فى كتاب يقع فى ٣٨٢ صفحة، نشرته دار النهضة المصرية، ومن الإنصاف أن نُشير إلى أن هذا الكتاب قد نُشر فى عصر لم تكن للمذكرات فيه سوق رائجة، كما أن صاحبه لم يعن بأن يفرضه على الناس فرضاً، ولا أن يقدمه للجمهور على نحو ملح، وهكذا ظل هذا الكتاب أقل شهرة من صاحبه ذى الجاه العريض.

وقد حاول الدكتور الديوانى فى مراحل لاحقة أن يكمل هذا الكتاب من خلال متفرقات كثيرة نشرها فى مواضع متعددة، إلا أنه لم يُعن بأن يعيد ضم هذا كله فى كتاب واحد.

(٢)

يعترف الدكتور الديوانى فى ذكاء بأنه لم يستطع كتابة كل شىء، فى قصة حياته، لهذا فإنه يذكر فى مقدمته لمذكراته أن هذا الكتاب هو نصف حياته فقط، فإذا علمنا أن الكتاب قد طبع عام ١٩٦٥، وأن المقدمة قد كتبت فى أول مارس ١٩٦٥، وأن الديوانى عاش بعد هذا أكثر من عشرين عاما، فإنه يمكن لنا أن نقول إن الكتاب لا يمثل إذاً على طريقة الدكتور الديوانى فى الحساب إلا ربع حياته فحسب:

«لقد سردت فى هذه الصفحات ما يكفى لتغطية مراحل أى حياة، ولكنى لازلت أشعر أن هناك فراغات هائلة لم تُملأ بعد، وقد يكون فراقنا عند الصفحة الأخيرة من كتابى وداعا إلى لقاء، لأن ما كتبته لكم ليس حياتى كلها.. إنه نصف حياتى!»

. . . .

ويبدو أن الدكتور مصطفى الديوانى كان واعياً منذ مرحلة مبكرة من حياته لأهمية تسجيل وتدوين الملاحظات، وهو يذكر أنه كان يعنى بهذه الانطباعات فى الرحلات خاصة حيث تتوالى اللوحات بسرعة خاطفة لابد من تسجيلها قبل أن يضيع أثرها فى النفس، كما أنه كان يرى أن تسجيل مثل هذه الانطباعات بمثابة واجب نفسى وشخصى ووطنى:

«إن تدوين الانطباعات على النفس خلال الرحلات وتصوير اللوحات التى تتوالى بسرعة خاطفة كما لو كانت أشباحا على مرآة يجعل للسفر قيمة ولذة، أما الذى يسافر ويعود ولا يرى ولا يسمع إلا نفسه ففى اعتقادى أنه مقصر فى حق نفسه، وحق وطنه».

(٣)

لعل أهم ما فى هذه المذكرات على المستوى القومى وعلى المستوى الشخصى على حد سواء، هو رواية تجربة صاحبها مع مرض شلل الأطفال، ومن العجيب أن هذا الرجل قد عاصر صعود هذا المرض وبدء انحساره فى مصر، فقد كان هذا المرض نادراً فى مصر فى بداية ممارسته لمهنة طب الأطفال، ثم انتشر ، ثم ازداد فى الانتشار ثم بدأ فى الانحسار بفضل الوعى الصحى وبفضل طعم سالك ثم طعم سابين، ومن حسن الحظ أن الدكتور الديوانى يقدم معلوماته التاريخية فى إطار متسلسل مدعم بالإحصاءات، وهو يروى تجربة مهنية شخصية وعامة فيقول:

«. . . أذكر عندما كنت نائبا بقسم الأطفال فى مستشفى قصر العينى [كان الدكتور الديوانى نائبا فى النصف الأول من ثلاثينيات القرن العشرين]، أن أستاذى المرحوم الدكتور إبراهيم شوقى كان يوصينى أن

أفتش عن حالة شلل أطفال ليعطى عليـها درسا للطلبة، فكنت أجد فى البحث لمدة شهـر فى العيادة الخارجية قبل أن أعـثر على حالة واحدة، وهذا دليل كـاف على ندرته، فـفى خـلال عـام ١٩٣٩ لم يتـردد على العيادة الخارجية المكتظة أكـثر من ٣٠ حالة. ثم جاءت الحرب الكبرى وامتـلأت البلاد بجنود الحلفاء ومن بينهم كـثيرون من حاملى جـرثومة الشلل، خـاصة الأمريكان منهم، فـقد كـان المرض وبائيـا حتى ذلك الحين فى الولايات المتحدة، فأخذ الرقم يرتفع رويدا رويدا حتى وصل إلى ٨٨٩ حالة فى قسم الأطفال بقصـر العينى، وإذا تخيلنا أن مثل هذا العـدد قد تردد على العـيادات الأخـرى لوصل العدد إلى ١٨٠٠ حـالة وأصبحت نسـبة الإصابة عندنا تتعـدى نسبة الولايات المتـحدة فى أشد السنين ذعرا لديها بين عامى ١٩٣٢ و١٩٤٦ قـبل اكتشاف الطعم الواقى حين كانت الـنسبة هناك ٧,٢٦ حالة لكل مـائة ألف من السكان، بينما بلغت عندنا ٩ حالات لكل مائة ألف حالة من السكان!!».

«واشتدت حدة الوباء فبلغ عدد الإصابات بمعهد شلل الأطفال التابع لجامـعة القاهرة، الذى أتشرف بإدارته، ١٤٧٦ حـالة فى عام ١٩٥٧، و٢٠٣١ حالة فى عام ١٩٥٨، و٢٥٤٨ حـالة فى عام ١٩٥٩، و٢٤٤٣ حـالة فى عـام ١٩٦٠، ثم أخذت الحـالات تقل إلى ١٦٦٨ فى عـام ١٩٦١، عندما بدأ استعـمال الطعم الواقى عن طريق الحقن «سولك»، ثم زُفت البشرى بأن الرقم هوى إلى ١٣٧١ حـالة فى عام ١٩٦٢ عندما بدئ فى تعميم طعم الفم «سابين» ويالها من بشرى!».

. . . .

وعند هذا الحـد يصل الدكتـور الديوانى إلى المـقارنة بين الأوضـاع المأساوية لمرض شلل الأطفال وبين «الأوضاع الجديدة» فى البلاد التى تمكنت من التخلص من هذا المـرض، ضارباً الأمثلة بإحصاءات دقـيقة عن محـدودية انتشـار المرض فى الولايات المـتحدة وبريطـانيا والدول الاسكندنافية:

«إن ظهور إصـابتين فى بريطانيا بأكملهـا من أقصاها إلي أقصـاها قد تسببت فى مـشكلة قومية فى العام الماضى وأجـريت بسببهما تحـقيقات عديدة لتلافى هذا مستقبـلا! وفى الولايات المتحدة كان ظهور ٢٥ حالة فى العام الماضى موضع استغراب وأسى!! ولم تظهر حالة واحدة خلال السنوات الخمس الأخيرة فى البلاد الاسكندنافية، وترجع هذه الندرة إلى عوامل شتى، أولها نضج الوعى الصحى بين أفراد الشعب، فهم يأخذون أطفالهم فى الأعمار والمواعيـد التى تحددها الدولة إلى مراكز التطعيم، ويدركون عظم المسئولية الملقاة على كاهلهم إزاء فلذات أكبادهم».

(٤)

ويحـرص الدكتـور الديوانى على الاعـتـراف بالفـضل للدور الذى ساعدته به الصحافة المصرية فى تصديه لهذا المرض، وفى بنائه للوعى الصحى الذى كـان من أسباب نجاح سـياسات مـقاومة انتشـار المرض الوباء فى مصر. وهو حريص فى مذكراته على أن يذكـرنا بفقرات كتبها ونشرها فى «الأهرام» عام ١٩٥٦:

«وكـانت جريدة «الأهرام» هى منبـرى طوال أيام كـفاحى ضـد هذه الجرثومة اللعينة، وفتحت لى صـدرها فى ترحاب عجيب فعندما عُدت من كوبنهاجن فى عام ١٩٥٦ كتبتُ أقول:

«عندما كنت فى كوبنهاجن فى شـهر أغسطس ١٩٥٦ فى أثناء انعقاد المؤتمـر الدولى الثامن لأمـراض الأطفال، اسـترعت نظرى اللافـتات المنتشرة فى كل مكان فى الترام، وفى الأتوبيس، والشوارع العامة وفيها إعلان للجـمهور أن يتـوجه كل مَنْ لم يتـجاوز سنه الأربعين عـاما إلى أقـرب مكتب صحـة ليـحقن بالطعم المـضـاد لمرض شلل الأطفـال، فـعجـبت للشوط الـبعـيد الذى قطعـه هؤلاء القـوم فى ميـدان الطب الوقائى».

«فهم قد بدأوا فى تطـعيم الأطفال بين السنتين الأولى والخـامسة،ثم زحفوا فـى سبل الوقاية من شلل الأطفال نحـو مختلف الأعمـار حتى وصلوا إلى سن الأربعـين، وهـم يأملون الوصول إلى سـن الستيـن عام ١٩٥٧، أى أن كل مـواطن فى الدنمارك سـيـصبح فى مـأمن من هذا المرض الوبيل، كل هذا ونحن نغط فى سبات عميق!!».

□

وقد ضّمن الدكتور الديوانى مقالاته هذه دعوة صريحة لوزارة الصحة أن تقبل استعمال الطعم الواقى من الشركة التى أبدت استعدادها لتوريده لمصر، ومن الطريف أننا نرى الـدكتور الديوانى فى ذلك الوقت (الذى

ليس ببعيد) يقوم بهذه الدعوة بكل الوضوح والصراحة والثقة وباطمئنان نفسى إلى واجبه فى مثل هذه الدعوة، ولنا أن نقارن هذا الجيل من الأطباء وأدائه بما نراه الآن من جو ملوث أصبح بسبب الممارسات الخاطئة يشك تلقائياً فى علاقات الأطباء بشركات الأدوية إلى أقصى حدود الشك..

ولنقرأ ما كتبه الدكتور الديوانى [باطمئنان !!] قبل أقل من نصف قرن:

«... والشركة التى أبدت استعدادها لإحضار الطعم الواقى لإنقاذ الطفل المصرى شركة كبيرة مضمونة تحافظ على سمعتها العالمية، ورغم أن الاتجاه العلمى هو تجربته فإنى أناشد وزير الصحة الدكتور نور الدين طراف - وهو الثورى الذى أعرفه - أن يعمم استعماله دون تجربته، فقد نضج وثبتت أقدامه، وأن يصدر قانونا يجعل التطعيم إجباريا لجميع أطفال القطر المصرى الذين تتراوح أعمارهم بين الشهر السادس والثانى عشر، وقد أثبتت التجارب أنه لا ضرر من حقنه فى نفس الحقبة من العمر التى يحقن الطفل فيها ضد الدفتريا والسعال الديكى، أو حتى فى الوقت نفسه... ولو رأى زملائى أقطاب الطب الوقائى فى مصر ما أراه يوميا فى مآسى هذا المرضى الوبيل، لضموا أصواتهم إلى صوتى ورحبوا بعرض هذه الشركة الكبيرة وكتبوا بخطوط عريضة تاريخا جديدا فى سبيل صحة الطفل المصرى».

(٥)

ويقرن الدكتور الديوانى تقديمه لهذه اللمحات من جهوده فى التوعية الصحية على مستوى المسئولين فى الوزارة وفى الطب الوقائى برواية بعض ملامح تطور الأحداث وأثرها على اتباع مصر لسياسات التطعيم ضد شلل الأطفال، وهو يروى أنه بدأ فى العام التالى يستحث الحكومة المصرية، وأنه فى سبيل هذا الحث بدأ يطلع الرأى العام على الجهود الناجحة التى بدأتها إسرائيل ودلائل نجاح هذه الجهود:

«ثم حالت ظروف الاعتداء الثلاثى الغاشم عام ١٩٥٦ دون اتخاذ خطوات إيجابية فى هذا السبيل».

«وكان صيف عام ١٩٥٧ فاصلا فى المعركة، فقد سافرت إلى جنيف لحضور مؤتمر شلل الأطفال الدولى الرابع، ووضعت النقط فوق الحروف عندما كتبت هذه اليوميات فى جريدة «الأهرام» بتاريخ ٨ أغسطس ١٩٥٧».

«. . . كان مندوب إسرائيل يباهى فى تواضع أنهم أنشأوا معملا لإنتاج الطعم المضاد لشلل الأطفال، وقد بدأ إنتاجه منذ شهر يونيو سنة ١٩٥٦، وأمكنهم - بفضل إنتاجه مضافا إليه ما يستورد من الولايات المتحدة - من تطعيم ٩٨ فى المائة من الأطفال بحقنة واحدة، و٨٥ فى المائة من الأطفال بحقنتين، فقل عدد الإصابات إلى ١٣ إصابة خلال عام بعد أن كان يتجاوز الألفين سنويا».

ويروى الدكتور الديوانى قصة مقابلة لأعضاء وفد مصر (وهو يسميه كما هو الحال فى تلك الأيام بالوفد العربى) مع العالم الكبير سابين الذى اخترع الطعم، وكيف أن هذا الرجل قد أبدى عجبه من تأخر إفادة مصر من طعمه، ولا ينسى الدكتور الديوانى الإشارة إلى علاقة هذا العالم بمصر حين أجرى بعض بحوثه فى القاهرة سنة ١٩٤٣، ونحن لا نملك بعد مطالعة كل هذه الفقرات إلا تسجيل الإعجاب بأسلوب الديوانى الهادئ فى حث الحكومة تدريجياً على تبنى سياسة وقائية على نحو ما حدث بالفعل:

«... وتقابل أعضاء الوفد العربى مصادفة مع سابين فى فترة الاستراحة، فأخذ يستعيد ذكرياته عن القاهرة عندما زارها سنة ١٩٤٣، وقام بأبحاث فيها، أخذ يعددها لنا الواحد بعد الآخر، وقال: إنه كان يقطن فى شارع فاروق،وقال له أحدنا: إن طعم سابين يُجرب الآن فى مصر، فما كاد يسمع كلمة (يُجرب) حتى انحنى عليه متسائلا: ماذا تقول؟ يُجرب؟ اذهب ياعزيزى إلى بلادك وقل لأولى الأمر أن يطعموا به كل مصرى دون خوف أو تردد، ألم تقنعك كل هذه الأرقام خاصة أن البلاد التى عمم فيها تتشابه مع مصر من حيث الجو والمستوى الصحى».

(٦)

ولا يكثر الدكتور الديوانى من الحديث فى المذكرات عن إنجازاته العلمية، لكنه مع هذا لا يفوّت فرصة الحديث عن هذه الإنجازات،

وسنقتطف للقارئ الفقرة التى يبدى فيها اعتزازه الشديد بإنجازاته فى قيادة فريق بحثى فى قسم الأطفال بقصر العينى إلى اكتشاف فصيلة من فصائل الثالاسيميا:

«...... وكان مرض كولى أو مرض الثلاسيميا كما يسمونه الآن، من المواضيع التى عقدت لأجلها ثلاث جلسات مهمة، وكان البحث الذى ألقيته عن حدوث هذا المرض بمصر مثار مناقشة، فقد علق عليه الأستاذ ليهمان وهو من أكبر إخصائيى العالم فى أنواع الهيموجلوبين الشاذة، بأنه يشهد بأن الفصيلة التى وجدت بمصر والتى أجرى أبحاثها قسم الأطفال بالاشتراك مع هيئة النامرو الأمريكية لم يسبق وصفها، وإذا ثبت له هذا فسوف يسميها فصيلة القاهرة أو الإسكندرية، وقد سبق أن سُميت فصيلة باسم همبورج، وأخرى باسم بارث نسبة إلى مستشفى سانت بارث بلندن، الذى كان يعمل فيه الأستاذ ليهمان».

....

ولا يبخل الدكتور الديوانى فى مذكراته بكثير من الخبرات الطبية التى يقدمها عن حب للاحقين من تلاميذه وأبنائه بعدما اكتسبها على مدى سنوات ممارسته، ومن أهم اللقطات التى تجيد تصوير طبيعة هذه الخبرات تلك اللقطة التى يحكى بها عن توجيه أستاذه الدكتور إبراهيم شوقى له فى أول عهده وهو طبيب امتياز مندفع إلى وصف المصل المضاد للدوسنتاريا لكل طفل يشكو من دم ومخاط فى البراز، وهو يجيد تصوير نصح أستاذه له وتوجيهه، ويعترف بأنه كان يصف المصل لثلاثة أضعاف مَنْ يحتاجون إلى ذلك المصل بالفعل:

«. . . عندما كنت طبيب امتياز بقسم الأطفال، كنت أصف المصل المضاد للدوسنتاريا لكل طفل تقول لى أمه إن ببرازه دما ومخاطا، ولم يكن فى تلك الأيام الخوالى مركبات السلفا أو غيرها من الاكتشافات الحديثة، وكان المصل غالى الثمن، وكانت هناك على الأقل خمسون حالة من هذا النوع فى كل عيادة خارجية، وهال الدكتور شوقى هذا العدد الهائل من الحقن الغالية الثمن، فجلس بجانبى ذات يوم وأنا أشتغل بالعيادة الخارجية وقال لى: تذكر أن وجود الدم فى البراز فى كثير من هذه الحالات قد ينتج عن سقوط الشرج فى حالات الإسهال العادى نتيجة الحزق والتعنى، وفى مثل هذه الحالة لا داعى لحقن الطفل بالمصل المضاد للدوسنتاريا، واستمعت إلى نصيحته وأخذت أسأل كل أم ببراز طفلها دم أو مخاط إذا كان سقوط الشرج أحد ظواهر المرض، فكان الجواب نعم فى ثلثى الحالات، أى أن الحالة تبدأ كإسهال عادى فإذا ما اشتد الحزق وزاد ضعف الطفل من شدة الإرهاق سقط الشرج طائعا مختارا، ومع سقوطه يظهر الدم فى البراز».

(٧)

ويحاول الدكتور الديوانى بالحس الإكلينيكى لطبيب الأطفال أن يسترجع ما وعته ذاكرته عن إصابته هو نفسه بحمى التيفود، ونحن ندرك مدى صعوبة تشخيص ذلك المرض فى ذلك الوقت مما يرويه من الحاجة إلى طبيبين كبيرين، وإلى فحص دقيق، ومن وجود حمى وخطرفتها، وعناية أسرية متواصلة. . . ونلمح فى حديث الدكتور الديوانى بداية إعجابه الشديد بالدكتور سليمان عزمى:

«وأذكر أننى أصبت خلال الإجازة الصيفية لهذا العام بحمى التيفود، وكان يعودنى فى أثناء مرضى المرحوم الدكتور عبد العزيز نظمى طبيب الأطفال، والدكتور سليمان عزمى، مد الله فى عمره، ولازلت أذكر مظهره الأنيق وجو الثقة الذى كان يبعثه فى نفس المريض وأهله، وأذكر أنه جاء ليعودنى ذات ليلة مع الدكتور نظمى وكانت الحمى على أشدها، وكنت فى شبه غيبوبة، فطلب منى الدكتور نظمى أن أنام على ظهرى ليفحص بطنى فلم أدرك تماما فهم ما أراد منى عمله فنمت على جنبى الأيسر، فهمهم الدكتور سليمان عزمى قائلا: يا للمسكين، إنها خطرفة الحمى! وكانت تقوم على العناية بى فى أثناء مرضى أختى الكبرى المرحومة (إسعاد)، وكانت عطوفة حنونة لم تتركنى لحظة حتى أخذت بيدى فى طريق الشفاء».

(٨)

ويحاول الدكتور الديوانى فى كثير من المواضع فى مذكراته أن يستكنه الأسباب التى رفعته إلى القمة فى تخصصه، وهو يلجأ، من أجل هذا الغرض، إلى مقارنة سلوكه وسلوك زملائه فى هذا السبيل ويعيد تأمل الفروق الشخصية بينه وبين غيره من الزملاء، وهو على سبيل المثال يقارن بين سلوكه وسلوك زميله بول غليونجى من ناحية، وسلوك زميلهما خليل مظهر من ناحية أخرى، فيكتشف أن السلوك المنضبط لخليل مظهر كان وراء ما وصل إليه، لكن الدكتور الديوانى لا يجيد التعبير عن هذا المعنى الجميل بما يستحق من ألفاظ مقدرة ،

وإنما هو يحاول أن يعبر عنه بتلقائية فيقع ، من حيث لم يدر ، فى مظنة السخرية من سلوك زميله حين يصفه بأنه اهتمام بالقشور دون الجوهر، وهو لا يقصد هذا المعنى الأقل دقة وإنما يقصد معنى آخر واضحا من كلامه:

« . . . . وفى ذات يوم تعرفت بالطالب خليل مظهر أستاذ أمراض النساء والولادة الآن، وكان وافدا من المدرسة الخديوية، وكانت تبدو عليه مظاهر الطالب المعتنى به فى منزله روحيا وجسميا، ولما تعرفت على والده المربى الفاضل المرحوم يوسف مظهر وعلى والدته الكريمة عندما كنا نتردد على منزله بحى المنيرة، لم أعجب لخلقه الطيب ومظهره الحسن. كان رياضيا بطبيعته، دقيقا يتمسك بالتفاصيل فى سبيل الإتقان، ولما أراد أن يتعلم الرقص ونحن فى السنة الثالثة التحق بمدرسة خاصة وأتقن مختلف أنواعه على أصوله الفنية، وكنت أراه أحيانا راكبا الترام وهو بملابس السهرة السوداء عائدا من إحدى الحفلات، وقد وقف بجانب سائق الترام يستنشق النسيم بعد أن ينفث بدخان سيجارته فى الهواء. إذا قارنت هذا بما فعلته أنا وبول غليونجى عند محاولة تعلم الرقص، واعتمادنا المطلق على أذننا الموسيقية نوجه بها أجسامنا على نغمات موسيقية يطلقها حاك متواضع بمنزلى أو بمنزله، أدركنا مقدار تمسكه طوال حياته بالقشور والجوهر، وتمسكنا نحن الاثنين بالجوهر دون القشور، وكانت النتيجة واحدة وصل كل منا إلى القمة المنشودة فى فرع تخصصه، ولم يكن ذلك لمجرد مرور

الوقت أو الأسبقية، بل كانت وراء هذا أهوال ومتاعب لا يصمد إزاءها إلا من هيأه القدر للتفوق».

(٩)

ويتحدث الدكتور الديوانى عن تكوينه النفسى والعلمى فى كثير من مواضع مذكراته، وهو حريص على أن يؤكد على ما اكتشفه من أن نشأته كانت خالية من العقد، ويبدو بوضوح أنه لم يكتشف هذا المعنى فى حينه ولا فى شبابه، وإنما اكتشفه بعدما تقدمت به السن، وهو لا يثنى على نفسه بقدر ما يعترف بفضل الله عليه، وهو حريص فى الوقت ذاته على ألا يصور نفسه ساذجا غير متحوط، أو غافلاً غير منتبه، مع أن الصياغة الفنية كانت تقتضى منه قدراً من الصدق الفنى والواقعى يروى به بعض ما صادفه فى حياته من عنت نتيجة غفلته ووقوعه فريسة للذئاب البشرية. . لكنه فيما يبدو آثر أن يقفز على التجربة ليصل إلى الموعظة مباشرة، وليقدمها كذلك بأسلوب مباشر صريح يفتقد إلى العنصر الفنى، وربما جاز لنا أن نعقب على هذا بقولنا : « وحسناً فعل » :

«لقد خُلقت لا أعرف معنى الحقد والكراهية، وعجبى لأناس يقضون بعض النهار أو جزءا من الليل يفكرون فى تدبير متاعب للغير. ما أبدع أن تكون إنسانا صالحا ولكن فى حيطة تحفظ لك حقوقك نحو نفسك، وفى غير غفلة تجعل منك فريسة سهلة للذئاب البشرية الذين يفوقون فى عالمنا عددا من نظرائهم من ساكنى الغابات».

. . . .

ويحرص الدكتور الديوانى على الإشادة بفضل والديه عليه، وهو يخص والده بقدر كبير من الثناء والامتنان لتربيته له:

«... لقد تمتعت بحب والدين قلّ أن يجود الزمان بمثلهما، كان والدى خليل الديوانى أبا عطوفا، لاأذكر أنه آذانى بكلمة جارحة، أو نهرنى لغلطة ارتكبتها، بل كان توجيهه فى رفق مصحوب بربتة على الكتف أو مداعبة للخد، وكان يحبنى حبا جما برغم كونى السادس فى الترتيب بين إخوتى السبعة، ورغم أن مولدى عاصر أحلك سنين حياته».

□

ولا ينسى الدكتور الديوانى أن ينبهنا إلى مدى التدليل والعناية الفائقة اللتين كان يحظى بهما من مربيته «آمنة» دون أن يشر إلى آثار جانبية لمثل هذا التدليل الزائد:

«فكانت مربيتى (آمنة) ـ رحمة الله عليها ـ تهجم على المخصصات اليومية للعائلة وتحجز لابنها ـ كما كانت تسمينى ـ حصته دون مراعاة قوانين العدالة! كانت تلقمنى مثلا أربع بيضات وكوبين من اللبن الصافى فى الصباح، وتجعل لى نصيب الأسد فى وجبتى الظهر والمساء وأنا لا أقول لاأبدا».

□

ويعترف الدكتور مصطفى الديوانى فى مذكراته برسوبه فى إحدى سنوات دراسته الابتدائية واضطراره لإعادة السنة كلها، وهو يعزو السبب فى هذا الرسوب إلى ضعفه الشديد فى مادة الجغرافيا، وهو يتدبر الأمر

فى صـورة النادم على الفـرصة التـى أتيحت للأجيـال التالـية بإباحـة الملحق، فـإذا به يعبـر عن حنقه من فكـرة الملحق [هذه] التى لم ينل الحظ منها فيسميها «بدعة»:

«كانت السنة الدراسـية الوحـيدة التى رسبت فـيها طوال حـياتى هى السنة الثالثة الابتدائية فى عـام ١٩١٧، وكان ذلك بسبب ضعفى الشديد فى مادة الجغرافيا، ولم تـكن بدعة الملاحق قد بدأت بعد، فكان علينا أن نعيد السنة الدراسية بأكملها».

ومن الجـدير بالذكر أن الدكـتـور زكى سويدان وقـد كان تاليـاً فى الدراسة للدكتور الديوانى قد أدرك «بدعة الملحق» هذه فى أول سنة من سنوات الأخذ بها على يد الزعيم سـعد زغلول، ونحن نراه فى مذكراته التى نتدارسـها فى هذا الكتـاب سعيـداً بها مـمتناً لها ولـمن بدعوها، وهكذا طبيعة النفس البشرية تجاه كل ما يصادفها فى الحياة.

□

وبعـد فقـرات يحرص الدكـتور الديـوانى على أن يشيـر إلى تفوقـه المتصل فيما بعد رسوبه فى تلك السنة:

«ومنذ تلك السنة وأنا فى المقدمة دائما، سواء خلال دراستى الثانوية أو الجامعيـة، فكنت فى البكالوريا أول المدرسة التوفيقـية والثالث بين الناجحين فى القطر، وأكـرمنى الله فكنت الثالث فى ترتيب بكالوريوس الطب مع مراتب الشرف [هكذا يقول !!] فى كثير من المواد».

وهو يسترجع ذكرياته عن تخرجه فى كلية الطب فى يونيو ١٩٢٩، مشيرا إلى ما حظيت به دفعته من أن تكون أول دفعة حصلت على درجة البكالوريوس، على حين كانت الدفعات السابقة تتخرج حاملة لقب الدبلوم، ويفوت الدكتور الديوانى أن يذكر أن السبب فى هذا كان انضمام مدرسة الطب إلى الجامعة الحكومية «الجامعة المصرية» حيث أصبحت كلية تمنح درجة البكالوريوس بعدما كانت مدرسة عليا تمنح درجة الدبلوم:

«وكان على إبراهيم يصافحنا ويتمنى لنا التوفيق فى عطف أبوى بالغ، فقد كنا أول دفعة تخرجت فى عهده وهو عميد، وكنا أول دفعة منحت درجة البكالوريوس، وكانت تسمى قبل ذلك بالدبلوم».

□

وهو يذكر كيف أنه لم يفتح العيادة إلا بعدما بذل جهده من أجل الحصول على ما يستحقه من مرتب بعد عودته من لندن بدرجة عضوية كلية الأطباء الملكية بلندن، ولكنه فجأة تذكر نصيحة أستاذه القديم الدكتور عبد العزيز إسماعيل بالعمل الخاص. ولا يفتأ الدكتور مصطفى الديوانى يحدثنا عن اكتشافه المبكر لأهمية الاتجاه للعمل الطبى الخاص من خلال العيادة، ومع أن مثل هذا التفكير يبدو غير متناغم مع روح البحث العلمى والعمل الجماعى والولاء للمؤسسة التعليمية، إلا أنه فى واقع الأمر كان هو المحدد الأول للنجاح المهنى فى جيل الدكتور الديوانى والجيل الذى سبقه ثم الأجيال التى تلتهم.

ومن الطريف، كما أشرنا، أن الديوانى يروى اتجاهه إلى العمل الحر فى سياق حديثه عن السعى إلى زيادة مرتبه، وهو يقدم حديثه هذا بطريقة تلقائية فيقول:

«... وفجأة تذكرت ما كان يقوله لنا المرحوم عبد العزيز باشا إسماعيل على سبيل النصح: ارفع صيتك بين الناس يرتفع قدرك بين أولى الأمر والحل والعقد وأنت لا تدرى، فيسعون إليك سعيا! فصممت على فتح عيادة تغنينى عن التوسل فى سبيل الحصول على جنيهات قليلة وترغم الحكومة عندما يعلو صيتى أن تغدق علىّ ما أريد أن أطلب منها ذلك».

. . . .

□

ويجيد الدكتور الديوانى الحديث عن تجربته الشعورية أو النفسية فى انتظار المريض الذى من المفترض أنه يأتى طائعاً مختاراً إلى عيادة «الطبيب الجديد» يطلب النصح مقابل أجر، وهو يسمى هذا المريض بالمريض الأول، ويجيد تصوير المشاعر التى تنتاب الطبيب وهو ينتظر هذا المريض الأول، وهو يقول:

«... هكذا ترى أن الطبيب يكاد يستجدى الثقة عندما يبدأ وحيدا فى الصحراء القاحلة، حتى إذا ما غمرته حتى الناصية يجد نفسه على وشك الانهيار فيحاول أن ينجو بالبقية الباقية من عافيته فينعته مريدوه قبل حاسديه بنكران الجميل، يأتيه الخير طائعا فيركله ركلا».

(١٠)

وتحفل مذكرات الدكتور الديوانى بكثير من الذكريات المهمة لتاريخنا التعليـمى، ومن هذه الذكريات ذكرياته عن البعـثات التى كانت مـتاحة لطلاب البكالوريا للابتعاث مـباشرة إلى أوروبا لمدة ست سنوات، وهو يشير إلى أنه كـان يتمتع بوعى خاص يجذبـه إلى لقب الدكتور!! وإلى مهنة الطب، لكنه لم يجد فى نفسه الشجاعة للسفر من خلال هذه البعثة التى كانت متاحة له:

«وكـان ترتيبى ثالث البكـالوريا بين طلبة القطـر بأكمله، وبينمـا أنا سارح فى بحور الخيال إذا بى أتسلم خطابا من إدارة المـدرسة التوفيقية وفيه تخطرنى بأن وزارة المعارف سوف توفـد بعثات هندسية من الأربعة الأوائل من الناجحـين فى امتحـان البكالوريا فى ذلك العام، فـوجدت نفسى بين نارين إحـداهما بريق السفر إلى الخارج لشـاب يافع مثلى له آمال كبار، وكـانت مدة البعثة ست سنوات، أى أنهـا تغرى على المزيد من التحـصيل والحصول عـلى درجة الدكتوراه، فـلا بأس من أن أكون دكـتورا فى الـهندسة بدلا من أن أكـون دكـتـورا فى الطب، لأن للقب دكتور لمعـانا خاصا فى المجتمع كعـقيدتى إذ ذاك، وأظننى كنت على صواب. أمـا النار الأخرى التـى كانت تلسـعنى مجـرد بريقهـا فهى أن أصبح طبيـبا يرتدى الرداء الأبيض ويفحص المرضى لـيصل إلى موطن الداء ويصف لهم الدواء ليريحهم من أكبـر لعنة منيت بها الإنسانية وهى الألم».

. . . .

ويجيد الدكتور الديوانى التعبير عن الصراع النفسى الشديد الذى اعتراه وهو يفكر فى أى الطريقين أهدى.. وهو يعترف أنه لم يستطع الاختيار ويرجع هذا إلى أنه كان ابن السادسة عشرة على حد تعبيره.. وهو يروى أن ما حسم الأمر كان اللجوء إلى الله.. فإذا به يستيقظ من نومه على اختيار الطب:

«... وقفت عند مفترق الطريق وأخذت أفكر فى تأمل ابن السادسة عشر.. لقد نجحت فى الكشف الطبى بعد أن ترددت مرات عديدة عليه مع المرشحين الآخرين عبد السلام عثمان وهو الآن الدكتور المهندس النابغة، وقد كان أكثر جرأة منى فقبل فكرة السفر إلى انجلترا فى هذه السن المبكرة، ويوسف زخارى وهو الآن الدكتور يوسف زخارى الطبيب النابه بمحافظة المنيا حيث استقر ونجح نجاحا كبيرا لكفاءته وسمو خلقه، وبقى علىّ أن أقول «نعم» لأشد الرحال إلى بلاد طالما تمنيت أن أراها رأى العين هى وجاراتها من دول أوروبا».

«... وصعب علىّ أن أصل إلى قرار فاستغفرت الله ونمت ليلتى بعد أن قرأت الصمدية (أى قل هو الله أحد) مائة مرة، ورأيت المرحوم والدى فى المنام وقد افتر ثغره عن ابتسامة جميلة كلها تشجيع وأمل، فاستيقظت من نومى منتعشا وصممت على أن أكون طبيبا.. ودخلت كلية الطب».

(١١)

وتحفل مذكرات الديوانى بكثير من الحديث عن شخصيات طبية عظيمة من الذين أتيح له أن يتصل بهم فى مراحل حياته ، وفى مقدمة

الشخصيات التى تحدث عنها الدكتور الديوانى بامتنان فى مذكراته، أستاذه إبراهيم شوقى رائد طب الأطفال، الذى وصل إلى منصب مدير جامعة القاهرة ووزير الصحة، وهو يعترف لهذا الأستاذ الفاضل بالفضل الأكبر فى تشكيله العلمى والإنسانى:

«كنت إذ ذاك عجينة غير مجربة فصورها الدكتور شوقى كما شاء هواه، علمنى فأحسن تعليمى، وضرب لى كل دقيقة فى عظمة الرجولة مثلا. بقيت بجانبه منذ ذلك الوقت، ووقع اختياره علىّ نائبا ثم مدرسا ثم أستاذا مساعدا له، ثم مهدلى السبيل إلى جبل الأستاذية الأشم.. فشكراً لله وله».

□

وهو يلخص الحديث عن قيمة من قيم الإدارة تفوق فيها هذا الأستاذ ويسميها الدكتور الديوانى «النسيان العادل»، وهو يتحدث عن هذه الخصلة فيقول:

«... علمنى هذا الرجل فلسفة الرئيس الذى ينسى! فهو يكوّن عن مرءوسه فكرة ويصدر عليه حكما، فإذا اقتنع بصلاحيته شفع له هذا فيما يجد فى المستقبل من أحوال. فهو يدعوه مثلا إلى مكتبه ويأخذ فى تقريعه فى عصبيته المعروفة على ما يعتقده تقصيرا، فإذا كثر الحديث والشد بين المتناقشين تكهرب الجو، وبدا الأستاذ وكأنه على وشك الوصول إلي قرار خطير، لكنه يسكت بعد أن يكون قد أوسع مرءوس له لوما، ويطلب منه فى هدوء أن يذهب إلى عمله، وبينما هو على هذه

الحال من الثـورة المكبوتة يدخل الكاتب ليـعرض عليه بريد اليـوم فإذا بين الأوراق واحدة تخص صـاحبنا بطل القصـة يطلب فيها من رئيـسه الشفاعة له فى بعـثة دراسية أو درجة مالية، فيـتحمس فى التعليق على طلبه مـعددا فضائله وحـسناته متناسيا سـيئاته التى أهاجتـه إحداها منذ دقائق قلائل! هذا هو النسيان العـادل الذى يجب أن يتحلى بفضيلته كل رئيس».

....

ويعيد الدكتور الديوانى الحديـث عن هذه الجزئية من أخلاق أستاذه العظيم فيعرضها علينا بعبارات أخـرى تعبر عما امتاز به هذا الأستاذ من خلق «النسيان الاختيارى»، على نحو ما امتاز بخلق «النسيان العادل»:

«. . . وكانـت لذاكرته مـيزة فـريدة. فهى تطرد الصـغائر فى أنـفة عـجيـبة، لا يحـمل لمرءوس ضـغنا مـادام الذى بدر منه لا يتعـارض ومصلحة العمل. فأنت تدخل عليـه لتعتذر له عن سخف بدر منك منذ أيام قليلة فـتجده قـد نسيه تمـاما، وينظر إليك مـتسائلا: مـتى حدث هذا؟».

«أما ما يتعلق بالعمل فهذا لا ينساه أبدا! والويل لمن يتراخى فى هذا السبيل فإنه يصدر عليه حكما لا يغيره أبدا ولا يشفع له مرور الأيام».

«وكان كبير الأخلاق جـبار الذهن، يغدق العطف على مرءوسيه دون أن ينتظر منهم كلمـة ثناء. فـهو يرد على أحـدهم فيـقول مـثلا: لقـد

أرسلتك فى بعثة لأن مصلحة العمل بالقسم تقتضى ذلك، وقد اتفق وجودك فى نفس الأوان الذى تقررت فيه البعثة، فالمسألة لا تعدو مجرد المصادفة!».

□

ويلخص الديوانى نظرته إلى أستاذه فى قوله: «إنه كان سابقاً لزمانه»، وهو يعبر عن هذا المعنى فيقول:

«أما قدرته على رؤية البعيد المنظور وغير المنظور فقد جعلتنى أؤمن بأنه يرى المستقبل قبل الشخص العادى بخمس سنوات على الأقل، لذا كنت أرقب دائما الثورات تقوم ضد بعض ما يصدر من قرارات، فأقول لنفسى: سوف يفهمون صواب ما فعل بعد خمس سنوات».

□

ويحظى عميد الطب الدكتور على باشا إبراهيم بكثير من تقدير الدكتور الديوانى وثنائه، وبوسعنا أن نرى ما يحفل به حديثه «الآسف» عن نهاية هذا العالم الجليل، حيث يقول:

«... وكان يتمنى [الحديث عن على باشا إبراهيم] أن يموت فى الميدان كالبطل فى لمحة عين، ولما شعر ذات يوم بتقلصات عضلية فى ساقه نتيجة تصلب الشرايين نظر إلى أحد تلاميذه من كبار الجراحين وقال: آه! لقد بدأت النهاية، لماذا لا تفرغ رصاصات مسدسك فى صدرى لتريحنى كما يريحون حصان السباق إذا أصاب ساقه عرج؟

فضحك تلميذه وواساه قائلا: ياباشا هذه آلام روماتزمية! ولكنها كما أدرك الباشا الحصيف كانت بداية النهاية، واضطر بعد تلكؤ أن يلزم منزله ثم فراشه وطال المرض الأخير بعض الشيء فأخذ ينتظر النهاية فى صبر وشجاعة، وكان يسلى نفسه بالعكوف على مجموعاته الأثرية يدقق النظر فيها ويدرسها فى شغف وحنان حتى جاءت الساعة المحتومة، فبعد أن تناول وجبة الغداء بمنزله بجاردن سيتى دخل غرفة نومه واستلقى على فراشه الحبيب الذى آواه بعد تعب النهار خلال تلك السنين الطوال، ثم نام على جنبه الأيمن ووضع ذراعه اليمنى تحت رأسه ومضى فى نومة هادئة لم يصح منها أبدا، فقد انتابته الأزمة القلبية وهو نائم فى هذا الوضع فلم يشعر بأى ألم لأن هدوء سحنته وتقاطيع وجهه كما وصفها الذين شاهدوه عقب وفاته دلا على أن الله أكرمه حتى فى نهايته. . كان ذلك فى الساعة السادسة والنصف من ٢٨ يناير ١٩٤٧».

(١٢)

ويأتى أستاذ الأمراض الباطنة الدكتور سليمان عزمى فى محل تال مباشرة لإعجاب الدكتور الديوانى بأستاذه الدكتور إبراهيم شوقى وتمثله لفضائله، ولا يجد الدكتور الديوانى حرجاً فى أن يشير إلى أن الدكتور عزمى نفسه كان يعطى البقشيش بل كان يعطى أحد رجاله [أى عماله الخصوصيين] ما يكفل له إعطاء البقشيش للتمرجية فى المستشفى على الرغم من أنه كان عميداً للكلية، ويصف الدكتور الديوانى هذا الخلق لا «بالكرم» وإنما «بالعملية»:

«... وكان أحد العمداء المصريين عمليا فى تفكيره، فقد ذهب يزور أحد رجال عزبته فى قسم الرجال، وبعد أن حياه أعطاه بعض القطع الفضية قائلا: هذه للتمرجية إذا لزمك شيء!! وكان هذا العميد سليمان عزمى أطال الله فى عمره».

ويلخص الدكتور الديوانى رأيه فى أستاذه الدكتور سليمان عزمى بقوله:

«وهو موضع حبى وتقديرى دائما، واقعيا فى تفكيره، وكان عاملا كبيرا فى تطوير التمريض واستبدال العنصر النسائى بالرجال فى أقسام الرجال بالمستشفى».

(١٣)

أما من زملاء دفعته فإن الدكتور الديوانى يبدو فخوراً بأنه كان زميل دفعة للدكتور بول غليونجى الذى ظل متفوقاً عليه على الدوام ـ على حد تعبير الديوانى نفسه ـ وهو يحدثنا عن بداية تعارفهما، و يصور شخصية زميله وصديقه فى حديث أقل ما يوصف به أنه حديث الصديق المتيم والزميل المعتز بزمالة زميله، وهو يقول:

«... أذكر بعد أسبوع من استقرارنا بالكلية، وكنا فى قاعة المحاضرات، أننى وجدتنى منجذبا إلى شاب صغير فى تقاطيع وجهه وداعة غير متكلفة، وكان يجلس على نفس المقعد وبينى وبينه فراغ يتسع لبضعة أشخاص، فأشرت إليه فى ثقة أن يقترب لأنى أدركت بفطرتى التى لم تخنى أبدا فى أن هذا الشخص بداية صداقة عمر. فقد

بدا هادئا، نظيف الملبس والملمس، غزير الشعر لامعه، دقيق الشفتين، على وجهه بسمة دائمة تربعت بكل راحة على تقاطيع خلقها الله فى انسجام ودون تنافر. ولما تقدم منى سألته عن اسمه فقال (اسمى بول غليونجى) فطلبت منه أن يفسر لى اسمه فأخذ يسرد وهو يضحك ضحكته التى اعتادت أن تقف فى منتصف طريقها ليكملها بكلمات طريفة تؤدى نفس الغرض، إن أصل عائلته من المنصورة ودمياط، وأن خليطا من الدماء اليونانية واللبنانية المصرية يجرى فى عروقه».

ويستطرد الدكتور الديوانى من هذه البداية إلى الحديث عن متانة علاقته بزميله الدكتور بول غليونجى على مدى الأيام:

« . . . كان هذا الحديث بداية صداقة لم تنل منها صروف الأيام، لم نختلف أبدا على رأى، ولم نتخاصم دقيقة من الزمان. كنا نتذاكر دروسنا سويا طوال سنى الدراسة بالكلية رغم تنافسنا على الأولية، لكنه كان الأول دائما وأنا أتبعه بواحد أو اثنين لأنه كان يتمتع بذكاء نادر وصفاء ذهنى وذاكرة اسفنجية تمتص ما حولها فى سهولة ويسر، ولعل خلقه النقى اجتذب إليه بقية قلوب الدفعة تدريجيا. وكان الزمان يفرقنا عن بعضنا حينا بداعى العمل بالريف أو بداعى السفر فى البعثات العلمية، ولكن المقام استقر بنا فى القاهرة أخيرا كمدرسين فى كلية الطب وتواعدنا ألا نفترق أبدا، وأن نعيش على ود مقيم فلم يجرؤ أحد على التدخل بيننا حتى يومنا هذا».

(١٤)

ويتحدث الدكتور الديوانى عن تلميذه الأثير الدكتور النبوى المهندس وكان قد أصبح وزيراً للصحة قبل نشره لمذكراته، ونراه فى غاية الاعتزاز بهذا الطبيب الإنسان العبقرى، ومن الحق أن نشير إلى أن شعور الدكتور الديوانى تجاه النبوى المهندس قد ظل على هذه القوة فيما كتب بعد هذا من مقالات، سواء فى حياة النبوى المهندس أو بعد مماته، وهو يتحدث بإنصاف وحب وتقدير عن هذا الزميل التلميذ واصفاً إياه بأنه ابنه الروحى:

«. . . إذا كان يحق لأحد أن يكتب عن النبوى المهندس وزير الصحة الجديد فهو أنا، وأنا لا أتحيز لكونه بالنسبة لى الابن الروحى البار. لقد احتضنته طالبا، ثم طبيبا شابا يافعا لم يلبث أن لمع لمعانا شديدا وميز نفسه كطاقة بشرية لا حد لها».

. . . .

وهو يجيد الحديث عن الروابط الروحية التى ربطت بينه وبين الدكتور النبوى المهندس، ويصل فى تصوير هذه الروابط إلى أن يقول إنه كان «أنسه وبهجة نفسه»!!

والحق أن شهادة الدكتور الديوانى للنبوى المهندس تنطق بمدى عبقرية هذا الرجل الذى دفع بأستاذه إلى تسجيل كل هذا الحب المتدفق من حديثه عنه، مع أنه كان يكفيه أن يصفه ببعض ما وصف لا بكل هذا الذى يسوقه وراء بعضه من سجايا وفضائل:

«. . . وكنت أتوقع دائماً اليوم الذى ينطلق فيه هذا المارد المتألق من القمقم الذى احتبست فيه طاقته، وكنت فى قمة السعادة وأنا أخطو به عتبة باب المستشفى فى صبيحة تعيينه، وأخرج به متأبطا ذراعه كعادتى اليومية، ولكن كوزير للصحة، وقطع تيار سعادتى نشيج وبكاء زميله رشاد صقر من خلفه، فنهرته فى عظف زائد أن يكفكف دموعه، فهذا يوم عيد، ولعلى نهرته لأنى كنت أعتقد أن هذه الدموع من حقى وحدى، وكأنى كنت أغار عليه من غريب الدموع، ولا عجب فقد كان النبوى بمثابة كل شيء لى، كان أنسى وكان بهجة نفسى، كان الأخ الروحى، والابن البار، واليد اليمنى التى لا تكل أبدا، كان تقيا ورعا، لا يرتكب معصية، صريحا لا يعرف الكذب ولا المداراة. حج إلى بيت الله الحرام فى الصيف الماضى فاكتمل دينه وتضاعف زهده فى زخرفة الدنيا، وبدا وكأنه جهز نفسه لحمل الرسالة التى قدر له أن يؤديها، وهى تتطلب من الهمة والعفة وطهارة اليد الشيء الكثير، ولمع فى مؤتمر الطفولة بأنقرة هذا الصيف، وكنت أراقبه فى إعجاب وشغف وهو يلقى بحثه فى سوء التغذية فصال وجال وناقش وأقنع».

. . . .

ويعيد الدكتور الديوانى تأمل انطباعات نفسه وسعادته بوصول الدكتور النبوى المهندس إلى كرسى وزارة الصحة، ويقول:

«خطرت لى هذه الخواطر وأنا أمشى به الهوينا نحو سيارة زميله ممدوح جبر لتحمله إلى حيث يريد، ثم أودعت وجنتيه قبلتين وهمست

فى أذنه إلى لقاء ياسيادة الوزير، وراقبت السيارة الصغيرة وهى تتهادى فى كبرياء هادئ حتى توارت تشيعها القلوب والدموع، دموعى أنا هذه المرة!!».

(١٥)

ويجيد الدكتور الديوانى تقديم تلميذته الدكتورة زهيرة عابدين، وهو يركز فى حديثه عنها على ما تميزت به من قيم الزهد وحب العبادة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، كما يشير إلى تعلقها بالتصوير السينمائى، وحضورها المؤتمرات العلمية الدولية:

«... وقبل أن ينتقل إلىّ رئيس وفد الهند لمح من بعيد الدكتورة زهيرة عابدين وهى تلتقط بآلة السينما التى تحملها أينما ذهبت صورته وهو يصافحنى ويصافح بقية رؤساء الوفود، فسألنى عنها فقلت: هذه إحدى أعضاء وفد الجمهورية [هكذا كان الديوانى يتحدث عن مصر كما كان الرسميون يتحدثون عنها]، فابتسم وقال: لقد ظننتها روسية! وفى اعتقادى أنه لاحظ عليها تلك البساطة فى المظهر التى تميزت بها تلك الطبيبة الطاهرة، فهى قد زهدت الدنيا وزخرفها منذ حجت إلى بيت الله الحرام وزارت قبر الرسول عشرات المرات، بل لقد صممت على أن تؤدى فريضة العمرة وزيارة قبر الرسول فى طريقها إلى القاهرة بعد انتهاء مؤتمر جاكرتا. إن هاتفا يدعوها دائما إلى هناك، وقوة خفية تجذبها إلى البيت الحرام يرن فى أذنيها مهما شط المزار مناد أن هلمى إلى قبر رسول الله واجلسى فى خشوع على مقربة من روضته الشريفة ترتلين

الآيات، وتؤدين الفـروض الخمسـة كلا فى ميـعادها مـتى أذن المؤذن للصـلاة بصوت رنين وهو واقـف فى جلال ورهبـة فى إحدى المـآذن الأربع التى تناطح السحاب من فرط هيبتها. لقد مررت أنا بنفسى خلال هذه التجربة أربع مرات وكلمـا تذكرتها انتابتنى قشعريرة مبـعثها الإيمان العميق بالله وخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام».

(١٦)

ويحرص الدكـتور الديوانى على مـا لا يحرص عليه كـثيرون، فـهو يذكر أسـماء كل تلاميـذه فى قسم الأطفـال فرداً فرداً، ويبـدو أنه نجا بنفسه من الوقـوع فى شرك تفضيل واحد منهم على الآخـر، أو وصفه بصفات يرى غيـره نفسه أحق بها منه، وهو لهذا يعمـد إلى ذكر أسماء هؤلاء تبعا لترتيب أقدمياتهم:

«. . . وأنا الآن جـالس فـى صـومـعـة الراهب بـينى وبين الأرض عشرات الآلاف من الأقدام، بل أنا إلى السمـاء أقرب! أتخيل فى حياد ومحـبة هذا الجيل العظيم من الأطبـاء الذين أنعم برفقتهم فى قـسمى، والذين عاصـرتهم خلال السنوات الخـمس والعشـرين الأخيـرة: عطية عبود، وعبد الحميد مـصطفى، وعلى عبد العال، وموريس حنا، وعبد الحليم شحـاتة، والنبوى المـهندس، وزهيرة عابدين، وجـميل والى، وصفـوت شكرى، وممدوح جبـر، ورشاد صقر، وعـواطف المازنى، وبيـومى السبـاعى، وأنيسـة الحفنى، وعـمر الألفي، ونـوال مخـتار، ومحـمد سـافوح، وحـسين كـامل، وكريمـة الظواهرى، وإكرام عـبد

السلام، وإبراهيم فياض، وألفت محيى الدين، وأحمد أبو الحسن، وأحمد قطب، وعادل السلاوى، وخليل الديوانى، ومحمد خليل عبد الخالق».

(١٧)

وتحفل مذكرات الدكتور الديوانى برواية كثير من انطباعاته وذكرياته عن كثير من الشخصيات السياسية التى قدر له أن يعاصرها، ونحن نراه شأنه شأن كل أبناء جيله منبهراً تماماً بزعامة سعد زغلول وشخصيته:

«... رأيت سعد زغلول يعود من منفاه فتهب البلاد عن بكرة أبيها بحق لتستقبل ابنها العائد، ولا أظننى قادرا على وصف هذا الاستقبال وكيف كان سعد واقفا بنفس البنيان الضخم الذى تشاهدونه فى تماثيله عند كوبرى قصر النيل وميدان سعد زغلول بالإسكندرية. كان سعد زغلول واقفا فى سيارته يحيى الواقفين على جانبى الطريق والمجتمعين فى الشرفات من مصريين وأجانب. وكان الأجانب واقفين فى الشرفات يصرخون فى حماس زائد وهم يلوحون بمناديلهم، وأذكر أننى كنت جالسا فى عربتنا أرقب الموكب من شارع الجمهورية فى المكان الذى يقع فيه مستشفى صيدناوى الآن».

....

ويحرص الدكتور الديوانى على ذكر واقعة مهمة، يتغافل عنها تاريخنا الفنى لسبب معروف، وهى انقطاع أم كلثوم عن الغناء حداداً على سعد

زغلول حتى حانت ذكرى الأربعين فبدأت غناءها بقصيدة جميلة معبرة عن المعنى:

«وعندما توفى الزعيم الخالد سعد زغلول فى عام ١٩٢٧ انقطعت أم كلثوم عن الغناء حدادا، ثم استأنفته بعد الأربعين، وبدأت الحفلة بأغنية من كلمات رامى وتلحين محمد القصبجى:

إن يغـب عـن مصـر سعـد فهـو فى الذكـرى مقـيم

يذهـب المـاء ويبـقـى بعـده النبـت الكريم»

يروى الدكتور الديوانى هذه الواقعة ويردفها بذكرياته مما رواه أحد أصدقائه الذين حضروا حفل أم كلثوم فى تلك الأيام:

«وأخذ «فؤاد» يقص علينا فى صبيحة يوم السبت كعادته كيف بدأت سومة غناءها وهى مجللة بالسواد وقد تربع الحزن على قسمات وجهها الجميل، وكيف كانت تذرف الدمع فى بعض مقاطع الأغنية حتى إذا ما أسدل الستار ساد الناس الوجوم، بينما أخذ فؤاد يدندن الأنشودة لمحمد مكين والمرحومين عبد المنعم بيومى وحلمى السعيد وكأنه حفظها عن ظهر قلب. لكن عند انفراج الستار مؤذنة ببدء الوصلة الثانية بدت «سومة» مزدهرة لامعة، ونفض القوم الكآبة عن نفوسهم».

. . . .

ويعلق الدكتور الديوانى بعد هذا تعليقاً ينم عما كان يتميز به من حس وطنى وفهم سياسى، وهو يقول:

«وكان هذا إيذانا بأن سعداً قد دخل فى ذمة التاريخ على مستوى أعلى من الدموع والبكاء، فمادامت «سومة» قد دندنت بنكاتها وضحكاتها وأنغامها من فوق خشبة المسرح الملىء بالأضواء، فإن هذا إيذان بانتهاء أيام الحداد!».

(١٨)

ومن أكثر ما تضمنته هذه المذكرات طرافة تعبير الدكتور الديوانى عن ندمه على أنه لم يعرف الأستاذ عباس محمود العقاد حياً ، وهو يذكر أنه ظل مبتعداً عن العقاد بسبب ما تنامى إلى سمعه عن تكبره، فإذا به حين رآه (بعد وفاته) فى حديث تليفزيونى مسجل يندم على أنه لم يعرفه!!:

«... إننى إن ندمت على شىء فهو لأنى لم أتصل بالعقاد شخصيا فى أثناء حياته. فقد كان يبدو لى متعجرفا متكبرا، حتى أننى كنت أتحاشى مطارحته السلام أو الحديث، ولما شاهدت فى التليفزيون عقب وفاته إعادة لحديثه مع أمانى ناشد أدركت أنه إنسان عادى، يبتسم ويضحك ويلقى النكتة الحلوة فى أروع أسلوب، وكنت وأنا أنظر إلى شاشة التليفزيون أقول لنفسى فى كمد وأسى: «ياليتنى عرفتك حيا!».

(١٩)

ويجيد الدكتور الديوانى وصف شخصية الرئيس الفرنسى شارل ديجول على نحو ما تراءت له فى اتصاله بالمجتمع الفرنسى، وهو يقول:

«... وديجول يتمتع بشعبية الشخص الذى تكره أن تحبه وتحب أن تكرهه، يقلده الممثلون الهزليون على المسارح، ويسخر منه الرسامون فى محاولاتهم الكاريكاتورية، وبلغ من جرأة أحدهم أن يقلده فى خطبة بعد أن يغير الألفاظ ويقلب المعانى ظهرا على عقب، وأن يسجل هذه المحاولات على اسطوانات فتنال رواجا كبيرا من أفراد الشعب، وكان أول مَنْ استمع إليها وضحك منها ديجول نفسه».

«إن الفرد الفرنسى بين لهوه ولعبه جاد فى ساعة العمل وفى كل نواحى الحياة اليومية. إنك تلمس الكمال فى المستشفيات مثلا، لقد وصلوا بالناحية المعملية منها إلى حد كبير يجعل منها مدرسة كبيرة يحج إليها الطلاب من جميع أنحاء العالم. إنهم لم يتخلفوا عن الركب أبدا كعادتهم منذ مئات السنين، عندما وضع باستور وكورى ومَنْ قبلهم اللبنات الأولى فى العلم الحديث».

«ومن مزايا باريس أنها لا تعرف للتعصب معنى ولا مبنى، الكل عند أهلها سواء: الأبيض والأسود والمسيحى والمسلم واليهودى والبوذى، أما فى انجلترا فإن موجة التعصب أخذت تشتد فى السنوات الأخيرة».

(٢٠)

ويمكن لنا القول إن الموسيقار محمد عبد الوهاب يمثل أحد الأبطال فى مذكرات الدكتور مصطفى الديوانى، فقد كان صاحب المذكرات متيما بالموسيقار العظيم طيلة عمره، وهو يكاد يقدم لنا تاريخ عبد

الوهاب الفنى من خلال مسلسل انطباعى يصور به آراءه المتنامية فى إعجابها بالفنان وبقدراته على مدى مراحل حياته المتعاقبة، وهو يلخص ما يسميه بالعوامل الأربعة التى كفلت للفنان محمد عبد الوهاب هذا النجاح الساحق ويقول:

«إن النجاح فى الحياة يتوقف على دعائم ثلاث: كثير من الهداية والتوفيق، وذكاء يكفى أن يكون متوسطا، ومثابرة تصل بك إلى نهاية الطريق دون أن تلهث. وهناك عامل رابع وهو لا يقل أهمية عن هؤلاء جميعا، وهو أن يهبك الله فسحة من العمر تتيح لك الفرصة كاملة لتأدية رسالتك فى الحياة».

....

وفى وسط حديثه عن ذكرياته عن الموسيقار العظيم، يبرر الدكتور الديوانى اهتمامه المفرط بعبد الوهاب وتاريخه وفنه فيقول:

«قد يسألنى البعض عن سر إسهابى فى شخصية عبد الوهاب؟ الجواب الذى يخطر ببالنا جميعا هو لأننى أرى فيه حياتى كلها، لقد التصقت كل أغنية من أغنياته فى ركن من تاريخ حياة كل منا».

□

ويستعيد الديوانى من شريط ذكرياته ذكرى أول حفل شاهد فيه الفنان محمد عبد الوهاب، ولم يكن يعرفه، لكن جاره فى الحفل أنهى إليه أن هذا الفنان المهذب المجتهد يعتقد تمام الاعتقاد أنه سيكون زعيم

الموسيقى فى الشرق!! ولا يخفى الدكتور الديوانى أنه تعجب لمثل هذا التفكير!!:

« . . . أذكر أول مرة رأيت فيها عبد الوهاب، كان ذلك فى عام ١٩٢٥، وكانت أم كلثوم تغنى ذات ليلة فى صالة سانتى بحديقة الأزبكية، وإذا بشخص ضئيل يضع على عينيه نظارة سميكة ويلبس معطفا من (الوتر بروف)، وكان معروفا عند بعض الحاضرين لأنهم كانوا ينادونه قائلين (يامحمد!) فينظر إليهم مبتسما فى أدب جم تميز به طوال حياته. . فسألنى جارى: أتعرف مَنْ هذا؟ قلت: لا، قال: إنه موسيقى مهذب مجتهد اسمه محمد عبد الوهاب، عنده عقيدة ثابتة يتحدث عنها دون غرور أو كبرياء، إنه سوف يكون زعيم الموسيقى فى مصر، فعجبت فى نفسى كيف يصل صاحب هذا الجسم النحيل إلى مكان الصدارة بين الفحول التى كانت تسيطر على عالم الموسيقى فى ذلك الوقت».

. . . .

وسرعان ما يشير الدكتور الديوانى إلى أن الإعجاب بالفنان محمد عبد الوهاب قد تمكن منه ومن قلوب زملائه من طلبة الطب بعد عام واحد فقط من هذا اللقاء المبكر بعبد الوهاب:

«ومضت الأيام سراعا ولما كان عام ١٩٢٦ كان ذلك فى حفل تخرج طلبة دبلوم الطب، تطوع عبد الوهاب بإحياء الحفل وكنا إذ ذاك طلبة فى السنة الثالثة، فجلسنا فى الصيوان [السرادق] ننظر إلى هذا الشاب

الوديع وقد فغرنا أفواهنا من الدهشة وهو يغنى فى نغم بسيط يدخل القلب دون مواربة ولا التواء، وكانت الأغنية «خدعوها بقولهم حسناء» من شعر أمير الشعراء أحمد شوقى، فهللنا له وصفقنا فى إعجاب طرب له، ومضت أيام ولا حديث لنا إلا عن هذا المطرب الناشئ وجمال صوته وحسن أدائه وطرافته».

. . . .

ويشير الدكتور الديوانى إلى أن معرفته الشخصية بالموسيقار عبد الوهاب بدأت بعد عشر سنوات من اللقاء الأول الذى استمع فيه إليه:

«. . . كانت المرة الأولى التى جلست فيها مع عبد الوهاب فى سبتمبر عام ١٩٣٥ فى قرى (إنجان) من ضواحى باريس، وكنت أعلم أنه يسجل هناك لقطات من فيلم «دموع الحب»، فذهبت إلى هناك مدفوعا بحبى لفنه وبحنينى للوطن وكل مَنْ يمت له بصلة».

. . . .

ويستطرد الدكتور الديوانى إلى رواية ذكرياته مع اسطوانات عبد الوهاب حين اصطحبها معه فى بعثته إلى انجلترا فكانت عاملاً من عوامل رفع معنوياته:

«وعندما ذهبت إلى بعثة التخصص بانجلترا عام ١٩٣٥ اصطحبت معى كل اسطواناته وأضفت إليها مجموعة أغانى فيلم «دموع الحب» مع

نجاة على بعد أن أرسلت فى طلبها خصيصا من فرع شركة بيضافون ببرلين، وكانت هذه المجموعة الفريدة تسلينى فى وحدتى وعاملا كبيرا فى ارتفاع معنوياتى فى بلاد الغربة. ظلت هذه حالة عبد الوهاب مع كل عربى ينفعل به على مختلف العهود والأزمان ولكل أغنية فى نفسه مناسبة عزيزة، فما يكاد يسمعها بعد مر السنين حتى تعود به الذكرى إلى أيام خوال غالية مبعثها صاحب الصوت الجميل والأداء السهل الممتنع».

(٢١)

ونأتى إلى أهم موضع من مواضع حديث الدكتور الديوانى عن الموسيقار محمد عبد الوهاب، وهو موضع مهم لأنه يروى حواراً دار بين الرجلين ونُشر فى حياة عبد الوهاب، وقبل وفاته بربع قرن كامل، وهو ما يدلنا على أن الحديث الراوى للحوار كان متاحاً للنقد والتعليق عليه، وسنرى فى الحوار أن الديوانى وهو المولع بعبد الوهاب كان يأخذ عليه إفراطه فى الاهتمام باللحن، وبروفاته، ويذكره بأن الموسيقارين العظيمين السنباطى وبليغ حمدى لا يفعلان مثل ما كان يفعل من هذا التعذيب النفسى:

«... عن القلق الذى طغى عليه وهو يلحن أغنية «أنت عمرى» حتى أنه أصبح يخشى الذهاب إلى فراشه إذا ما جنَّ الليل لأن معنى هذا كان بداية تفكير فى محاولة تغيير وتبديل فى اللحن، وقال لى: إنه ذات ليلة شعر بانهيار أوحى إليه بقرب نهايته فأسرع يستدعى أولاده بعد

منتصف الليل ليودعهم الوداع الأخير، وهرعت إلى فراشه بعد منتصف الليل أم كلثوم وزوجها الدكتور حسن الحفناوى، ولم يطمئن باله حتى استدعوا له المرحوم الدكتور أنور المفتى، الذى أخذ يطمئنه ويقول له: إن الموت لا يخيف، إنه أسهل مما تظنون! وأقسم لى عبد الوهاب وهو فى أشد حالات التأثر أن هذه كانت كلمات أنور قبل أن يلقى ربه بيومين أو ثلاثة، ولعله كان يتنبأ بمصيره، فشجعته قائلا: أنت محق فى خوفك من شبح الفشل، وأنت القائد والأستاذ الأول، لكن كن شجاعا مثل تلميذك بليغ حمدى على الأقل، لقد لحن لسومة أغانى كثيرة مثل «أنساك ياسلام» و«حب إيه» وغيرها، وهو ينام الليل ملء جفونه، ويصحو متبعشا ليبحث عن نغم جديد، وتأمل زميلك السنباطى الذى عاصرها ثلاثين عاما دون أن يمل الابتكار! فقال: الحق معك».

(٢٢)

ولا يفوت الدكتور الديوانى فى حديثه عن أقطاب الطرب أن يشير إلى ما يستنكره على صديقه الشاعر أحمد عبد المجيد من ابتعاد عن تأليف الأغانى مع تقدمه فى وظائف السلك الدبلوماسى، وربما أن الدكتور الديوانى لم يكن واعياً إلى أن ملكة الشعر ليست كملكة الكتابة طويلة العمر، وإنما هى تتعرض للجفاف المبكر أو التوقف لفترات طويلة وربما تعود بعدها، وعلى كل حال فمن المفيد أن نقرأ هذا العتاب منه لصديقه الشاعر أحمد عبد المجيد وهو يضرب لصديقه المثل بنفسه وإحساسه تجاه العلم والفن :

«إنى آخذ علـى أحمد عـبد المـجيد انزواءه منذ أن أصـبح وزيرا ثم سفـيرا، أفـلا يرانى أبتعد عن الـطب فى بعض الأحيان؟! إننـى عندما أكتب بحثا علميا أقتطع من شـحمى ولحمى قيراطا، وعندما أسرح فى عالم الأدب، أضيف إلى نفسى وذهنى قيراطين!!».

(٢٣)

ولا تخلو مـذكـرات الدكتـور الديوانى من أحـاديث طريفـة ينقلهـا بالرواية عن الجيل السابق لجيله، وكـأنه حريص على أن يقدم للأجيال التاليـة سلسلة من حلقات التـاريخ المتواليـة، وبوسعنا أن نجـتزئ من روايات الدكتور الديوانى فى هذا الميدان فقرة قصيرة يلخص بها حديث أحد أصدقاء والده إليه:

«. . . وتحدث معى عن الماضى البعيد عندما كان ثمن أردب القمح حوالى السـتين قرشا، ورطل السمـن بقرش صاغ، والإثنى عشـر بيضة قرشا صـاغا، وطرائف أخرى مـثل العادة القديمة فى تشـييع الجنازات وأنهم كانوا يمشون على الأقدام من منزل الفقيد حتى المقبرة، وأخبرنى أنه سار فى ألف وخمسمائة جنازة على قدميه حتى القبر».

(٢٤)

لشريكة حياته، وهو يرتب أفكاره فى هذه الجـزئية على نحو جميل فيبدأ بالإشارة إلى شخصية والدها الذى هو خاله، ثم سرعان ما يتطرق إلى ذكر السبب الحقيـقى حسب تصويره وهو أنه رأى صورة هادئة لها، فلما سـأل عمن تكون عرف أنهـا صورة ابنة خالـه التى لا يزال يذكرها

على حالة من الهدوء الواثق حين تركت ساقها لأخيه ليفتح دملا أصيبت به في صغرها.. وبعد هذا كله يحدثنا الديوانى عن الأسباب الموضوعية التي جعلته يختار هذه الزوجة دون غيرها:

«... وكان احترامى لشخصه [الحديث عن والد زوجته] الذى لم تنل الأيام منه فتيلا من أهم أسباب تصميمى على الزواج من ابنته عندما رأيت صورتها عن طريق المصادفة فى منزل ابنة عمى وهى تقلب صفحات دفتر كبير (ألبوم) لصقت فيه صور صديقاتها وأقاربها وقريباتها، ولفت نظرى وجه آنسة بدا عليها الهدوء وحسن الرعاية، فسألتها عنها فقالت هذه خيرية ابنة خالى نبيه، فتذكرتها فى الحال وتذكرت فيها الطفلة الوديعة المتناسقة التقاطيع التى سلمت ساقها وهى طفلة فى الثامنة من عمرها لأخى المرحوم الدكتور عبد المنعم ليفتح لها دملا صغيرا دون تخدير عام أو موضعى، فلم تفقد هدوءها المشهور عنها، ولم تبد عليها أمارة من أمارات الألم أو الخوف، وفى أقل من لمح البصر كونت فكرة عما يجب أن تكون عليه زوجة الطبيب من هدوء الأعصاب وتحمل أثقال المعركة الدائمة بين الطبيب ومريضه، والتى لابد لاستمرارها من حصانة فى الطباع والخلق».

وبعد كل هذه التفصيلات ينبئنا الدكتور الديوانى بقراره المنطقى الذى اتخذه فى هدوء:

«مرت هذه الخواطر فى تجاويف نفسى وأنا أنظر إلى صورة تلك الآنسة الهادئة، وطلبت من ابنة عمى أن تخطبها لى دون أن أراها، مكتفيا بالفكرة التى كونتها عنها وعن والدها ووالدتها».

(٢٥)

ومن ناحية أخرى يحرص الدكتور الديوانى على أن يناقش فكرة رضا الزوجة عن الزوج من واقع خبراته فى الحياة الاجتماعية، وهو لا يقدم جديداً فيما يناقشه لكنه يبلور المنطق بطريقة الأطباء فحسب، ويبدو أنه كان يخاطب بهذا الذى كتب إحدى القريبات منه، سواء كانت هذه القريبة زوجه أو غيرها، ولنطالع قوله فى نهاية تحليل طويل:

«. . . فلا زوجة الطبيب قانعة رغم ما يغدقه عليها زوجها من وسائل الراحة المنزلية واللمعان الاجتماعى، ولا زوجة المتفرغ راضية عن نفسها لأنها تنقصها حاجات وحاجات، ونصيحتى لكل سيدة على حدة ألا تغتر بابتسامة صويحباتها، فهى فى أغلب الحالات سطحية لا يراها إلا الغريب».

(٢٦)

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية التى يحرص الدكتور الديوانى على نقدها سوء الخدمة فى سكك حديد مصر، وهو يعبر عن انتقاده بجملة ساخرة يبلور فيها النصح بألا تستعمل من مهمات سكك حديد الحكومة المصرية إلا القضبان والقاطرة:

«. . . إذا شئت أن تسافر إلى جهات بعيدة كالأقصر وأسوان مثلا، فلا تستعمل من مهمات سكة حديد الحكومة المصرية إلا القضبان والقاطرة، أما عدا هذا فإرهاق وكلال وملل. إن الفارق بين تكاليف عربات النوم التابعة لشركة أجنبية والعربات التابعة لمصلحتنا الحكومية

لا يعـدو بضعـة جنيـهات لا ترهق المـقـدم على رحلة طويلة كـثيـرة النفقات. إن المسافة بين العربتين لا تعدو بضع الخطوات، لكنك تشعر بانتقـال غريب من جـو إلى جو. فمـوظفو عربة النـوم من طينة أخرى مشبعة بطابع اللياقة واحترام الغير ونظافة المظهر، وكلها طباع لا تكلف صاحبها شيئا، ولكنها هداية من الله أسبغها على هؤلاء الأجانب بسخاء فاسـتغلوها أحـسن استغـلال حتى بزوا غيـرهم فى تأدية الواجب على الوجه الأكمل. لو علم الشرقى أن من أسهل السهل عليه أن يكون مؤدبا لبقا فى معاملة الناس، لزالت من سحنتـه غبرة التحدى التى تلحظها فى صغار المحتكين بالجمهور من موظفين فى أول درجات السلم، ينصبون من أنفســهم آلهة ويعاملونك بـطريقة لا يمنعك من صفـعهم إلا الأدب الذى لا يكلف شيئا».

. . . .

وفى وسط هذا الحديث عند الحديث عن عربات النوم التابعة لشركة أجنبية يفتح الدكتور الديوانى قوسين للتحفظ ويقول: «كان هذا وما بعده فى عام ١٩٤٥»، وكأنه يريد أن يؤكد على أن الزمـان الماضى قبل نهاية الحرب العالمية كان مختلفا تماما.

(٢٧)

ولا يقف انتـقاد الدكـتور الديوانـى لبعض صـور الأداء الوطنى عند حدود السكك الحديدية المصرية التـى قارنها بالسكك الحديدية المدارة

بالأجانب على نحو ما رأينا فى الفقرة السابقة، لكنه يمتد بنقده إلى نقد سلوك السيدات المصريات فى أثناء زيارة الآثار، وهو يقارن بين هاتيك السيدات وبين نظيراتهن الأجانب مقارنة يصعب تمريرها دون تأمل عميق:

"... وخيل إلىّ لفرط نضارتهن [الحديث عن السيدات الأجنبيات] أن عشر ساعات على الأقل قد مضت منذ استيقاظهن الذى لم يكن قد مضى عليه سوى ساعة أو أقل، ووقفت بجانبهن أربع سيدات مصريات قضين الوقت فى تثاؤب وتثاقل وكأنهن مقدمات على واجب غير مرغوب فيه، مع أن الأجداد جدودنا والآباء أباؤنا".

□

ونحن نرى نموذجا ثالثا لانتقاد عادات الفوضى عند المصريين ومقارنة هذه الفوضى بنظام الآخرين عندما يتحدث فى مذكراته عن الفرصة التى أتيحت له للقاء رجل الفضاء السوفيتى جاجارين عند زيارة كل منهما لأسوان، وهو لا يستنكف [من باب الحب وتمنى الأفضل بالطبع] أن يصف جماعة قومه بانعدام الانسجام:

"... قدر لى عند وصولى إلى مطار أسوان أن أرى رجل الفضاء جاجارين، فقد وصلت طيارته بعد وصولنا بأقل من نصف ساعة.. وانتظرت حتى هلّ علينا بوجهه الوضاء الباسم، واستقبلته جمهرة من مواطنيه الروس اصطفوا فى نظام وأناقة جنبا إلى جنب، مع مواطنينا

الذين انعـدم الانسجام بينهم كـالعادة لاخـتلاف لباس الـرأس والجسم والقدمين فبدوا كمجموعة متنافرة، لا ترتاح العين لرؤيتها . . أضف إلى هذا تجاهل النظام، فاندفعوا يحيطون بالرجل الباسم الذى تصبب العرق من جبينه لفرط ما أحيط به من حرارة الجو وضغط المعجبين».

. . . .

وهو يخصـص أيضا صفـحات لنقـد تصرفـات الحجاج فـى موسم الحج، ويشير أيضا إلى أخطاء الدولة فى الحجر الصحى فى الطور.

وهو يصل فى ضجره من نقص الخدمات الإنسانية فى موسم الحج إلى أن يصف نفسـه بعد إحـلاله من الإحرام فى الحج بأنه عـاد إنسانا (!!)، ومن المؤسف أن يقع الدكـتور الديوانى فى مثل هذا التـعبير غيـر الموفق على أى مستوى . . ونحن لا نستطيع أن نلتمس له عذراً أى عذر فيه .

«فما كدنا نرجع إلى (منى) حـتى رطبنا أجسامنا بالدش البارد وحلقنا ذقوننا ولبسنا الملابس العادية وصرنا آدميين من جديد».

(٢٨)

ويحفـل كتاب الدكـتور الديوانى بكثـير من الشكـوى من الإجراءات البيروقراطية التى كانت إدارات الجوازات تمارسها وتحرص عليها، وهو لا يورد هذه الشكاوى مـباشـرة ولكنه يلفـهـا بما كـان لابد له فى ظل الشموليـة من أن يمرر به مثل هذه الشكاوى فى صـورة شكر أو سعادة

باختفاء بعض ما يشكو منه، وهو فى الفقرة التى نطالعها يثنى على قرار الجوازات المصرية بالعدول عن بدعة كانت تأخذ بها فتقوم بكشط بعض البلاد حتى لا تسمح بسفر المواطن إليها، وهو ما لم يكن له نظير فى أى بلد من بلاد العالم، وقد كان هذا التصرف يجعل الأطباء المصريين من طبقة الدكتور الديوانى يقفون أمام موظفى الجوازات فى البلاد الأجنبية بالساعات، على حين يعجب زملاؤهم من البلدان الأخرى من جدوى مثل هذه التصرفات، ولنقرأ ما يرويه الدكتور الديوانى وقد وضعه فى صورة دواء مستساغ الطعم خُفف بشكر (أو سكر) مصطنع تماماً:

« . . . كذلك اختفت بدعة كشط ولا أقول شطب أسماء البلاد من جواز السفر لتحديد تنقلاتك مما سبب لنا فى كثير من الأحيان حرجا أمام زملائنا من البلاد الأخرى، بل كثيرا ما توقف موظفو المطارات فى مختلف بلدان العالم ناظرين فى تعجب لهذه الظاهرة، وإن تطوير العملية لهذه الدرجة قد حفظ للمواطن كرامته داخل البلاد وخارجها، ونحن قد وصلنا إلى درجة من الاستقرار تحسدنا عليها كثير من الأمم، لذلك نطلب المزيد من تسهيل عملية الدخول والخروج».

. . . .

ويصل الدكتور الديوانى فى نقده لتصرفات إدارة الجوازات المصرية إلى أن يذكر أن أحد أقاربه انقطع عن زيارة مصر منذ ربع قرن بسبب

خوفه من إجراءات الجوازات.. وسرعان ما يردف الدكتور الديوانى مباشرة(!!) بالتأكيد على وطنية قريبه هذا وفخره ببلاده:

«... وهو وطنى متحمس، به حنين إلى الوطن شديد، ولو لزيارة قصيرة ليرعى مصالحه بعد وفاة والده المحامى الكبير المرحوم أحمد الديوانى. لكنه يخشى - مثل كثيرين من المصريين الناجحين هناك - من تعسف إدارة الجوازات عندما يريد الرجوع ثانية إلى زوجته وولده فريد وعمله الناجح. لقد مضى عليه فى انجلترا خمسة وعشرون عاما عاصر فيها عهود فؤاد وفاروق ثم الثورة، ويحدثنى دائما عن تطور نظرة الفرد الإنجليزى نحونا منذ قامت الثورة، وعندما يسأله بريطانى من أين أتيت؟ يجيبه من الجمهورية العربية المتحدة لأنه فخور بها».

....

وهكذا يصل الدكتور الديوانى فى هدوء فى نهاية حديثه إلى طلب المزيد من تسهيل عملية الدخول والخروج.

(٢٩)

ونحن نطالع فى ثنايا مذكرات الدكتور الديوانى كثيراً من ملامح التاريخ الاجتماعى للفترة التى عاشها، وتدلنا مذكرات الدكتور الديوانى على سبيل المثال على مدى العنت الذى كان يلاقيه الأطباء والعلماء إذا ما اعتزموا المشاركة فى مؤتمر من المؤتمرات الدولية، وبوسعنا أن نقرأ

بعض ملامح هذا المعنى فى مذكرات الدكـتور زكى سويدان أيضا، فإذا ما أخذنا فى الاعـتبار أن الديوانى كان واحداً من الـمحظوظين جداً فى هذه الناحيـة، وأنه كان قادراً على الوصـول إلى المسئولين والحـصول على ما لا يسـتطيع غيره الحصـول عليه من الموافقـات والاستثناءات، لأدركنا حجم العزلة التى كان المجتمـع العلمى المصرى يعيش فيها فى تلك الفترة، ولنقرأ ما يرويه الدكتور الديوانى:

«. . . وقد كان المـؤتمر الآسيوى الإفريقى الثـانى لأمراض الأطفال بجاكرتا من أسـعد المؤتمرات حظا، وشرفتنى الدولة وزمـلائى ممدوح جبر وعلى عبد العال وزهيرة عابدين بالسـفر لتمثيل بلادنا الغالية، وكان علينا أن نسـافر فى خلال ٢٤ سـاعة لأن الأمـر بالسفـر صدر يوم ١٨ أغسطس ،وميعاد انعقاد المؤتمر يبدأ من يوم ١٩ منه،وكلنا يدرى تعقيد الإجراءات من ناحيـة النقد وإجراءات الأمن وخلافهـا، وفوجئنا بالدولة تقرر لنا ـ حـسب قاعـدة مالية ثابتـة لجمـيع المسافـرين لإندونيسـيا ـ بحوالى خـمسة عـشر جنيها فى الـمجموع لمـدة انعقاد المـؤتمر وهى أسبوع بالتمام والكمال،ولولا الدكتـور القيسونى وزير الخزانة الذي أنقذ رقبتنا بفضل أفقـه الواسع لتعرضنا لفضيحة هائلة،فقـد حجزت لنا هيئة المؤتمر فى فندق إندونيسـيا الذى لايقبل إلا الدولارات، وتبلغ تكاليف الإقامـة به عشـرة دولارات خلاف وجـبات الأكل التى يلزمـها عـشرة دولارات أخـرى، ولكن شكرا لله وله على أية حـال،فقـد أتيـحت لنا فرصة الحـياة لدراسة هذا الجزء من العالم،ومـا سردت هذه الوقائع إلا

لإرشاد ولاة الأمور قدر مـا أستطيع، وليفيد من نتائـجها مَنْ يوفدون فى المستقبل لهذه البقاع السحـيقة، فتجنب المواطن الإحراج أو الحرج فى بلاد الغربة».

(٣٠)

وفى إحدى فقرات مذكراته يحرص الديوانى على تكرار الحديث عن أمنيـته فى أن يرى عـدداً أكبـر من أطبـائنا وهـم يحضـرون المؤتمـرات العلمية فى الخارج ليرضعوا لبن العلم:

«... عـقـد فى أثناء إقـامـتى هنا المـؤتمـر الدولـى الثـانى لعلم الأقربازين، وحضره ثلاثة آلاف طبيب من جـميع أنحاء العالم. اطلعت على برنامج المواد التى ألقيت فيـه، فوجدت الروعة وعلو الكعب [كان هذا التعـبير من التـعبيـرات السائدة فى العصـر الذى تعلم فيه الدكـتور الديوانى، وهو يقابل تعبيراً معاصراً فـى لغة الشباب يقول بالعلو مباشرة دون إسناد العلو إلى الـكعب]، وأسـفت لأننى كنت أتمنى لو حـضـر المـؤتمر كل المـخـتـصـين بهـذا النوع فى مصـر ليـرضعـوا لبن العلم والمعرفة.. ولـم أعـثر هنا إلا على الأستاذ الدكتور محمـد أمين خيال، وقد سمح له بالخروج على أساس زيارة ابنه فى لندن».

(٣١)

ويضرب الدكـتور الديوانى مثـلاً غريب الشـأن للحلول البيروقـراطية التوفيقيـة التى كان كبار الأطباء من أمثاله يلجأون إليـها من أجل تسهيل

اشتراكهم فى المؤتمرات العلمية، أو سفرهم للخارج، ولا يعجبن المرء من هذا الذى يرويه الدكتور الديوانى، فقد كانت البيروقراطية قد توحشت تماماً فى ظل الشمولية، وكان السياسيون يظنون أنهم قد نجحوا فى السيطرة على مجريات الأمور فى كل جوانب الحياة ومجالاتها.. ومن العجيب أن الدكتور الديوانى، حسبما يروى، يحرص على أن يذكر أنه كان فى مدينة براج حيث عقد مؤتمر طبى مهم لكنه لم يحضر المؤتمر الذى دعىّ إليه التزاماً منه بكلمة الشرف التى أعطاها لرجال المباحث ألا يحضر هذا المؤتمر(!!) وهو بحس أدبى متميز يلجأ إلى تصوير حالته فى ذلك اليوم بأنها كانت كحال الفتى الذى رأى أضواء حفلة عرس حبيبته وقد زفت إلى غيره.. ولا يكتفى الدكتور الديوانى بكل هذا الألم الذى يصوره لكنه يردف أنه قص قصته على سفيرنا وعلى مستشارنا الثقافى (وكان يعرفهما) فأقراه على ما فعل وهما آسفين مؤكدين على فهمهما من أن كلمة الشرف تقتضى هذا!!

ولنقرأ القصة كاملة على نحو ما يرويها الديوانى:

«... وكانت الهيئة التى دعتنى قا نصت فى خطابها على أنها اشتركت لى فى مؤتمر أمراض الكلى الدولى المنعقد فى براج ضمن برنامج زيارتى التى تكفلت بنفقاتها مشكورة فما كاد المختصون يلمحون كلمة (مؤتمر) حتى حدث هرج ومرج، وقالوا: يجب أن تصلنا موافقة مجلس الكلية ومجلس الجامعة ووزير التعليم العالى قبل

أخذ التأشيرة، وهذه إجراءات تستغرق شهرين. . وقد وصلتنى الدعوة قبل ميعاد سفرى بأسبوع. . فوعدت صديقين بالمباحث العامة بأننى سأقتصر على زيارة المستشفيات، وكتبت تعهدا بأننى لن أحضر المؤتمر، وذلك رغم أننى كنت حاصلا إذ ذاك على تأشيرة الخروج، فقبلا مشكورين هذا الحل الوسط، وأخذت التأشيرة».

«وفى ذات يوم أشرقت شمسه، كنت أسير فى شوارع براج ومررت بمكان انعقاد مؤتمر أمراض الكلى، فلمحت الوافدين إليه من جميع أنحاء الدنيا يضعون الشارات على عروات ستراتهم فى غبطة وسعادة الوافد من بعيد للإفادة والانتهال من موارد العلم والمعرفة».

. . . .

«وكدت أخطو نحو السلم لأرى فقط ما يجرى هناك، ولكنى تذكرت الوعد الذى قطعته على نفسى، وانصرفت آسفا، وفى القلب غصة وفى العين دمعة تترقرق كما تقول الأغنية: شفت الفرح والهنا. . وشربت كاس الضنا».

«عندما ندب الفتى حظه العاثر وهو يرى أضواء حفلة عرس حبيبته».

«ولما قصصت قصتى على السفير الوديع المهذب محمد كامل الرحمانى ونحن جلوس إلى مائدة غداء بفندق الكرو، تكرم بدعوتى إليه مع المستشار الثقافى محمد شكيب، قال لى بهدوئه المحبوب: «إن كلمة الشرف تقتضى منك هذا بكل أسف».

(٣٢)

وبعد كل هـذا الحديث عن تجـربته العلمـية مع المؤتمـرات (على مدى الفترة التى انقضت من عهد الثورة حتى نشره لمذكراته فى ١٩٦٥) يقدم الدكتور الديوانى التماسه إلى ولاة الأمر (دون تحديد) من أجل أن يفتحوا باب العلم لأساتذة الطب:

«فلعل فكرة حضور المؤتمرات الدولية ـ كمؤتمر الجزائر مثلا ـ تلقى قبولا لدى ولاة الأمور. . فهى ليست لهوا، بل إنها مضنية، وفيها صقل وعلم واطلاع واتصال».

(٣٣)

ومن الفقـرات الشجاعـة التى تضمنتهـا مذكرات الدكـتور الديوانى، تلك الفقـرات التى يصف بها زيارة قـام بها ضمن وفـد من الأطباء إلى «بيت صفافة» فى فلسطين المحتلة حيث اكتوى بمشاهدة السلك الشائك الذى يفـصل بين النصفـين أو القطاعـين العربى والإسـرائيلى من هذه القرية، ولو أن القـراءة كانت منتشـرة بين قومنا لكان لمثل هذه الفـقرة التى كتبهـا الدكتور الديوانى فى مرحلة مبكرة أثرها المـعنوى فى فهمنا للقضيـة الفلسطينية التى لم نكن ندرك أبعادها الحـقيقيـة، فهذه الزيارة تمت عام ١٩٦٤ حسبـما يتضح من نص الحوار الذى تقول فـيه السيدة إن قومها انتظروا عـلى هذا الوضع المهين ستة عشـر عاما (أى منذ عام

١٩٤٨) حين حدث التقسـيم، ومما يؤسف له أن هذا الواقع المر الذى صوره الدكتور الديوانى فى لمحة خاطفة كان غائبا عن وعى جماهيرنا، بل سياسيينـا كذلك، ولم يكن هناك، بل لا يزال هناك، مَنْ لا يستحى من وصف عـرب فلسـطين الذين بقـوا فى بيـوتـهم تحت الاحـتـلال الإسـرائيلى بأنهم عـرب إسرائـيل، بل يصورهـم بعضنا كـأنهم خـانوا القضية، وكأن الوفاء للقضـية لا يكون إلا بترك الوطن والبيوت والتحول إلى لاجئين.

ومن المهم إذاً أن نقـرأ هذا الذى سجله الدكتـور الديوانى ورواه قبل وقوع حرب ١٩٦٧ وما قادت إليه من نتيـجة كارثية ضاعفت هذه الآلام ولا تزال تضاعفها أضعافا مضاعفة:

«. . . ويدهشك أن تتأمل كـيف أن نصفهـا تابع لليهود ونصفـها فى القسم العـربى وبينهمـا سلك غير شـائك، وبين السلك والآخر مسـافة عشرة سنتيمترات، وبين بيوت الناحـيتين متران فقط، وقد يشطر السلك العائلة الواحدة إلى فريقين أحدهما بالقطاع الإسرائيلى، والاتصال بينهما محـرم تحريمـا باتا، فإذا مات فـرد من العائلة سـارت الجنازة ونصف أفرادها فى القطاع العربى والنصف الآخـر فى القطاع الإسرائيلى ويفصل بين الفريقين ذلك السلك القاتل! «أما القسم العـربى فإنهم يقدسون عبد الناصر لدرجة العبادة، ويعلقـون عليه الآمال الكبار، والحال فى القطاع الإسرائيلى يختلف حسب شخصية المتكلم، ودرجة إفادته من عمله مع

اليهود، لكن الشعور العام هو الثورة على الوضع الحالى، فهذه سيدة تنظر إلى المتفرجين فى تحد وتقول: كان أولى بكم - بدل أن تأتوا لتتفرجوا وتشبعوا هوايتكم التصويرية - أن تكسروا هذا السلك الذى يفصلنا عنكم وتدخلوا، فقد طال انتظارنا ستة عشر عاما طوالا. وهذه سيدة أخرى ما كادت ترانا وتسمع لهجتنا المصرية حتى هاجت وماجت وطلبت من الواقفين أن يهيبوا بعبد الناصر أن يهم لإنقاذهم مما هم فيه. ولن أنسى تلك المرأة من القطاع الإسرائيلى عندما أخرجت من جيبها مصحفا مذهبا خبأت بين طياته صورة لعبد الناصر بحلة الميدان وقد بدت على وجهه أمارات القوة والصرامة والكراهية للأعداء، وصاحت وهى ترينا الصورة: سلموا على أبى خالد! نحن فى الانتظار!».

ويصل الدكتور مصطفى الديوانى بعد تسجيل كل هذا الحماس إلى قوله:

«... وتركنا بيت صفافة وقد شحنت نفوسنا بالأسى والحقد على هذه الأوضاع، وقلت لنفسى: ياليت العرب جميعا يحضرون إلى بيت صفافة حتى يتضافروا على كسر السلك ودمج القطاعين من جديد!».

(٣٤)

وتحفل المذكرات بكثير من الحديث ذى الشجون وذى الهموم عن المصائب أو الهزات العاطفية التى اعترت حياة صاحب المذكرات، وهو يفيض فى الحديث عن آلامه ووصف هذه الأيام، وآثارها فى عقليته

ونفسيته وجسده على حد سواء، ولنقرأ على سبيل المثال هذه العبارة في وصف فقده لأخيه محمود:

«رزئت بفقد أخي محمود ذات يوم مشئوم يسميه التاريخ بالثامن عشر من شهر نوفمبر عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين بعد الميلاد، فخيل إليّ إذ ذاك أن عالم المادة قد انتهى بالنسبة إليّ، وتخاذلت في ضعف».

□

ولنطالع الصورة التالية غير الموفقة التي يظن صاحب المذكرات أنه يعبر بها عن حزنه بطريقة صادقة، بينما الصورة موحشة وغير لائقة بل هي منفرة:

«وخرجت أتعثر وأنا أضن أن أنفض عن حذائي غباره الطاهر الذي أصبح فقيدي من جزئياته»..

وهو يذكر أخاه حين يجيئه طيفه في المنام فيقول:

«وزارني طيف أخي في المنام ذات ليلة، فحز هذا في نفسي، إذ كيف يعاتب مَنْ كان يود لو يفتديه بما ملكت يمينه ويساره، وتكررت زياراته الليلية فهتفت من قلبي قائلا: «يادنيا الأحلام ارحميني، ويا أطياف الذكرى فكي قيدي وأطلقيني، ويا أيتها الروح أعف عني وسامحيني».

□

ويعبر الدكتور الديوانى بعبارات مؤثرة عن شعوره بالذنب تجاه شقيقته التى ماتت بالتيفود، وهو يروى بعض ما كان يؤلمه حين كان يعتقد أنه كان السبب فى موت شقيقته بما نقل إليها من جرثومة التيفود:

« ... ظلت هذه الذكرى تتعقبنى سنين طوالا لاعتقادى أننى كنت السبب فى موتها فى هذه السن المبكرة، لأننى نقلت إليها جرثومة التيفود فاستقبلته طائعة مختارة مضحية بنفسها فى سبيل رعايتى والعناية بى فى أثناء مرضى، رحمها الله رحمة واسعة».

□

ويعبر الديوانى عن مشاعر عدمية تنتابه من حين لآخر حتى ليكاد يفضل أن تكون الحياة بلا أصدقاء، وهو على سبيل المثال يقول:

«لو علم الإنسان كل هذا لما فكر فى اتخاذ صداقات كبيرة أو كثيرة، من مشاهداتى فى الحياة أدركت أن التفانى فى الحب والصداقة لا يدوم بعد زوال أحد الطرفين».

(٣٥)

وكذلك يعبر الدكتور الديوانى عن حيرته الشديدة تجاه الحياة وتقلباتها وهو يعترف أنه أصبح لا يفهم سر الحياة والوجود:

«... منذ هذا الحادث أصبحت لا أشعر بمرارة الانتظار مهما طال، وكنت قبله أبرم إذا تأخر قطار عن موعده بضع دقائق، فماذا عاد يعنينى مادام

هو يحملنى إلى حيث لا شجن، أو يحمل إلىّ عزيزا يتمتع بدفء الحياة».

وفى موضع آخر يقول:

«وهذا الشيء الذى يسمونه النسيان، أهو فضيلة أم رذيلة؟ إنه وحق السماء كلتاهما».

□

ولا ينبغى لنا أن نغفل إشارة الدكتور الديوانى إلى مروره بتجربة العلاج الروحانى عند ذكره وفاة أخيه، وهو يخصص لشرح تفاصيل هذه التجربة أربعين صفحة من مذكراته.

□

ومع هذه العدمية السائدة فى كثير من فقرات الكتاب، فإن الرومانسية تطل فى كثير آخر من الفقرات، وهذه على سبيل المثال فقرة من فقرات الثقة بالنفس والأمل فى الحياة:

«ومما هو جدير بالذكر أن مقدمة برنامج «ما يطلبه المستمعون» فى الإذاعة هى المارش الذى يعزف فى بدء معركة الثيران (مارش الماتادور)، وفى كل مرة كنت أسمع فيها هذا اللحن كنت بالتبعية أحن إلى الوطن الحبيب السهل اللين الذى لا مثيل له فى الوجود».

(٣٦)

ومن أكثر فقرات مذكرات الدكتور الديوانى مدعاة للعجب وللدهشة تلك الفقرات التى يحدثنا فيها عن تمسكه بأهداب الفضيلة فيما يتعلق بتقديسه للزوجات والأمهات اللائى كن يترددن عليه بحكم مهنته، ومن الغريب أن الدكتور الديوانى يورد هذا الحديث مختلطاً بحديث آخر ينقل فيه مع تظاهر شديد بالدقة فى الرواية، ملحوظات زوجين أمريكيين صديقين عن افتقاد زملاء الدكتور الديوانى الكبار للفضيلة والخلق الحسن فى معاملتهما ووقوعهما فى براثن «الطفولة الجنسية»، ولنقرأ هذا الذى يقدمه الدكتور الديوانى بأسلوب صريح مباشر مفتقد لأى درجة من درجات التلطف أو التحذير:

« . . . وأنا منذ فتحت عيادتى فى عز الشباب أقسمت بينى وبين نفسى ألا أستغل ثقة الزوج، وأصبح تقديس الأم والزوجة عادة سهل علىّ تطبيقها على جميع الأوساط التى احتكت بى وأغدقت علىّ قناطير من الثقة ناء بها كاهلى، وقد طبقت هذه القاعدة دون مجهود على هذا الكهل الأمريكى وزوجته، وفجأة مال علىّ الزوج وربت على ركبتى القريبة إليه وقال: أتدرى يا مصطفى لماذا دعوتك لتكون ضيفى فى كان دون بقية أصدقائنا المصريين الذين تعرفنا عليهم فى مصر؟ وترك صديقى الأمريكى مهمة الرد إلى زوجته الجريئة نوعا فانبرت تقول دون تردد: لأنك الوحيد الذى لم يقرص فخذى من تحت المائدة فى حضور

زوجي أو غيابه، ولما شاهدت علامات الاستغراب على وجهى اندفعت تقول فـى عصبـية زائدة: مـاذا دهى رجالكم خـاصة المـسنين منهم؟! أتدرى أن فلانا صديقك كان يلاحقنى بالليل والنهـار ويتصل بى تليفونيا فى حضور زوجى ويراودنى عن نفسى بينمـا زوجى يستمع ساخرا؟ وأن فلانا صـديقك هرأ فخـذى قرصا عندمـا دعانى مع جـيجى (وهو اسم التدليل الذى تغدقه علـى زوجها) للعشاء فى الهيلتون؟ واسـتمرت تعدد مناقب القديسين الأبرار الذين قـدمتهم إليهما وأنا أتعـجب أشد العجب متحـيرا بين تصديقها أو اتهـامها بالمبالغـة التى تلجأ إليها مثـيلاتها من المتزوجـات من أشخاص يفرق بينهـما السن إلى حد كبيـر حتى تغرس بذور الثقة أكـثر وأكثر فى قلب المحب العـجوز؟ مع تأكدى فى الوقت نفسه أنها زوجة شريفة مائة فى المائـة، وختمت حديثها بقولها: ما هذا العطش الجنسى الذى يقاسـى منه رجالكم؟ وما هذا الرياء الاجتـماعى الذى يسيـطر على مجتـمعكم؟ لمـاذا لا تتخلصـون من هذا الكبت و[تكونون] صريحين؟ لماذا تحرمون التويست وغيرها من الرقصات العنيفة فى المحال العامة بينما ترقصونها فى البيوت؟!».

وبعد كل هذا المونولوج الطويل يردف الدكتور الديوانى بقوله:

«وكنت أنصت إليها وأنا ألتمس لها العذر فى ثورتها، فقد تكون تذكرت القرصات التى هرأت جلدها والتى أغدقها عليها إخواننا المصريون».

(٣٧)

ومن أطرف مـا تتضـمنه مـذكرات الدكتـور الديوانى عنايتـه الفائقـة بالحديث عن النهايات، ونحن نعرف أنه ألف كتاباً عن نهاية نابليون الذى

كان مغرماً به، وقد جعل عنوان هذا الكتاب «نابليون فى فراش المرض»، كذلك عُنى الدكتور الديوانى فى مواضع متفرقة من كتاباته بوصف نهايات الحياة، ونحن نراه فى حديثه عن أسرته الصغيرة مغرماً بتفصيل القول فى الصورة التى انتهت عليها حياة كل منهم، وهو فى مذكراته يخصص فقرات للحديث عن وفاة الدكتور على باشا إبراهيم فيجيد تصوير هذه النهاية ، وكذلك يفعل فى كثير من حديثه عن كثير من الشخصيات.

(٣٨)

وتحفل مذكرات الدكتور الديوانى بكثير من العبارات الإنشائية التى يحاول أن يصور بها المعانى الإنسانية والتجارب الحياتية التى مرّ بها، ومع أن تصويرات الدكتور الديوانى تحفل بالكليشيهات التى كانت تثقل الكتابة فى ذلك العصر كنتيجة طبيعية لأسلوب تعليم الإنشاء فى المدارس، فإننا ونحن فى القرن الحادى والعشرين نشعر باللذة من التصوير وتسجيل المفارقات وبراعة الانتقال بين المشاعر المختلفة، ولنقرأ على سبيل المثال هذا الوصف الذى يقدمه الدكتور الديوانى للطفل المريض:

«إنه يرى الأفق من بعيد فيخاله فى قبضة يده، ويعيش للساعة التى هو فيها غير مفرق بين أمسه وغده.. إنه يخدع نفسه أحيانا ولكن يخدع طبيبه كثيرا وكثيرا جدا.. كم من مرة تركته فى الصباح عند عيادتى له فى حالة تشجع على بث الطمأنينة فى جو القلق الذى يحيط به.. أقسم أنه يبتسم فى وجهى ويشد على يدى بيده الصغيرة مشجعا مقدرا، فإذا ما أتى المساء استدعيت على عجل، فأذهب إليه مسرعا ويا لهول ما

أرى! مريض يخادعك دون قـصد، فهو ساذج بـرىء تغدر به الدنيا أول مرة ولم يعهـد منها من قبل غير عطف الـزمان والرقة والحنان، لا تكاد تدخل عليه حـتى ينظر إليك نظرة عتاب قد تكون الأخـيرة، وتظل هذه النظرة تتعـقبك أياما وليالى حـتى تطغى عليها أحـداث جديدة لا تخلو منها حـياة الطبـيب، بل هى جزء مكمل لبـرنامجـه اليومى، لسـعة إثر لسعة، ولفحة تعقبها نسمة، وكل جرح بميعاد».

الباب الرابع

يوميات طبيب فى الأرياف

الدكتور دمرداش أحمد

(١)

هذه مذكرات صغيرة الحجم لكنها عظيمة الفائدة، ومع أنها تناولت فترة قصيرة من حياة صاحبها إلا أنها بلورت نظرته للحياة من خلال حياته كلها لا من خلال هذه الفترة القصيرة فحسب، فهو لا يروى ذكرياته أو يومياته عن هذه الفترة على نحو ما حدثت أو على نحو ما خبرها حين حدثت، وإنما على نحو ما أصبح يراها ويفهمها حين كتب مذكراته، وهو يعود إلى يومياته لينقل منها ما سجله لكنه لا يفعل هذا إلا بعد أن يكون قد قدم لما كتب وسجل بمقدمات وافية بغرضه أو شافية لنفسه.

تخلو هذه المذكرات من الطعن فى الثورة وعهدها، كما تخلو من الهجوم على الثورة وإنجازاتها أو أخطائها، مع أن صاحب هذه المذكرات كان واحداً من الذين أوذوا فى عهد الثورة إيذاء شديداً حتى إن نجيب محفوظ يضرب به المثل فى الإيذاء الذى نال ذوى الكفايات الفنية لا لشىء إلا لأنهم أبدوا رأيهم الفنى!!

ونحن نرى صاحب هذه المذكـرات يشير فى نهايتهـا إلى المذكرات التى كان أولى به أن ينشرها لكنه يعترف أنه عاجز عن أن يجد فى نفسه القدرة على أى عمل بل على الحياة نفـسها، وهو يقول فى هذا المعنى ما نصه:

«. . . كان المفروض أن تستمر كـتابة هذه المذكرات حتى تستوعب حياة الطبيب من عام ١٩٣١ إلـى عام ١٩٥٠، وهى المدة التى احترف فيها مهنة الطب فى الريف. ولكن ظروفاً قاسـية اعترضت حياة الطبيب فصـرفتـه عن الكتابة وعن الحيـاة جمـيعاً، وأوشكت أن تـزلزل إيمانه العميق. وعـاش منذ عام ١٩٦١ إلى اليوم يحاول أن يلم شتـات نفسه، ويكافح ليقى نفسه وأسرته ويلات الفاقة والحـرمان، حتى أدركته رحمة الله فانتصر على ما حاق به من ظلم».

وهو بعد هذه الفقرة يتساءل فى حيرة متحدثا عن نفسه بضمير الغائب فيقول:

«هل تنفـسح له الحـياة وتـسمح الظروف فـيـعود لاسـتكمـال هذه المذكرات؟».

«الله سبحانه وتعالى أعلم».

□

وعلى النقيض مما نتوقعه من هذه الحيرة والشعور بالاضطهاد والظلم فإن هذه المذكرات تسجل بكل ذرة من كيان صاحـبها حين كتبها روحاً

وطنية متعلقة بالوطنية إلى أبعد حدود، حتى أننا نرى الطابع المسيطر على المذكرات هو الانتصار للمصرى فى مواجهة الأجنبى، وليس الشكوى من ظلم المصرى لأخيه على نحو ما هو متوقع من صاحب تجربة أوذى فى عهد الحكم الوطنى بما لم يؤذ فى عهد الأجانب، وهكذا فإننا نرى المذكرات تشكو بل تجأر بالشكوى من ظلم الأجانب الذين كانوا يتحكمون فى مقادير الوطن من خلال الشركات الأجنبية، بل تطلعنا هذه المذكرات على مدى الظلم الذى كان يحيق بالوطن نتيجة امتيازات هذه الشركات وغطرسة مديريها وتخاذل الوطنيين فى مواجهة هذا الافتراء، ونحن نحس بدقات قلوبنا حين نقرأ التفصيلات التى توردها هذه المذكرات عن صورة من صور هذا الصراع النفسى العميق الذى اعترى صاحبها حين وجد نفسه فى مواجهة قوة أجنبية عاتية لم يكن فى وسعه نظريا أن ينتصر عليها، ولا نزال نشعر بالقلق والخوف يتناميان فى نفوسنا على مستقبل هذا الطبيب الشاب حين آثر بمفرده أن يواجه بنفسه قوى عاتية لم يكن النصر عليها ممكنا، لكنه وجد نفسه عاجزاً عن أن يتصور نفسه وقد سلم لهؤلاء بما لا ينبغى له أن يسلم لهم به!!

لهذا السبب فإننى أرى أن من الأفضل أن نبدأ مدارستنا لهذه المذكرات بقراءة قصة صراع صاحب المذكرات مع شركة أجنبية كانت تمارس نشاطها الاقتصادى بالقرب من عيادته التى افتتحها فى قرية قريبة من القاهرة، بيد أننا نجد أنفسنا قبل هذه المدارسة فى حاجة إلى أن ننبه

إلى أن صاحب المذكرات آثر أن يقدم مذكراته على هيئة عمل فنى يحذف فيه اسم القرية واسم الشركة واسم المنتج الذى ينتجه، وإن كان مع كل هذا الحذف والإصرار عليه قد فتح الباب واسعاً لاستنتاج ما صور لنا أنه أخفاه.. فالقرية تبعد عن القاهرة ١٨ كيلومترا، وبها مصنع ينتج مادة من مواد الطعام، والمصنع قريب من النيل بحيث تقذف ماسورة العادم الخاص به فى النيل، وينطبق كل هذا على سبيل المثال على «الحوامدية» حيث تقع شركة السكر على بعد ثمانية عشر كيلومترا من القاهرة، وحيث تتمتع الشركة بكل ما وصفه طبيب الأرياف فى مذكراته من ناد رياضى وسلطة وكهرباء وعيادة طبية ونفوذ ممتد.. إلخ. وليس علينا من سبيل إذا نحن أهملنا تحديد اسم القرية والمدينة على نحو ما تعمد صاحب هذه المذكرات إغفال هذا التحديد، إنما أردنا بما ذكرناه من مثل أن نقرب الصورة إلى الأذهان التى تعيش عصراً غير العصر الذى تتحدث عنه المذكرات، وقد كان فى ثلاثينيات القرن العشرين.

فلنطالع بداية هذه القصة التى دفعت بها الظروف إلى الطبيب دفعا حين وجد الطبيب مريضا مصراً على أن يختصر مدة بقائه فى العيادة من أجل الجراحة، لأن الشركة التى يعمل بها لم تكن تعطى إجازات مرضية وإنما تخصم من المرتب مقابلا للغياب..

يحكى الدكتور دمرداش أحمد بداية القصة متحدثا عن نفسه بضمير الغائب فيقول:

« . . . حضر لعيادته منذ ثلاثة أيام المعلم عبد العاطى، وهو عامل قديم من عمال الشركة الأجنبية التى تسيطر على القرية وعنده فتق أربى مزدوج، وطلب أن تعمل له العملية، لكنه لم يساوم فى الأجر بقدر ما ساوم فى عدد الأيام التى سيقضيها فى سريره، وعندما سأله الطبيب عن السر فى حرصه على ذلك، علم منه أن هذه الأيام سيخصم أجرها من مرتبه. سأله: لم لا تأخذ إجازة مرضية؟ فأخبره أن الإجازات المرضية لا تعطى إلا من طبيب الشركة الفرنسى، وهو لا يعطى هذه الإجازات إلا لمن يعالجهم هو».

«فأخبره الطبيب أنه كفيل أن يحصل له على إجازة مرضية بأجر مدة علاجه كلها، وكتب شهادة أرسلها للدكتور دوران خلاصتها أن عملية فتق مزدوج ستعمل باكر للمعلم عبد العاطى وسيحتاج إلى خمسة عشر يوما راحة فى السرير، فردها له واعتذر عن إمكان اعتماده للشهادة اعتذاراً جافاً».

وهنا تبدأ ردود فعل طبيبنا الشاب:

«فقام من فوره إلى مدير الشركة وكان يهودياً قميئاً، وأدخل فى غرفته الفخمة فشرح له الموضوع، فرد عليه بأن هذه هى نظم الشركة منذ إنشائها، ولا سبيل إلى تغييرها».

«قال له: يستطيع طبيبكم أن يحضر للعيادة ويكشف على المريض، فرفض، حاجه وجادله، وقال له: إنه [الحديث عن صاحب المذكرات

ولكنه يقدمه عن نفسه بضمير الغائب] طبيب الحكومة التى تستظلون برايتها، وأن شهادته تكفى أحيانا لإرسال رجل إلى المشنقة، فرفع كتفيه وكرر رده الأول، وقال الطبيب: إنكم بذلك تظلمون عمالكم المساكين، وطبيبكم لا يشتغل بالجراحة، وليس عدلاً أن يدفع العامل نصف أجر إجازته لطبيبكم الذى يتقاضى خمسين جنيها شهريا خلاف عمله الخاص، وكانت هذه هى القاعدة فلم يرد، فسلم وخرج، وقد وجد أن الرجل قد استقبله استقبالاً غير كريم، ورده رداً غير جميل، وكان فى مناقشته معه «خواجة» يكلم واحداً من أولاد العرب، لقد ثارت نفسه وهم أن ينفجر أكثر من مرة، لكنه اكتشف أن به ضعفاً نحو هذا [المدير] اليهودى المتعجرف، ذلك أنه كان أباً لفتاتين انعقد لهما لواء الجمال بالمنطقة، وكان الطبيب قد التقى بهما فى ملعب التنس عدة مرات، ولعب معهما أكثر من مرة، لهذا كظم غيظه، لكن الدم كان يغلى فى عروقه غلياناً».

. . . .

هذا هو طبيبنا الشاب إذاً يقلب الأمور فى نفسه لعله يصل إلى القرار المناسب فى هذا الموقف:

«واستعرض بينه وبين نفسه حالة هذه الشركة الأجنبية، فوجدها تكيل بكيلين، توفر للخواجة كل أسباب الرفاهية والنعيم: من فيلات أنيقة، إلى مرتبات ضخمة، إلى عمل سهل ميسور، وتوفر للمصرى أشق أنواع الكد والكدح مقابل قروش لا تكاد تقيم الأود، وإذا رأيت أحد عنابر

هذه الشركة وقد حشر فيها مئات من هؤلاء العمال البائسين، يتصببون عرقاً أمام نيران الأفران وفى وقدة الصيف القاسى، يرتدى معظمهم غرائر قديمة، علمت أن المصرى غريب فى وطنه، مضطهد فى بلده، وأن خيرات الوطن تستمتع بها هذه الحثالة من الأجانب الذين لفظتهم الشواطئ طلاب قوت، فأمسوا فى ظل الامتيازات البغيضة هم السادة، وتنكروا للبلد الذى كسا عاريهم، وأطعم جائعهم، وأمن خائفهم».

«استعرض هذه المأساة فبيت فى نفسه أن يكون حرباً على هذه الشركة اللعينة، وأن يضع فى سبيلها من العراقيل كل ما فى طوقه أن يضع، وكان يعلم أنه أمام خصم قوى، فرئيس الحكومة فى ذلك الحين، ظهيرها وسندها، ولكنه صمم أن ينطح الصخرة، حتى ولو أوهنت قرنه،وليكن ما يريده الله».

ويحلل الدكتور دمرداش حالته النفسية بعد هذا التفكير والتأمل فيقول: إنه كان موزع القلب، مشتت الفؤاد بين توفيقه فى عمله فى هذه القرية الصغيرة، وبين هذه الشركة الأجنبية التى تجاهلت وجوده كما تجاهلت كل ما هو مصرى، هل يصطدم بها دفاعاً عن كرامته وقوميته، أو يخلد إلى الدعة والراحة قرير العين بدخله الكبير من عيادته الناجحة.

«فكّر وقدّر وقضى أكثر من ليلة مسهد الجفن، وأخيراً حزم أمره وصمم أن يصطدم بهذه الشركة وأن يضع فى سبيلها من العراقيل كل ما فى طوقه».

(٢)

ونتجاوز التفصيلات التى صور بهـا صاحب المذكرات طلبه المشورة من أصـدقائه الذين أشـاروا عليـه بالتروى، وحـذروه من سلطة مـدير الشركة العـام القادر على أن يؤذيه فى عمله إيذاء شديـداً، لكن الدكتور دمرداش أحـمد صمم علـى أن ينتصر فى النهـاية على الخوف ويتـقدم لمنازلة الشركة من قبل أن يدرى أى سلاح سيستخدمه فى هذا الصراع.

وها هو يحـدثنا فى براعة عن نهـاية الصراع النفسى الـذى عاناه فى ذلك الوقت فيقول:

«... وجد أن مرتبه لا يقاس بدخله من عيادته، وأنه إذا تحرج أمره ففـى استطاعـته أن يسـتغنى عن وظيـفتـه بعد أن أصـبح اسمه مـوطد الدعائم، وأصـبحت ثقة الناس به ثابتة الأركـان، وأصبح يثق فى حظه وفى عناية الله التى تكلـؤه وترعاه، ومكث يترقب الفرص ويتربص بهم الدوائر، وتغـيرت حيـاته من صفـاء ودعة وراحـة نفس، إلى قلق وهم وعدم استقرار».

«ماذا يستطيع هذا الضـعيف المنفرد أن يصنع لهذه المؤسسـة العتيدة التى تظاهرها أموالها ونفوذها وسيطرتهـا على رجال الحكم جميعاً، ثم إن تحقيق العدالة الاجـتماعية الدامية الجروح فى مصـر، ليست رسالته ولا بعض شأنه».

ونحن ندرك من قراءة المذكرات أن ثلاثة أسابيع قد انقضت بينما صاحب المذكرات يفكر فى سبيل يمكنه من أن يثأر لنفسه ولوطنه من عجرفة هذه الشركة وغطرسة موظفيها، وها هو يجد أمامه السلاح الذى سوف يمكنه من النصر فى هذه المعركة:

«. . . كان عائداً من سباحته اليومية فى النيل وكانت رياضته المحببة بعد إذ حرمته عيادته من أن يأوى إلى أحد المصايف، رأى ماسورة كبيرة تصب مياها قذرة فى النهر أمام مصنع الشركة، علم أنها ماسورة العادم، خف إلى مكتبه جذلان فرحا وأملى على كاتبه رسالة للشركة يطلب فيها أن ترفع هذه الماسورة بمجرد تسلم الخطاب وإلا فهو يحمل الشركة مسئولية تلوث مياه النيل وما يتلوه من تعرض جميع البلاد التى تلى قريته على مجرى النهر لكثير من الأمراض الوبائية، ويرجو الشركة ألا تضطره لاتخاذ الإجراءات القانونية لرفع هذه الماسورة عنوة».

«حضر لعيادته فى الصباح الباكر باشمهندس الشركة، وهو رجل فرنسى فارع الطول يوشك أن يكون المدير الفعلى للشركة، ومعه باشكاتب الشركة، وهو رجل سورى واسع الحيلة، غامض الأساليب، يسيطر بذكائه على كل الرؤساء، ولم يفرغا من تناول القهوة حتى بدأ حديثهما عن رسالة الأمس، ذكر الباشمهندس أن هذه الماسورة معدة لمياه تبريد الماكينات، وأن رفعها يعنى تعطيل الشركة وغلقها وبالتالى حرمان القطر كله من مادة أساسية من مواد الغذاء، وقال له الطبيب: إنه ليس مسئولا عن شىء من هذا لكنه مسئول عن وقاية البلاد من خطر الأمراض المعدية، وإن واجبه يحتم عليه أن يسلك جميع الطرق لرفع

هذه الماسورة التى تكفى فضلات مريض واحد بالتيفود أو حامل لمرض إذا مرت بها أن تنشر المرض فى بلدة بأسرها، وقال الباشمهندس: إن المياه التى تصب من الماسورة ساخنة إلى درجة الغليان وإنها غير متصلة بأى مرحاض، وطال بينهما الأخذ والرد وتشعب الحديث حتى وصلت نهايته إلى السؤال عن رخصة المصنع؟ وقاموا جميعاً إلى مقر الشركة يبحثون عن الرخصة، واتضح أن المصنع صدر به دكريتو خديوى انتهى منذ ثلاث سنوات، وأن المصنع يدار بغير ترخيص منذ انتهاء الدكريتو».

. . . .

«وقام طبيبنا منتصرا مزهوا بعد أن رأى فى وجوههم الضعف والاستكانة، ليحرر للمصنع محضراً يطلب فيه من المحكمة الغلق للإدارة بدون رخصة».

□

ولا تتوقف الظروف المواتية لطبيبنا الشاب عند هذا الحد من استخدام سلطته الإدارية كمفتش للصحة، لكن «الطب» نفسه يسعفه بما لم يكن ينتظره حين يكتشف عجز طبيب الشركة عن تشخيص الطاعون أو الإلمام به. وهكذا يتاح له سلاح إضافى يمكنه من الانتصار فى الحرب بينه وبين الشركة الأجنبية:

«. . . ذهب الطبيب للكشف على المتوفى فوجد أن به خراجا تحت الإبط وأن مدة مرضه ثلاثة أيام فقط، وأنه حضر من ديروط منذ سبعة أيام ووجده عاملا يناهز عمره الثلاثين قوى البنية، فاشتبه أن يكون

المرض طاعونا، وبدأ يتخذ كل إجراءات الطاعون: وكان منزل المتوفى يجاور مبانى الشركة فشملتهم الإجراءات، [ثم] يتضح أن طبيب الشركة عاده فى منزله مرتين، ويجدها فرصة سانحة أن يجرح كبرياء هذا الفرنسى المتعجرف».

. . . .

«حضر طبيب الشركة لمكتب الصحة ليؤكد أنه لم ير حالة طاعون فى حياته، وأنه لا يعرف شيئا عن وجوب التبليغ، ويعتذر اعتذاراً شديداً ويذكر الزمالة وحقوقها، ويخيل لطبيبنا أن محضر المخالفة الذى حرره ضد الطبيب سيرسله إلى المشنقة رأساً، ويقارن بين ضعفه واستخذائه اليوم، وبين غطرسته وكبريائه بالأمس، فيعلم أن الناس تحترم مَنْ يحترم نفسه، ويعد الزميل بالمساعدة بعد أن يؤكد له أنه سيبلغ عن كل حالة يشتبه فيها مهما ضعفت الشبهة».

□

وها هى معاملة الشركة تتغير بعد هذا الحادث الذى ساقته مهارة الطبيب فى اكتشاف الوباء، وإذا الشركة تبدأ فى التودد له، وإذا المفاجأة التالية أن يمرض أحد الأطفال الفرنسيين بالطاعون ويمارس صاحب المذكرات بعض سلطاته فى فرض الرقابة الصحية المشددة على المريض:

«. . . أصبح الطبيب فى نظر الشركة ورجالها شيئاً، وبدأوا يتوددون ويتقربون إليه، وها هى حفلتهم الراقصة بالأمس كاد طبيبنا فيها أن يكون ضيف الشرف. إن المدير يخصه بالترحيب والباشمهندس يحمل إليه

أطيب ما فى مائدة الطعام. . أين هو اليوم منه فى الحفلة الماضية التى لولا وجود ضابط النقطة معه لما أعاره أحد أى اهتمام».

. . . .

«يبلغ الطبيب الفرنسى طبيبنا عن حالة تيفود وردت نتيجتها إيجابية من المعمل، وهى لطفل اسمه سافافا سيليدس، ويذهب طبيبنا لاتخاذ الإجراءات الصحية، ويعترض والد الطفل ويرفض أن يعزل ابنه فى خيمة، ويحضر جناب المدير بجلال قدره يرجو الطبيب أن يتساهل فى مسألة العزل ويتخذ ما شاء من إجراءات أخرى، ويجد الطبيب أن عزل الطفل فى منزله غير ممكن، لعدم توافر الشروط الصحية المطلوبة، فيأبى، ويلح جناب المدير ومن حوله كبار الخواجات فى التوسل والرجاء، ويصر الطبيب على الرفض والإباء، ويقترح الباشكاتب أن يؤجل العزل يوماً واحداً عسى أن يتسنى لهم أن يأخذوا رأى المدير العام، خصوصاً بعد أن صرح لهم الطبيب بأن هذه الإجراءات الصحية لا استثناء فيها، وأن أياً منهم سيتعرض لهذا الإجراء القاسى إذا أصابه مرض معد، ووافق الطبيب على التأجيل، ولكن بلابله قرت [هذا التعبير من كلشيهات الكتابة فى ذلك العصر، والمعنى واضح فى الجملة التالية] ونفسه اطمأنت، فقد اضطر هولاء الخواجات أن يحنوا رءوسهم، وانتزع مكانته وكرامته وخلص بقوميته ومصريته من بين هذه السحب الكثيفة من الغطرسة والكبرياء، وأحس أنه أصبح شوكة فى جنوبهم سيحسب لها ألف حساب».

وفى وسط هذه المعمعة تأبى البيروقراطية المصرية على عادتها ، أو كما هو العهد بها، إلا أن تخذل صاحبنا لكنه بحكم معاناته ورغبته فى الانتصار فى هذه المعركة يلجأ إلى حيلة ذكية يصورها بعد ذلك فى تأمله وكأنها الشر، وينتصر بحيلته هذه ودهائه، وهو يروى تتابع الأحداث على نحو دقيق مسجل بالتاريخ وكأنه قد كتب يوميات بالفعل:

«. . . بكّر بالذهاب إلى القاهرة، وقابل مدير الأوبئة وعرض عليه المسألة، وقابل حضرته رئيس المصلحة ثم خرج ليخبره ألا يتخذ أى إجراءات حتى تصله من المصلحة التعليمات، وعاد إلى قريته ليتلقى بعد عودته بساعتين اثنتين برقية نصها: «يكتفى بما اتخذه حضرة طبيب الفوريقة [أى الشركة] من إجراءات فى حالة المريض سافافا سيليدس»، وعاوده الغم والهم، فها هى المصلحة تخذله، وأسرع إلى وكيل مكتب التلغراف وطلب إليه أن يخفى خبر هذه البرقية، وقام إلى الشركة وقابل جناب المدير الذى أسرف فى الترحيب به، وأخبره أن برقية وردت له من المصلحة بوجوب عزل المريض، ووجم المدير ثم قال: لم لا نحل مشاكلنا بأنفسنا ولا نلجأ للقاهرة؟».

«وقال له الطبيب: إنك كنت البادئ بالتعنت وركوب الرأس، وذكره بمقابلته الأولى، فأبدى أسفاً شديداً، وبعد لأى رضى الطبيب أن يعزل المريض فى داره على أن تتخذ إجراءات كثيرة لجعل الدار صالحة للعزل، وأبدى المدير شكراً وامتناناً لهذه اليد التى لا ينساها للطبيب، وانصرف صاحبنا وقد صنع من هزيمته وخذلانه نصراً مبيناً».

(٣)

ويروى صاحب المذكرات بعد هذا أنه انتهى فى هذه المعركة إلى نصر واضح، وأن الشركة دانت له بالزلفى والتقرب، لكن ضميره كان يدفعه إلى التفكير فى هذا النصر الذى أحرزه، وهل هو نصر حقيقى أم أنه تورط حين أراد الانتصار، ولا يزال يدير الأمور بينه وبين نفسه حتى تطمئن هذه النفس إلى أنها قد حققت نجاحاً وانتصاراً دون أن تفرط فى القيم وعدالتها، ونحن نقرأ هذا التعبير الجميل عن هذا الصراع النفسى الذى يدور فى عقلية شخصية مثالية فنعجب أيما إعجاب بهذه الحساسية الواضحة تجاه قضايا الحق والصواب:

«... انقضى ما بينه وبين هذه الشركة الأجنبية العتيدة من خصومة على خير ما تنقضى الأمور، وخرج من محنته سليم العزة، صحيح الكرامة، وبلغ انتصاره أوج العظمة والذروة حين تلألأت أنوار الكهرباء فى منزله وعيادته ومستشفاه ومكتبه الحكومي، إذ قامت الشركة بمد الأسلاك وتوصيل التيار على نفقتها الخاصة، لقد كانت تعتز بنورها الكهربائى أيما اعتزاز حتى إنها رفضت توصيله لمكتب هندسة الرى الحكومى عشرين عاماً كاملة برغم ما بذله مهندسو الرى فى هذه الفترة الطويلة من رجاء وتوسل وإلحاح، وبرغم ما بينها وبين الرى من مصالح تختص برى أراضيها فى هذه المنطقة، وأن كثيراً من موظفيها الذين يقيمون فى منازلها الخاصة، خصوصا المصريين، لم يسعدهم الحظ أن يشرق فى منازلهم هذا النور، وكانت الشركة تتذرع فى رفض

طلباتهم بمختلف التعللات والمعاذير، ثم تتخذ حين يحرجها رجاء كبير يهمها رضاؤه، العلل الخالدة التى لا تقبل التنفيذ، وهى أن قوة الماكينة لا تستطيع أن تزيد مصباحاً واحـدا، ثم تبذل الوعد الذى لم يتحقق مرة واحدة، وهى أنهـا ستبـدل هذه الماكينة بمـاكينة أكبـر، وعندئذ ستلبى طلب الطالب وتحقق رجاء الراجى».

«وعجب الناس أشد العجب، وخلب أبصارهم بريق الأنوار فى أربعة منازل لا تملكها الشـركة، بل تقع فى قرية تفـصلها عن مبانى الشـركة مسافة ليست قصيرة، برغم ما يعلـمون من خصومة مشتعلة الجذوة بين الطبيب والشركة، لكنهم فـرحوا وأعجبوا بطبيبهم المـصرى الصغير أن ينتصر فى هذا الميـدان الذى انهزموا فيه جميعـاً، بل ذاقوا فيه ألواناً من الخسف والهوان».

«لقد رأوا بعـيونهم هذه الشركـة الجبارة بقوتـها وجبروتهـا ونفوذها الطاغى وسيطرتها على رجـال الحكم جميعاً، تخر صـاغرة وتتملق هذا الطبيب الضـعيف، إلا فى قـوة إيمانه، وتبذل فى سـبيل رضـائه ما لم تبذله لأحد غيره».

«أما صاحبنا فبعـد أن وافق على مد النور إلى منزله، بعد إلحاح من باشمهندس الشـركة، وبعد أن فرح برؤية النور فى هذه القرية الحـقيرة، بدأت الوساوس تنوشه وتقض مضجعه وتؤرق جفنه».

«سأل نفسه: أيعـتبر هذا نصراً أم خذلاناً أن تشتريه الشركـة وتشترى مثله العليا بهذا النور الذى كلفها مائة وخمسين جنيهاً، على ما علم فيما بعد؟!».

«ألم يكن صمم أن يحارب طغيان الشركة وعدوانها على عمالها واحتقارها للقومية المصرية؟!».

ويواصل صاحب المذكرات تصوير الصراع النفسى الذى مرّ به فى ذلك الوقت:

«وطال الجدل بينه وبين نفسه حتى أقنعها أن هذا نصر على الشركة لاشك فيه. لقد أرغمها وأذل كبرياءها وأصبح موضع احترامها وتقديرها، بل لقد لبست ثوب الزلفى إليه، وطأطأت رأسها وجعلته نافذ الكلمة مهيب الجانب لا يرد له رجاء، ويعلم الله أنه قد رفع بمركزه هذا الظلم عن كثيرين من العمال الفقراء، وحسبه هذا تحقيقاً لمثله العليا فى حدود طاقته وإمكاناته، وحسبه هذا تمكيناً لعقيدته فى الله وفى أن للحق صولة يخر أمامها كل عاتٍ جبار، وفى أن مثقال خردلة من الإيمان يكفى أن يزحزح رواسى الجبال كما يقول الإنجيل».

....

هل لنا بعد أن استعرضنا هذه القصة الطويلة لصراع ذكى قاده هذا الطبيب بنفسه فى معركة غير متكافئة لكنه فى نهاية الأمر تمكن من تحقيق هذا النصر، هل لنا أن نقول إن صاحب هذه المذكرات كان مفرطاً فى الإيمان بنفسه وقدراته إلى الحد الذى دفعه إلى هذه الثقة وإلى هذا النجاح من بعد الثقة؟ أم أن الأحرى بنا أن نقول إنه كان أكثر ثقة فى شىء آخر هو توفيق الله عز وجل؟

يبدو لنا أن ثقة الطبيب فى الله كانت أكبر من ثقته فى نفسه، وهو يحدثنا بمثل هذا الحديث ويدلنا على مثل هذا المعنى حين يروى قصص بعض نجاحاته الطبية التى لم يكن يتوقعها والتى جاءته واحدة بعد أخرى، وهو يصور هذه النجاحات تصويرا دقيقا ، ويصور ما كان يساور نفسه من شك ومن خوف ومن رجاء، ويصور سعادته بالنجاح وشكره ربه على هذا النجاح، لكنه فى كل هذا لا ينسى حقيقة أن توفيق الله كان بمثابة السبب الرئيسى وراء هذا النجاح الذى تحقق له، وهو يجدّ فى البحث عن سبب لهذا التوفيق حتى يتذكر خيراً فعله بفقير حين رحمه!

وهو يبلور وصف سعادته بالنجاح الذى تحقق له فى أقل من ثلاثة أسابيع فيقول:

«. . . وطأت له الحياة أكنافها، وخفضت له جناحها، وأقبلت عليه الدنيا إقبالا سريعا، وها هو ذا يراجع دخله بعد أن مضى عليه فى عيادته الجديدة عشرون يوماً فقط، فتقابله ثمانون جنيهاً كاملة فى زمن كان الجنيه فى عنفوان شبابه، لم تدركه الشيخوخة التى أدركته فى هذه الأيام، كان قادراً على أن يذهب بصاحبه إلى المطعم والمشرب والمتجر، يقضى له بحاجات كثيرة، ثم يبقى له من نفسه فضلا يؤنس جيبه. وجدها ثمانين جنيهاً سدد منها ما عليه من تكاليف، ومضى بالبقية الباقية إلى القاهرة وافتتح لنفسه حساباً فى بنك مصر، وشهد صراف البنك وعلى وجهه أمارات الضجر، فقد كان معظمها نقوداً فضية استغرق عددها وفرزها والعثور على بضع قطع زائفة فيها بضع دقائق، فى حين أن الذى تقدمه إلى نفس الصراف أودع بضعة ألوف من الجنيهات عدها فى ثوان، إذ كانت كلها أوراقا من فئة المئة، فتعلم أن

يكون ما يودعه أوراقاً مرتبة حتى لا يبعث الضيق والضجر فى نفس هذا الصراف الأنيق».

«وعاد ومعه دفتر شيكات، وقد أصبح للمرة الأولى فى حياته من أصحاب رءوس الأموال ومن عملاء البنوك».

□

ونحن نرى صاحب هذه المذكرات كذلك فى يومياته بعد ستة شهور من هذه التجربة يتحدث بنعمة الله عليه ويفكر فى سر نعمة الله، ويصل فى هذا إلى قوله:

«اشترى سيارته الجديدة، وراجع رصيده فى البنك، ثم راجع رصيده من محبة الناس وتعلقهم به، فراعته الأرقام العالية التى لم تخطر له أبداً على بال أن يصل إليها فى هذه الشهور الستة التى فتح فيها عيادته. فساءل نفسه: ما سر هذا النجاح السريع؟! إن المدة التى قضاها فى دراسة الطب، والتى قضاها بالمستشفى لا تكفى أبداً أن تصنع منه طبيباً عبقرياً يستحق كل هذا النجاح، وإنه ليكون باغياً على نفسه عادياً عليها إذا ربط نجاحه بعلمه».

□

وهو يستدعى من قراءاته مضمون قصة سان ميشيل الشهيرة حيث كان الحظ ولا شيء غير الحظ هو سبب سعادته، وهو يعلق بعد هذا على النص الذى نقله من القصة ويقول:

«. . . ما أقرب ما بين طبيبنا الشاب فى قريته الموحشة القذرة، وبين طبيب سان ميشيل فى جزيرة كابرى الرائعة الجمال، لقد كان ما يتجاوب فى نفسيهما صورة واحدة، وأدرك هو أيضا ما أدركه صاحب سان ميشيل من أن الحظ يلعب فى حياته الدور الأول، ولم ترض كبرياءه كلمة الحظ، فقال: إنه التوفيق، بل هو عناية الله التى ترعاه، واستراح إلى ذلك، وصمم وأقسم بينه وبين نفسه أن يظل ما بينه وبين الله عامراً، حتى لا يحرم من عنايته، وكرر هذا القسم بعد هذه الحادثة التى عرضت له منذ أيام معدودات».

(٤)

وتحفل يوميات الدكتور دمرداش أحمد بكثير من صور التاريخ الاجتماعى للفترة التى كتب فيها مذكراته فى مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين، وهو على سبيل المثال يصور فى عبارات شائقة مجتمع النخبة فى قرية مصرية صغيرة، كما يصور مكانة البقال اليونانى فى القرية على أنه مندوب الحضارة فى القرية لا مندوب الأمة اليونانية فحسب، ولنقرأ هذا التصوير الدقيق:

«. . . حتى إذا أقبل المساء أسرع إلى هذه الطائفة من الاخوان الذين أحبهم من كل قلبه، كانوا برغم اختلاف [أعمارهم] وتباين أمزجتهم وثقافتهم وبيئاتهم منسجمين انسجاماً جميلاً، أو قل كانوا كأفراد الفرقة الموسيقية الواحدة لكل عازف صوته فى اللحن الذى يأخذ قوته وجماله من مجموع هذه الأصوات المختلفة. وكانت هذه الجماعة تتألف من

ضابط البوليس ووكيل البوستة ومعاون المحطة ووكيل التلغراف وأحد الموظفين فى الشركة الأجنبية التى تحتل القرية، وأخيراً من طبيبنا الشاب، كانوا يجتمعون فى المحطة حتى إذا جنّ الليل انتقلوا إلى الخواجة بنايوتي، وهو مندوب الأمة اليونانية فى هذه القرية، يدير محلا صغيرا ونظيفا للبقالة، وقهوة يؤمها وجوه القرية وحكامها، وغرفة أو اثنتين بهما أسرة يأوى إليهما الغرباء فيأكلون مما يأكل هو وعائلته، ولم يكن يحدث هذا إلا نادراً، أى أنه كان مسئولاً وحده أن يجعل من القرية مدينة بها بعض أسباب المدنية والعمران».

«كانوا يسمرون إلى نحو الساعة العاشرة، ثم ينفض سامرهم بعد أن يكونوا قد بحثوا مشاكل السياسة الداخلية، وكان حضرة وكيل البوستة الحجة الثبت فيها، ومشاكلها الخارجية وكان وكيل التلغراف هو مرجعها وصاحب خبرها اليقين، وينتقلون من السياسة إلى مختلف المواضيع التافهة من أسعار المأكولات، إلى خيانات الخدم، ولا بأس من أن تتردد على مجالسهم أخبار فتيات هذه الشركة الأجنبية ومغامراتهن».

□

ويجيد الدكتور دمرداش أحمد تصوير كثير من الشخصيات الكاريكاتيرية التى قابلها فى القرية التى افتتح فيها عيادته ومارس مهنته، ومن هؤلاء عبدالإله أفندى بطل المبالغات التى انتهت مبالغاته بموته بين

يدى صاحب المذكرات، ويجدر بنا أن نقتطف للقارئ فقرة من الفقرات تصور طبيعة مبالغات عبدالإله قبل أن نروى قصة وفاته بسبب هذه المبالغات:

«. . . وعذرهم هو [أى عبدالإله أفندى] على هذا الضحك، فقد جاءوا الأيام بعد أن شابت وشاخت وطارت النعمة والبركة، وهل رأوا ما رآه فى شبابه وتقلبوا فيما تقلب فيه من خير ونعيم؟ لقد شهد بعينى رأسه والدة أحد أثرياء الصعيد تسند باب غرفتها بقطعة من الماس فى حجم البطيخة، شهد فى نفس المنزل سجادة بلغ من طول وبرتها أن الخادم النوبى الصغير، وهو يحمل صينية القهوة، تعثر فوقع فاختفى فيها، فأخذ الحاضرون يبحثون عنه ولم يعثروا عليه إلا بعد نصف ساعة، أما الصينية والفناجين فلم يعثر عليها لليوم، وهل شهدوا كما شهد فى مزرعة رجل آخر شجرة الجميز التى تظلل أربعين فداناً، وهبها صاحبها بوراً لهذه الشجرة العزيزة عليه وعلى عائلته، وهل شهدوا وابوراً ارتوازياً أقامه صديق له لشرب الفراخ فقط فى عزبته، ولم تكن مياهه تكفيها مع إدارته ليلاً ونهاراً، فكان يضطر لإدارة عشر سواق أخرى حتى ترتوى الفراخ، والطريف أن القصة تنتهى بأن هذا العدد الكبير من الفراخ لم يكن يكفى مطبخ العائلة».

«وكانت قصص عم عبدالإله أفندى تنتهى دائما بآهة طويلة يقول بعدها:

ذهب الصبا وتولت الأيام   فعلى الصبا وعلى الزمان سلام

ونأتى إلى ذكرى الواقعة القاتلة التى قضى فيها عبدالإله أفندى حين كان يروى قصة من قصصه استنكرها السامعون حتى وصلوا فى تفنيد أحداثها إلى أن قال له أحدهم:

«ولكننا لم نرك تشرب الويسكى أبدا».

وهنا تتابعت فصول مأساة هذا الرجل تتابعا قاتلا:

«فيرد [أى عبدالإله أفندى] عليه أن باستطاعته أن يشرب زجاجة كاملة، وكأنه يشرب ماء قراحاً، وينتهى بينهما التحدى بأن يشرب عبد الإله أفندى الزجاجة فى أقل من ساعة على أن يدفع ثمنها الآخر، ويحمل بنايوتى زجاجة ديوارز وإلى جانبها كوباً وبعض المأكولات وبعض زجاجات صودا، ويرفض عبد الإله أفندى هذه المأكولات، فليس هو ممن يأكلون المزة أو يمزجون شرابهم بالصودا أو الماء، ويأخذ الزجاجة والكوب ليملأها عن آخرها ويشربها مرة واحدة، ثم يعيد ملأها وشربها، حتى تنتهى الزجاجة فى دقائق وكأنما أصاب الطبيب وإخوانه ذهول، ولم يفكر أحدهم فى هذا الذى ينتحر أمامهم، فقد أفهمهم أنه شرب الزجاجة وحده مئات المرات وصدقوه، ولكنهم لما رأوا الطريقة التى شرب بها أمامهم أدركوا أنه كذبهم وكذب على نفسه، ولم تمض دقائق حتى ترنح على كرسيه وسقط على الأرض، وبدأ الطبيب يثوب إلى رشده ويدرك مسئولية ما يحدث أمامه، وضع يده فى حلق عبد الإله فندى حتى تقيأ، وبرغم [التقيؤ] فقد ذهب فى غيبوبة شديدة، فنقلوه إلى العيادة وغسل له معدته، وعمل له كل

الإسعافات الطبية الممكنة، لكنه لم يتنبه، ونقلوه إلى منزله ولفقوا قصة ذكروها لزوجته وأولاده اتضح لهم كذبها بعد أيام، وأخذ الطبيب يتردد عليه صباحاً ومساء، حتى تحسنت حالته قليلاً لكنه أصيب بالفالج [الشلل] بعد أيام، وهكذا كانت الخاتمة المؤلمة لقصة هذا الرجل الذى كان يصنع القصص بحذق ومهارة، لكنه صنع لنفسه مأساة أليمة، رحمه الله عدد ما أدخل على نفوس إخوانه من بهجة وسرور».

(٥)

ولا تغفل معالجات الدكتور دمرداش أحمد للتاريخ الثقافى والاجتماعى فى القرية المصرية الحديث عن التناول العنيف لقضايا الشرف وما يرتبط بهذه القضية من حوادث فاجعة يكون المسئول فيها هم الأهل أنفسهم دون أن يملكوا دليلا للاتهام الذى يستدعى هذا العنف..

وهذا هو يقص علينا بأسلوبه الحافل بالعبارات البيانية التقليدية، والكليشيهات الجميلة، والزخرفة الإنشائية القديمة، قصة فتاة دفعت حياتها ثمنا لورم ليفى فى الرحم، وكان هو الطبيب الأول الذى عُرضت عليه الحالة، وقد أحسن التصرف على حين لم يحسن مَنْ تبعوه التصرف، وكانت النتيجة أن فقدت الفتاة حياتها وهى التى لم تفقد عذريتها من قبل:

«وأدخل عليه رجل فى منتصف العقد الخامس من عمره مديد القامة، عريض المنكبين، مفتول العضلات، تكاد تنطق معارف وجهه، عيناه الصغيرتان المستديرتان كعينى الصقر، وشاربه الطويل الذى تتجه

شعراته كلها إلى أعلى وكأنها أسلاك من حديد، وهذه الغضون المبكرة في جبهته وتحت عينيه تكاد تنطق كلها بالقسوة والصرامة، بل بالشر. دخل في إثره امرأة تصغره قليلا، قد جللها السواد من رأسها إلى قدميها، ترتدي ما ترتديه نساء الطبقة الوسطى من الفلاحين من ثياب سوداء طويلة الذيل والأكمام، مقفولة الصدر، وتلتف بذلك الثوب الجريرى الأسود الكثير الكشكشة والتغضنات الذى يسمونه «الملس»، وتغطي وجهها بنقاب أسود ودخلت خلفهما فتاة في مقتبل الشباب وكانت هى المريضة، وأملى عليه اسمها عالية «ح» وسألها عن شكواها، قالت: لا أشكو شيئا، قال لها: لم حضرت إذن؟ قالت: لا أدرى، ومالت أمها على أذن الطبيب تهمس: أريد أن تخبرنا هل هى حامل أم لا؟ وبدأ يفحص الفتاة وقد راعه جمالها القروي الحزين، وكان يزينها خال أسود على إحدى وجنتيها، ووجد رحمها متضخماً قليلا، وحين سألها عن موعد الطمث ذكرت أمها أنه تأخر عن ميعاده هذا الشهر، وأراد أن يمتحنها من الداخل فأبت وأبت أمها، وأخبرهم أنه لا يستطيع الجزم بكونها حاملا، لكنه يستطيع ذلك بعد شهر، ونطق أبوها للمرة الأولى منذ دخل العيادة: «هل فى استطاعتنا أن ننتظر شهراً كاملاً؟»، ورأى الشر على قسمات وجهه صارخاً عالى الصوت، فهمس فى أذن أمها: هل هى متزوجة؟ قالت: بل عذراء، فأعاد عليها الكشف وتصنع الدقة والتؤدة ثم أخبرهم أنها غير حامل، وأخذ أبوها يحاجه ويجادله واخترع الطبيب أسباباً كثيرة تؤكد عدم الحمل، وانصرفوا وقد خيل إليه أنهم اطمأنوا وأنه أنقذ الفتاة من خطر محقق».

....

«وتخور قوى الرجل الصلد الذى مكث عشرين عـاماً يضرب الصخر بفأسه القوية، فتـذهب به زوجته إلى القـاهرة ومعهـما عاليـة ينشدون السلوى فى جوار أهل البيت».

«وتتم قصة المريض، وينصرف لشـأنه، وأقلب صفحات الطبيب فى الثمـانية شهـور التى تلى هذا التاريخ فـأرى كلمات مـبعثـرة فى جملة تواريخ أستطيع أن أجمع منها بقية القصة».

«حين هبطت العـائلة القاهرة وأقامـوا فى منزل صغير بجـوار ضريح الحســين بن على حـيث كانوا يقـضون فيـه جملة نـهارهم وبعـضاً من ليلهم، وحـدث فى اليـوم الثالث من هـبوطهم القـاهرة عـقب تناولهم طعامهم فى مطعم صغير، أن أحست عالية بمغص شديد وقىء استعانوا عليهما ببعض العقاقير البلدية، ولـكن أمرها استعصى عليهم فذهبوا بها إلى طبيب يونانى فـحصهـا واستنتج من القىء ومن تضـخم الرحم أنها حامل فزف إليهم البشـرى، ولم يكن يدرى أنه يحطم كيان هذه الأسرة ويحفر بيديه لسعادتهم وهنائهم قبراً شديد الظلمة، بتسرعه وعدم تثبته».

«وأسرعـوا إلى طبيب النقطة حـيث كان اللقاء الذى لـم يبدد شيـئاً من شكهم وقلقهم، ويلجأون إلى داية القرية فتقف فى صف الطبيب اليونانى».

«وتمضى بضعة أشهر ينسى الطبـيب أمرهم، ويمر عليه ضابط النقطة ذات صباح ليصحبه إلى قرية قريبة للكشف على جثة غريق، ويجد جثة لفتاة قد استخرجت من بئر لساقية مهجورة، وقد بدأ التعفن الرمى يدب فيها، احتقن وجهها إلى درجة الاسوداد، وجحظت عيناها وتدلى لسانها

بين شفتيهـا، ويخبره العمدة أنها سقطت فى البئـر قضاء وقدرا فى أثناء ذهابها لأبيها فى حقله، وأنه لا توجـد شبهة ولا اتهام، وقد أبلغ أبوها العمدة بغيابها من يومـين، ويوشك الطبيب أن يصدق كل ما قيل إذ أن العلامات الظاهرة على الجثة تؤيد أنها ماتت غرقا».

«ولكن نظرة أخيـرة إلى وجهها تكشف عن خـال أسود على إحدى وجنتيـها تائه فى اسـوداد وجههـا، ويراجع اسمـها فى إشـارة البوليس فيجـده عالية ح، ويثب إلى ذاكرته كـل ما حدث فى عيادته منـذ بضعة شهـور، ويذكر بوادر الشـر التى كانت تتـأرجح ناره على وجه أبيـها، ويدقق الفحص فى جوانب رقبتها ليـجد آثاراً لسحجات ظفرية، فيخطر النيابة بشكوكه أن تكون الوفاة جنائية».

«ويطلب إليه تشريح الجثة فيفـعل، ويجد الفتاة عذراء طاهرة.. غشاء بكارتها سليم لم يمس، ويجـد رحمها متـضخماً وبه ورم ليفى كـبير فى حجم جنين عمره أربعة شهور، ثم يجد أن سبب وفاتها اسفكسيا الخنق».

«ويسرى الخبر بيـن جموع الفلاحين المحتـشدين بالقرب من مكان التشـريح، ويحضـر أبوها ممتـقع الوجه، ذاهل اللب، راجـياً أن يرى بنفسه هذا الورم، فيريه إياه، ويعيد عليه القول أكثر من مرة: إذن كانت عذراء!! ويرد عليه الطبيب بالإيجاب، وتخور قواه ويندفع باكياً صارخاً كالأطفال، ويقول: لقد قتلتها بيدى، وتوضع فى يديه الأغلال عائدة به إلى الليمان، ويسـدل الستار الأخير على هذه الأسـرة البائسة المنكودة، بعد أن ذهب كل ما بقى لها من أمل أدراج الرياح».

. . . .

يروى الدكتور دمرداش أحمد هذه القصة التى تعرف الآن من أمثالها قصصا كثيرة، وينتهى إلى التعقيب بقوله:

«هذه قصة تتجدد على مسرح الحياة آنا بعد آن، ضحيتها البريئة الطاهرة التى يشاء لها سوء حظها أن تنكب بهذا المرض (الورم الليفى) وهى لا تزال عذراء، ثم تنكب بجهل أهلها أو بجهل الطبيب».

....

ومن الواجب أن نشيد بهذه القصة التى أوردها الدكتور دمرداش أحمد فى مذكراته لأنها تتميز بميزتين مهمتين، الأولى هى أنها تقدم مثلاً طبياً واضحاً محدد المعالم مع تشخيصه وتبين إمكانية التباسه مع حالات الحمل، أما الميزة الثانية فهى أن القصة تعترف بوضوح بمدى مسئولية الطبيب عن المشاركة فى هذا الجرم المتسبب عن الجهل، وهو الجهل الذى إن برر فى حالة الأهل فإنه يصعب تبريره فى حالة الطبيب، ومع هذا فإن صاحب المذكرات يعترف بكل وضوح أنه كان موشكا على الوقوع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه زميله الثانى وأدى إلى المأساة على نحو ما صورها هو.

ولعل قراءة مذكرات الأطباء تكشف للأطباء الشبان عن كثير من هذه الخبرة الإكلينيكية الحافلة بالقيمة الاجتماعية والطبية على حد سواء.

(٦)

وعلى عادة يوميات الأطباء ومذكراتهم فإن مذكرات الدكتور دمرداش أحمد لا تخلو من رواية لكثير من المواقف الطبية التى كان صاحبها

موفقاً فيها من حيث لم يكن يتوقع التوفيق، ومصادفاً للصعوبة من حيث لا يمكن للصعوبة أن تقدر ابتداء.

وهو يجيد، بل يبدع، فى تصوير قصة اكتشافه لخراج فى صدر سيدة بدينة ويجعلنا تصويره نعيش معه لحظات الكشف عن هذا الخراج لحظة بلحظة، ويقول:

«كان واقفاً إلى جانب سيارته بباب عيادته أصيل يوم أجمع فيه أمره للذهاب للقاهرة لبعض شأنه، إذ أقبلت سيارة تحمل مريضة ومعها بضعة أشخاص يعرف من بينهم الحاج سيد الجزار الذى يجاور محله عيادته، وكانت المريضة بدينة مسرفة فى البدانة، تعاون على حملها أربعة رجال أشداء إلى ترابيزة الكشف، وعلم من الحاج سيد أن قصة مرضها بدأت منذ خمسة عشر يوما بحمى غير منتظمة، حملت من أجلها إلى مستشفى «هرمل» بمصر القديمة ومكثت به طوال هذه المدة، وأنهم (أقارب المريضة لا أطباء المستشفى) يئسوا من شفائها، فنقلوها لتموت بين أولادها فى قرية قريبة من قرية الطبيب فرآهم الحاج سيد، وكان ينتمى إليهم بصلة قرابة غير بعيدة، فأشار عليهم أن يعرضوها على هذا الطبيب المبارك اليد الميمون النقيبة».

«بدأ فحصه فوجدها فى منتصف العقد الرابع من عمرها، ووجدها فى حالة هبوط شديد، حرارتها أقل من الحرارة الطبيعية، ونبضها لا يكاد يعد لسرعته وضعفه، وحين وضع سماعته على قلبها سمع أصواتاً خافتة لا تكاد تميزها أذنه، وفحص جسمها كله، فلم يستطع أن يعثر

على شيء ينير أمـامه الطريق، وكانت المـريضة فى غيبـوبة لم تذكر له شيئاً من شكواها، ولم تطل حيرته، فقد ذكـرت له قريبتها الملازمة لها أنها تتـألم كثيراً إذا نامت على جـانبها الأيسـر، وبدأ يدقق الفحص فى هذا الموضع، فاستطاع أن يتـبين فى هذه الأكداس من الشحم واللحم، وتحت ثديها الذى يكفى لإرضاع ستة أطفـال، شيئا من الورم شائعا فى هذه المنطقـة غيـر مصحـوب باحمـرار ولا محـدد بحدود، وضع فـيه إبرة. . استـنفد الجلد ومـا تحته من شـحم طول الإبرة، وحيـن امتص بمـحقنه لم يجـد شيـئا، ووجـد فى غـلايته إبرة «سـتوفـايين» طويلة فاستبدلها بإبرته الأولي، وأرسلها إلى آخـرها فى الموضع نفسه، فشعر فى المليمتـر الأخير منها أن مقـاومة الأنسجة قد خـفت، وأنه يخترق منطقة أقل مقاومـة، وامتص بمحقنه فلم يجد شيئا، وكـرر العملية عدة مـرات حتى أوشك أن ييـأس، ولم يجـد بعيـادته إبرة أطول، فحـاول محاولة أخـيرة فوجد كميـة من الصديد تملأ محقنه، فقـرت بها عينه، واتجـه إلى أقاربهـا وأفـهمـهم أن هناك خراجـا غـائرا تحت عضـلات الصدر، وأنه يجب أن يفـتح لكن حالتهـا العمومـية قد لا تـتحمل هذه العملية برغم بساطتـها، فأصروا على عمل العملية، مادام فـيها بصيص من الأمل الذى فقدوه تمـاما منذ فكروا فى نقلها من المسـتشفى، لكنه تردد، وطال تردده، فقد خـاف أن تنتهى حياتها علـى الترابيزة، وينطلق فى عيادته صوت قـريبتها نائحة مولولة، وكانت تبدو قـوية البنية، عالية الصـوت، ويخف إليهـا نساء القـرية مجـاملات بأصواتـهن المفـزعة،

وكاشف بمخاوفه الحاج سيد، فطمأنه أن شيئا من هذا لن يحدث، وأنهم يعلمون أنها ميتة لا محالة، ولكنها محاولة قد تنفع».

....

«وجهز نفسه وآلاته، ووضع طاقية البنج على وجهها، بعد أن حقنها بكل ما فى عيادته من منبهات للقلب، وسكب بضع قطرات من الأتير، وأعمل مشرطه فى هذه التلال من الشحم حتى وصل إلى العضلات، فقطعها، وتدفق سيل من الصديد على مكان العملية وعلى المريضة وعلى الطبيب وملابسه، وانتهى من العملية والمريضة لا تزال على قيد الحياة، وسارت نحو الشفاء بخطى سريعة، لتكتب له نصراً جديدا».

....

ثم يجيد الدكتور دمرداش أحمد تصوير الأثر النفسى الذى أحدثه نجاحه فى علاج هذه السيدة وكيف عاد هذا الأثر عليه بمزيد من النجاح:

«وتقوم دنياهم الصغيرة فى قريته وما جاورها وتقعد، على أحاديث عجيبة، يقول قائل: لقد أدركها بعد أن حشرجت روحها وبلغت التراقى فردها عليها، ويقول آخر: لقد يئس منها كل أطباء القاهرة وقرروا لا أمل فى شفائها، ويفتن الرواة والمحدثون فى ابتكار صور للحادثة لا تمت بسبب واحد إلى الحقيقة، ولكنها تكسو الطبيب ثيابا قشيبة من البطولة والعبقرية، وينظر هو إلى ما فعل فيجد أنه لم يزد على أنه فتح خراجاً».

(٧)

ولا تخلو مذكـرات الدكتور دمرداش أحـمد من تصوير دقـيق لوقائع تاريخية، يوردها صاحبها ليفسـر بها حيرته تجاه ما كان يراه من حالات صارخة يتبـدى فيها فساد الذمم عند بعض المصـريين الحكوميين، وهو يلجـأ إلى رواية بـعض الوقـائع على لسـان دبلومـــاسى شـاء حظه هو وزملاؤه أن يجالسـوه فى قطار متجه إلى بورسعـيد، ويستطرد إلى رواية مهمة يدين بها الدولة العثمانية فى عبارات قصيرة محملة بأكثر العبارات تركيزا فى وصف أسباب انهيار هذه الدولة:

«. . . ثم استرسل يقول: ليست الرشوة غريبة عن مصر، إنها التراث القذر الذى ورثناه عن عهـود الاحتلال المختلفة، وقد شـهدت طفولتى عهداً من الفـوضى وسوء الإدارة، وكان الظلم والاستعبـاد هما كل مواد الدستـور الذى تحكم به البلد، ولم يكن للناس عاصم من شـرهما إلا الرشوة، وكان الملتزمون الأتراك يعـيثون فى الأرض فساداً، لا يكفكِف من طغيانهم أو يحد من سلطانهم إلا الرشوة».

. . . .

. . . .

«وقد أتيح لى منذ حـين أن أطلع على بعض المحفوظـات فى قصر عابدين، فهالنى أن سلطان تركيا، وخليفة أمير المؤمنين، وخاقان البرين والبحرين، كان يقبل الرشوة، وقد فطن لهذا الخديو إسماعيل طيب الله ثراه، فسيطر على نظام الحكم هناك، وعين له سفـيراً أرمنياً فى الآستانة

اسمــه إبراهام بك، كل مــهمــته توصــيل الرشاوى للسلطان، والــصدر الأعظم، وغيره من الوزراء وذوى النفوذ، أعنى أنه فتح ســوقاً تباع فيها الذمم، وتشترى الضمائر».

«أراد الخديو أن يغير نظام وراثة العــرش حتى تكون لابنه من بعده، وكانت لأرشــد الموجــودين من نسل محــمد على، فــأبرق إلى إبراهام واتصل هذا بدوره بالصــدر الأعظم، واتفق مــعــه على أن يدفع له ٥٠ ألف جنيه، وللسلطان ١٠٠ ألف جنيه، ولغــيرهما كل وما يتناسب مع قيمــته، ورفعت الجزية أيضا على مــصر من ٣٥٠ ألف جنيه إلى ٧٥٠ ألف جنيــه، وأراد أن يغير اسم والى مــصر إلى عــزيز مصــر فأبرق إلى إبراهام، واتفق إبراهام على المــبالغ التى ستــدفع، وقامت دون التنفــيذ مشكلة أن السلطان اسمه عبد العزيز، وتم الاتفاق على أن يكون الاسم «خديو» وهى كلمة فارسية معناها ربانى».

. . . .

«وقــوى نفوذ إبراهام حــتى أنه اســتطاع بناء على رغــبة الخــديو أن يتحكم فى تعــيين الوزراء فى تركيــا، فاستبــعد اسم وزير خارجيــة كان يكرهه الخديو، ودفع الثمن للصدر الأعظم».

(٨)

ولا يفــتأ الدكــتور دمــراش أحمــد يعتــرف بفضل الله عليــه فى كل النجاحات التى حقــقها، وهو بعد أن يروى قصة نجاح عمليــة جراحية أجراها وأحرز بها نجاحاً كبيــراً، يعود إلى نفسه ويذكرها بالعناية الإلهية التى ترعاه ويقول:

«إذن هى العناية الإلهية التى نظمت له هذه العقود وضفرت هذه الأكاليل من الغار، وأحس أن معاهدة صداقة عنيدة قد انعقدت بينه وبين الحظ، فواجه المستقبل قويا جريئا، ولكن عند صفو الليالى يحدث الكدر».

ونحن نراه حريصاً بكل ما أوتى من قوة على أن يؤكد أهمية الاستقامة الخلقية، وعلى أن هذه الاستقامة تمثل أهم المفاتيح المتاحة للطبيب من أجل النجاح والتوفيق، وهو يفيض فى ذكر قيمة هذه الاستقامة، وما تناقله تراث السابقين عليه من نصح انتقل إليه، وما اكتشفه هو نفسه من خلال التجربة والخبرة، وهو يروى أن عناية الله أكدت له هذه المعانى بطريقة عملية من خلال ثلاثة حوارات لا يزال يذكرها إلى يوم نشره لكتاب مذكراته.

□

ونحن نرى الدكتور دمرداش أحمد، على سبيل المثال، وهو يبالغ فى وصف جمال بنت من بنات الهوى لا لشىء إلا من أجل تحقيق الغرض «الوعظى» الذى يقدم من أجله هذه القصة التى مرت بها، ونحن لا ننفى إمكانية أن تكون هذه القصة ونهايتها قد حدثت على نحو ما حدثت بالسرعة التى رواها الدكتور دمرداش أحمد، لكننا نتحفظ على الأوصاف البلاغية الجميلة التى أضفاها صاحب المذكرات على بنت هى

في المقام الأول والأخير من بنات الهوى الـمحترفات، ومع هذا فلنقرأ هذه القصة الشيقة:

. . . .

. . . .

«مرت به وهو فى أول مأمورية له ببورسعـيد التى نقل إليها مع أربعة من إخوانه، وكانوا يكافـحون الطاعون ويحقنون سكان المدينة جـميعاً بالطعم الواقي، على النمط الذى اتبع أخيراً فى التـطعيم ضد الكوليرا، كان جالساً فى خـيمته المقامة فى أحد الـميادين يحقن الناس، ودخلت عليه فتاة لم يكد يراها حتى اهتز كيانه كله، كانت هيفاء ممشوقة القد، صارخـة الأنوثة، ساجيـة الطرف، وسنى المقلتـين، لم تجاوز ربيعـها الثامن عشر، دخلـت تتمايل وتتأود وكانت مغضـبة تشكو تصرف رجل البوليس المكلف باستدعاء عائلتهـا، وما كادت تنطق ـ وكانت بها لثغة يسيرة حتى أصابه ذهول وأرتج عليـه ولـم يفتح الله عليه بكلمة واحدة، وأسعفته ذاكرته بقول الشاعر القديم ردده بينه وبين نفسه:

حـوراء إن نـظرت إليك ... سـقــتك بالـعــينين خـــمـرا

وكــأن تحت لســانهـا ... هاروت يـنفث فـيــه سـحـــرا

. . . .

. . . .

«وكشفت عن ساعدها لأخذ حقنتها، وما هو إلا أن مست يده جلدها حتى أصابته رعدة شديدة كرعدة الحمى، وبعين الخبير المجربة أدركت كل ما أصابه، فعادت إليه فى اليوم التالى مع إحدى قريباتها اللواتى لم يحقن بالأمس».

. . . .

«وكان قد قضى ليلته مع الشيطان يزين له طريق المعصية، وكاد يغلبه على أمره، لولا نصيحة أستاذه وقرب العهد بالقسم الذى أقسمه، لم يكن يقدر عودتها إلا بعد سبعة أيام، وحين فاجأه حضورها فى اليوم الثانى، انهارت مقاومته، فتلطف معها فى الحديث بالقدر الذى يسمح به وجود الكاتب والتومرجى وغيرهما من طلاب الحقن، لكنها عرفت أنها ربحت هذه الجولة فعادت إليه فى اليوم التالى، أروع جمالا، وأبرع دلالا».

«وكان قد لم شتات نفسه، وحزم أمره فردها ردا عنيفا وانقطعت زيارتها، وتمضى عشرة أيام أو نحو ذلك ويقع أحد زملائه فريسة لمرض سرى خطير ويستبد به الداء مستعينا بكل مضاعفاته، ويقف الطب حائرا أن يدفع عن أحد أبنائه هذه الكارثة، وتكون نهاية المأساة خللا فى قواه العقلية بعد ستة شهور من الآلام والعلاج المتصل».

. . . .

«ويتبسط معه صديقه فى أيام مرضه الأولى، فيذكر له أنها هى بالذات التى أهدته هذا المرض، هى باسمها، بقوامها، وأنها اقتنصته من خيمته بنفس الشباك وبنفس الأسلوب، وأنها ليست إلا إحدى

بائعات الهوى ومحترفات الحب، ويحمد الله، فقد كانت بينه وبين هذا المصير المؤلم خطوة واحدة، فيجدد العهد ويكرر القسم أن يكون في عمله دائما طاهر الذيل».

□

وعلى هذا النحو نجد الدكتور دمرداش أحمد يقدم مذكرات خلقية في المقام الأول وفي المقام الأخير، وهو لا ينتصر للشر أبداً إنما هو على الدوام منتصر للخير وللحق بكل ما يمكنه من وسائل فنية وغير فنية.

وفي أكثر من موضع من مذكراته نفاجأ بالدكتور دمرداش أحمد وهو يقدم الموعظة بطريقة مباشرة، لا تعني بأن تلجأ إلى أي نوع من أنواع الدراما أو الصراع.

ولنقرأ هذه الأقصوصة الصغيرة، والسطر الأخير الذي يبلور فيه صاحب المذكرات رؤيته مباشرة:

. . . .

. . . .

«طبيبنا الآن بشبين الكوم، في إحدى مأموريات مكافحة الأوبئة، إنه يقضي شطراً من الليل في صيدلية أحد زملائه مع بعض الموظفين، وقد استلفت نظره واحد منهم، يلبس القفاز في يديه ليلا ونهارا، علم من صديقه الصيدلي أن عنده أكزيما مضت عليها ست سنوات، فشل فيها الطب، وأخبره أن هذا الموظف ذكر له أن سببها أنه أخذ رشوة من

صاحب حاجة فى الصباح، وشعر في المساء بنار تأكل يديه، تاب وأناب ورجع إلى الله، لكن النار فى يديه لم تنطفئ».

....

«شاه وجه الرشوة وقبح، ولعنة الله على تجار الذمم المرتشين».

◘

هكذا ينهى الدكتور دمرداش أحمد إحدى قصصه الكثيرة التي تحفل بها مذكرات لا يجد الناقد حرجاً وهو يدعو وزارة التربية والتعليم إلى أن تقررها ككتاب من كتب القراءة التى يطلق عليها فى المناهج الدراسية: «الكتاب ذو الموضوع الواحد».

الباب الخامس

أقاصيص.. وأقاصيص

مذكرات الدكتور أرنست سليمان شلبى

(١)

هذه مذكـرات فريدة كتبـها أستاذ بارز من أسـاتذة الطب الباطنى فى كلية طب قصر العينى، وإذا أردنا الدقـة فلنقل إنه أملاها، وقد فعل هذا بعـد أن تقدمت به السن، وضـعف بصـره، وحسناً فـعل حين كـتب، وحسناً فعل حين أشار فى مقدمة كتابه إلى صاحب الفضل فى دفعه إلى خوض هذه التجربة بتسجيل تجربته الإنسانية للقراء من أمثالنا، وقد كان صاحب الفضل فى هذه الخطوة وهو الدكتور سـمير حنا صادق صاحب تجربة سابقـة فى كتابة بعض مذكـراته، وقد كتبهـا فى سياق مجـموعة متميزة من الكتب التى عُنيت بالثقافـة العلمية، قدمها للقراء العرب على مدى عقدى الزمان الماضيين.

ومن الإنصاف أن نبـدأ مدارستنا بالإشارة إلى مـا بدأ به صاحب هذه المذكـرات من ذكر صـاحب هذا الفضل، وسـوف نلاحظ فيـما يرويه الدكتور أرنست أنه ممتن أيضا للسيدة سامية صادق زوجة الدكتور سمير حنا التى قامت بدور كبير فى المساعدة على خروج كتابه إلى النور.

أما الشخص الذى يحتفظ له الدكتور أرنست سليمان بأقصى درجات المودة والامتنان العميق فهى زوجته السيدة سميحة توفيق نان، وهو يختم كتابه بالإشادة بها فى فقرات جميلة يقول فيها:

«. . . أشرفت على الثمانين، وفقدت بصرى إلا أضأله، والسمع إلا أقله، والحركة إلا أبطأها، ولولا وقوف زوجتى بجانبى لما عشت يوما واحدا. هى لى عينى المبصرة، وأذنى المنصتة، ويدى المنجزة، ولا أملك أن أجازيها عن ذلك ولا أدرى كيف يجزى المرء عينه المبصرة، وأذنه المنصتة، ويده المنجزة إلا أن يدعو الله أن يفتح لها أبوابه واسعة فى الأرض وفى السماء».

□

وفيما قبل هذا نجد الدكتور أرنست شلبى يتحدث عن زواجه من هذه السيدة بكل ما يمكن للزوج المحب أن يتحدث به عن زوجته، وتعاونها وإخلاصها وذكائها، وهو يقول:

«. . . كان هذا أهم حدث فى حياتى وأسعده، وإذا استرسلت فى تعديد مزاياها اتهمت بالتحيز، وإذا قصرت فى ذلك لمت نفسى، ومهما قلت فى مدحها سأقصر ولن أتمادى فى مدحها لكى لا أتهم بالتحيز الشديد. فهى سيدة فضلى، متنورة العقل، قوية الشخصية، فكرها منطقى، كفاءتها لا تتعادل فى تربية الأولاد أو فى ترتيب المنزل، وكان قلبها عطوفا على الأطفال وبصفة خاصة أطفال العمارة وصغار البقال أو

صغار المكوجى، كما أنها كانت بارعة فى إدارة المنزل وإشاعة الروح المرحة فيه. كانت تشرى حياتى الثقافية والاجتماعية، حتى أحبها الجميع، جميع أقربائى وجميع زملائى، لما تقوم به من حفلات وسمر ونشاط ثقافى وموسيقى».

....

وهو يتحدث بود وتقدير عما يسميه أو يشخصه: إيمانها بأنوثتها وشعورها بالواجب العائلى الإنسانى والمهنى جميعاً فيقول:

«كانت تؤمن بأنوثتها إيمانا مطلقا، وتعامل الرجال ندا بند، ولا تفرق بين الرجل والمرأة فى أى شىء، وكانت هذه طبيعتها».

«كان شعورها بالواجب عظيما. لم تتخلف لحظة عن واجبها الصحفى حتى إنها كانت فى الشارع فى أثناء حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢، وكانت فى حملها فى الشهر الأخير، وفى المساء جاءها المخاض وكانت مصر تحت الحكم العسكرى ومنع التجوال حتى الساعة السادسة صباحا، فانتظرنا حتى الفجر ونزلنا من البيت واتجهنا إلى المستشفى فى السادسة صباحا وتمت الولادة قبل الظهر ورزقنا بتوءم: عادل وأمير».

(٢)

وتدلنا مذكرات الدكتور أرنست على قيمة القدوة التى يمثلها الوالد المربى، ونحن نرى أثر هذه القدوة واضحاً فى سلوك ابنه وفى

توجهاته، وفى إدراكه لمعنى القيم والأخلاق، وهو يحدثنا فى ثلاثة مواضع من كتابه عن أثر هذه القدوة حديثا غير مباشر وغير مقصود، لكنه يعكس ما يحس به صاحبه من أثر للقدوة فى سلوكه وتصرفاته.

أول هذه الأحاديث دلالة هو ما يرويه صاحب المذكرات عن موقف والده من ناظر المدرسة التوفيقية الذى أراد معاقبة صاحب المذكرات ككبش فداء لزملائه ممن شاركوا فى مظاهرات الطلبة فى ذكرى وعد بلفور، فما كان من الأب إلا أن وقف من ناظر المدرسة موقفا حازما رافضا أن يقوم، وهو الأب، بضرب ابنه، وطالبا إلى الناظر ألا يستدعيه لمثل هذا السبب مرة أخرى لأنه مشغول بعمله.

يقول الدكتور أرنست شلبى:

«... وأثناء وجودى فى مدرسة التوفيقية قام الطلاب بالإضراب عن الدراسة فى ذكرى يوم وعد بلفور، وهى مناسبة سنوية يذهب فيها الطلبة إلى البرلمان هاتفين بسقوط الاستعمار. فلما حضر ناظر المدرسة وكان اسمه عبد الحميد بك نجاتى ووجد المدرسة خاوية، قرر عقاب أربعة طلاب من كل فصل، وحيث إن اسمى يبدأ بحرف «الألف» فكنت أحد هؤلاء الأربعة الذين انفردوا بالعقاب عن فصلنا، فاستدعى الناظر أولياء أمور هؤلاء الطلبة من عملهم ومنهم والدى، طلب الأستاذ نجاتى من والدى أن يضربنى أمامه وأمام أولياء الأمور الآخرين، فرفض والدى وقال: «أنا لا أضربه الآن ولم أضربه قبلا، أنت مرب وناظر هذه

المدرسة فإذا وجدت أن الضرب لابد منه فلتقم سيادتك بضربه أما أنا فلن أضربه». أصر الناظر وقال: «إذا لم تضربه فسأرفده من المدرسة»، فرد والدى قائلا: «أمرى إلى الله، تعالى معى يا ولدى». فقال الناظر: «لا بل يقف أمام حجرتى حتى الساعة الرابعة»، فقال والدى: «فليكن كذلك، وأرجوك ياحضرة الناظر ألا تستدعينى من عملى مرة أخرى، فأنا موظف مكلف بأداء واجبى ولا يسهل علىّ الاعتذار عنه».

(٣)

أما الحديث الثانى (وهو أسبق فى الورود فى الكتاب) فتلخصه الصورة التى انطبعت عن أداء والده لعمله كناظر لمحطة السكة الحديد فى القرية الصغيرة، وكيف كان ملتزما تماما بالعمل، وكيف أنه لم يسمح فى زمن الاحتلال لبريطانى متغطرس أن يغير من مواعيد القطار من أجل طلب شخصى حتى مع تهديد هذا البريطانى بوضع ساقه على قضيب السكة الحديد فى مواجهة القطار.

يقول الدكتور أرنست شلبى:

«... كان والدى يشغل منصب ناظر محطة سكة الحديد فى سمالوط التى كانت تبعد عن القرية بأربعة كيلومترات، وكنا نسكن منزلا حكوميا بحديقة صغيرة موجوداً فى آخر رصيف المحطة. كان أبى فخورا بهذا المركز ودقيقا فى عمله، وملتزما بالمواعيد، وملتزما بالمسئولية، فكان هو الشخص الوحيد المسئول عن كل شىء فى هذه

المحطة الصغيرة، من أصغر شيء إلى أكبر شيء. كان ينزل من البيت قبل ميعاد القطار بنصف ساعة يوزع التذاكر ، ويباشر الأمور، ويحل المشاكل. كان يقدس احترام المواعيد، ويردد لى دائما: «إذا وصلت بعد قيام القطار بدقيقة واحدة، كأنك تأخرت ساعتين أو حتى يوما بأكمله». وبعد انصراف القطار يعود إلى المنزل، وكان يكرر ذلك ثلاث أو أربع مرات كل ٢٤ ساعة، هكذا كان نمط حياته».

«ومن نوادر قصصه أن [موظفاً إنجليزياً متعجرفاً قرر] شحن حصانه إلى القاهرة بالسكة الحديد، فأخبر والدى الذى استعد لذلك مؤكدا لهذا الموظف أن القطار سيقوم فى موعده تماما، وفتح له باب عربة الحيوانات استعدادا لوصول الحصان، إلا أن الحصان تأخر ولم يصل فى الموعد المحدد، فأطلق والدى صفارة أولى كعادته استعدادا لقيام القطار، فوضع الموظف المتعجرف ساقه على قضيب السكة الحديد تهديدا لوالدى الذى أطلق الصفارة الثانية دون تردد، فتحرك القطار وانزعج الموظف المتعجرف وانتفض وكأنه فأر مذعور وانسحب بين ضحكات وسخرية وهزء الجميع.. ولم يسافر الحصان».

(٤)

ولعل هذا الحديث عن القيم التى غرسها فيه والده يفسر لنا تركيز أرنست شلبى فى فهمه للمجتمع الأمريكى، وقد أتيح له أن يعايشه، على مدى التزام هذا المجتمع وشعوره بالمسئولية واحترامه للقانون

وذلك فى معرض تلخيصه لخبرته فى الحياة الأمريكية والتزام الأمريكيين بالعمل وهو يقول:

«فالطبيب الأمـريكى يلتزم التزاما مـائة فى المائة بالمواعيـد، يحضر قبل الثامنة صـباحا، وينصرف بعد الخامـسة مساء، ويتحمل المـسئولية تحملا كامـلا، ويحترم القوانين احترامـا شديدا بدون أى إشراف عليه، وبدون أى تفتيش أو مـحاسبة من الرؤساء. يقوم بواجـبه ويؤدى واجبه على أحسن حال، ويصرف وقته كـله فى المستشفى... وأرى أن جزءا كبـيرا من تفوق المـجتمع الأمـريكى هو الالتزام والشعـور بالمسئـولية واحترام القوانين، وفى مصر يُعتبر كسر القانون فى كثير من الأحيان من صفات السيادة».

....

«القانون موضـوع طاعة للجميع، كمـثل أثر فىّ أخيراً بأن ابنة رئيس الولايات المتـحدة حُجزت بقـسم البوليس لعـدة ساعات لأنهـا شربت خمرا وهى دون السن القانونية، ولم يؤْذ من البوليس أحد».

(٥)

أما الحديث الثالث فهو حديثه عن وفاة والده بكامل ملابسه مما مهد لقرار الأسرة بدفنه بهذه الملابس ذاتها:

«... توفى أبى بالسكتة القلبية فـجأة أثناء زيارته مع والدتى لأختها بمصر الجديدة. فقد سقط فنجان القهوة من يده ومات فى لحظة واحدة

وكان مرتديا أجدّ حلة لديه، حليقــا معطرا مهندما، حتى إنه دفن بنفس تلك الملابس كــما هى. كان ذلك بالصــدفة أول يوم فى شهر رمــضان الموافق ١٤ من أكتوبر ١٩٤١».

(٦)

وقد كان النتيجة الطبيعية لهذه التربية المثالية الملتزمة أن طُبع الدكتور أرنست سليمان شلبى بالقدرة على الانتــصار لوطنيته متى تمكن من هذا الانتصار، مع كظم الغيظ حين لا يســتطيع تحقيق هذا الانتصار، ولعل قصته مع الممرضة الإنجليــزية فى قصر العينى تدلنا دلالة واضحة على هذا المعنى:

«. . . وفى يوم من أيام الشتاء القــارص،كنت جالسا فى لحظة هادئة دخل علىّ فلاح حــافى القدمين، لعله سار طول يومــه حتى وصل إلى قصــر العينى من إحدى قــرى الدلتا. ظن المســكين أنه وصل بر الأمان ولم يعرف أن البيــروقراطية له بالمرصاد، فبــعد الكشف عليه قلت له: «إنك تشكو من فتق وهذه ليست حالة مستعجلة، فلا يجوز دخولها فى المســتشفى (من الاســتقبال)» وحــولته إلى العيــادة الخارجيــة فى اليوم التالى، ليدخل ويعمل العملية. استغرب الرجل جداً وقال: «عندى فتق وعندكم العلاج فما المشكلة؟» ومنطقه بسيط، لكن البيروقراطية منطقها أكثــر تعــقيــدا. استأذن مــنى أن ينام فى الطرقة حــيث البرد شــديد فى الخــارج، فوافــقت على التو وتفــاءل الرجل، وتكوم فى الطرقــة على

البلاط دون أى غطاء أو فـراش، وجهه إلى الحـائط، وبعد قليل دخلت الممرضة الإنجليزية، وكانت هيـئة التمريض الإنجليزية دولة داخل دولة فى قصـر العينى، فسـألت: «ما المـوضوع؟» فرويت لهـا قصتـه لكنها قالت: «يخرج فـورا»، فتوسل إليهـا المسكين وترجمت لهـا توسلاتها بالإنجليزية، إلا أنهـا صممت على خروجـه فورا من المستـشفى، كرر توسلاته مرة أخرى، وأكد لها «لن أمس شيـئا فى المستشفى، فقط أنام على البـلاط بدلا من النوم فى الشـتـاء فى الشـارع، فلم تسـتـمع إلى توسلاته. كنت فى ذلك الوقت فـى أدنى درجات طبيب الامتـياز، ولم يكن لى حول ولا قوة أمام هذه المـمرضة المتعجرفـة [فأضمرت] ذلك فى قلبى إلا أن الظروف شـاءت أن أنتقم من هذه المـمرضـة بعد ذلك بسنتين».

«فقد أرادت إحدى زوجات الأساتذة، وهى إنجليزية مثلها، أن تعالج فى المسـتشفـى، فجهـزت لها هذه الممـرضة حجـرة خاصـة، بسرير خاص، بناموسية وتجـهيزات أخـرى خاصة، لكن كـان ذلك فى قسم الرجال الذى هو تحت إشرافى، فتركـتها تفعل حتى أتمت كل شىء ثم قلت لها بهـدوء تام: «لا يجوز بيات هذه المـريضة فى المسـتـشفى فى قسم الرجـال»، فطاش صوابها وفقـدت وقارها وعلا صـوتها واتصلت بالأستـاذ ليردنى عن عزمى، فقلـت له كما قلت لزوجتـه: «إنكم فوق رأسى وعينى، لكن ممنوع نهائيا بيـات السيدات فى قسم الرجال»، وقد كان. لكـن لم يكن هذا هو السبب الحـقيـقى، فالسـبب الحقيـقى هو

الأنتقـام من هذه الممرضـة الإنجليزية قاسـية القلب التى لم تهـدأ بعد ذلك، بل كانت تصيح وتهدد بشكواى إلى مدير المستشفى، فقلت لها: «يمكن أن تشتكى إلى وزير المعارف نفسه إذا أردت، لكن المريضة لن تبيت هنا فى المستشفى فى قسم الرجـال»، وكان ذلك تشفيا بما قامت به مع الفلاح البسيط منذ سنتين».

(٧)

ومع هذا الإيمان العميق بقيمـة المبادئ والالتزام، فإن أرنست شلبى لا يخفى عجزه عن إدراك سر الحيـاة وفلسفة القدر، وهو يضرب مثلين صادفـهمـا فى حياته الطويلـة، المثل الأول عاشـه هو نفسـه مع أمه، والثانى قـرأه فى مجلة، وهو يجـيد تلخـيص معاناة والـدته فى صورة عميقة ويقول:

«. . . أصيبت أمـى بالشلل وفقدان النطق لمدة تسع سنـوات وتسعة شهـور، ولولا عناية أختى بهـا لكانت كالحـيوان الجريـح لا يجد من يطعمـه أو يسقـيه. فأى عـقاب هذا الذى نالها وهو لا يـليق إلا بأعتى المجرمـين، حتى أنه بالحساب وجـدت أنه كل أسبوع عاشـته كان منه يوما كاملا مشلولة فاقدة النطق».

أما القصة الثانية فيرويها نقلاً عن مجلة بريطانية على نحو مؤثر وفيه يقول:

«. . . رزقت أم بطفل ناقص العقل ـ منغـولى ـ لا يُرجى منه الشفاء ولا يستطيع العناية بنفسه أو كسب قوته إذا عاش. كان هذا الطفل مصابا

في الوقت نفسه بانسداد في الإثنى عشر، وهو مرض ليس نادرا في حديثي الولادة، فرفضت الأم إجراء عملية لفتح الإثنى عشر وبدونها لن يعيش الطفل، فأصر الطبيب على عمل العملية ورفعوا الأمر للقضاء الذى حكم بإجراء العملية، وأجريت العملية فعلا وعاش الطفل وانصرف الجمع من حوله: القاضى إلى أسرته راضيا سعيدا، والنائب العام إلى خمارته، والأطباء إلى منازلهم، وضمائرهم مستريحة لقيامهم بواجبهم «الجليل»، وسرعان ما نسى الجميع الموضوع وبقيت الأم البائسة مع وليدها العاجز بقية العمر، فلا هو قادر على القيام بأمور حياته، ولا هى قادرة على تركه بدون مساعدة».

....

ولا يكلف أرنست شلبى نفسه تفسيراً أو شرحاً لهذا الموقف الذى قرأ عنه على هذا النحو، وكأنما كان يتمنى ألا تحكم المحكمة بإجراء العملية الجراحية للطفل المغولى حتى لا يعيش، وتنتهى بهذا معاناة والدته.

(٨)

وتحفل المذكرات بمواقف طريفة من الخبرة المهنية المصفاة والمنتقاة، ولا ننسى أن هذا الكتاب يلخص حياة طبيب ناجح وخبرته فى الأمراض الباطنة فى العصر الذى كان النجاح فى هذا التخصص قائما على قدرات عقلية متميزة مع خبرة تراكمية عبر السنين، ونحن نرى صاحب المذكرات بحس فنى عالٍ قادراً على أن يمسك بالمفارقات

التى شـهدها الزمن أو أوجدهـا مع ازدهار المعـرفة الطبيـة، ولعل أبرز الأمثلة عـلى هذا ما كان الأطبـاء يجهلونه مـن أمر الكوليرا والـوسائل الكفيلة بتقليل الوفيات الناشـئة عن هذا الوباء ، وهو يحكى عن تجربته فى وباء الكوليرا مـشيراً إلى أن هذا الوباء حدث عام ١٩٤٨ بـينما كان الوباء قد بدأ عام ١٩٤٧ :

«. . . فى سنة [١٩٤٨] اجتاح مـصر وباء الكوليرا، وكنت فى ذلك الوقت نائبـا فى المسـتشـفى، فكلفت بتطعيـم عدد كبـير من مـرضى المستشـفى، كانوا يقاومون تناول هذا الطعم بالحقن حـيث كان يسبب آلاما فى الذراع [وارتفاعاً] فى درجة الحرارة، فكنت عندما أدخل العنبر لأطمئنهم وأشجعهم على أخذ الطعم، أكشف عن ذراعى وأحقن نفسى بجـرعة بسـيطة من هذا الطعم أمام المـرضى. وفعـلا كانوا بعـد ذلك يقبلون على أخذه باطمئنان حيث إننى أعطيت الطعم لنفسى أمامهم، إلا أنه فى آخر اليـوم كنت قد أخذت كـمية كـبيرة من هذا الطعم فـساءت حالتى وارتفـعت حرارتى إلى أكثـر من ٤١ درجة، وكدت أنفق نتيـجة الشهامة الكاذبة».

«فى أول الوباء كان المرضى يموتون بـالعشرات كالذباب، ولم نكن نعرف السر فى ذلك حتى تكررت المـؤتمرات واهتدينا إلى السبب وهو نقص البوتاسـيوم والملح فى هؤلاء المرضـى، وعندما أدركنا ذلك فى أواخر أيام الوباء كنا نعطيهم الـبوتاسيوم والملح وأمكن إنقاذ عدد كـبير منهم والحمد لله».

«وللبوتاسيوم قصة أخـرى. فكنا نتنافس أنا والمرحوم الدكتور عدلى الشيخ فى علاج غيبوبة السكر المصحوبة بالأستون، لم نتمكن من إنقاذ عدد كبـير من هؤلاء المرضى بسبب بسيط لجـهلنا إعطاءهم بوتاسيوم، فلما عرفنا هـذه المعلومة البسيطة «احـتياج المريض للبـوتاسيوم» أمكن إنقاذ عدد منهم».

(٩)

ونأتى إلى علاقة صاحب المذكرات بالبشر الذين صادفهم فى حياته، ومن العجـيب أن الدكتور أرنست سليـمان شلبى قد تعمـد ألا يذكر لنا اسم أستاذه فى الأمراض الباطنة ولا اسم رئيس قسمه ولا اسم مَنْ منحه درجـة الدكتـوراه، وليس هذا فـحـسب، وإنمـا نحن نلاحظ أنه أهمل الحديث عن أى دور لهم فى حياته أو تعليمـه، ومع هذا فإننا نراه حفياً بالحديث عن الأستاذ الذى تولى تربيته فى مـرحلة سابقة على الجامعة، وهو الأستاذ يعقوب فام، وهو يورد حديثا شيقا عن هذا الأستاذ وتجاربه التربوية:

«كان الأسـتاذ يعقـوب فام (أكتوبر ١٨٩٢ ـ فـبراير ١٩٥٧) شخـصا متميزا وشـخصية مهمة أثرت وتركت بصمـات على كل مَنْ قابلها. عاد هذا المربى الفاضل الكبـير من أمريكا بعد حصوله على درجـات التربية من جامعاتها، وبدأ تجـربة فريدة فى جمعية الشبان المسيـحية فى مصر لم يسبق لهـا مثيل: مجـتمع صغيـر ديمقراطى، يُدار بطرق ديمقـراطية وعلى أسس ديمقراطية سليمة».

«كانت هذه الفكرة الجديدة التى لم يسبق لها مثيل فى مصر الرائدة فى عالم الديمقراطية، جديرة بالانتشار فى وزارة المعارف والمدارس كلها، إلا أن الأستاذ يعقوب فام اقتصر على قسم الصبيان ومات قبل أن ينفذ أو ينشر هذه الفكرة فى أوسع نطاق وماتت الفكرة فى مهدها، ولو انتشرت هذه الفكرة فى مدارس مصر لكان لنا شأن آخر، وأعتبر نفسى سعيد الحظ بأنى تعرضت لهذه التجربة واستفدت منها استفادة كبيرة».

«اهتم الأستاذ يعقوب فام بالصبيان بين العاشرة والسادسة عشرة من العمر، وأنشأ بجمعية الشبان المسيحية بقصر نوبار باشا بشارع إبراهيم (الجمهورية حاليا) «قسم الصبيان» يتكون من أربعة أندية: رمسيس، وأحمس، وسيتى، وإخناتون، وكانت هذه الأندية مجتمعا مستقلا بذاته لها نشاط اجتماعى ونشاط رياضى كل مستقل بذاته، يتنافس فيها الأعضاء فى حرية تامة، ولكل نادى هيئة إدارة تشبه الوزارة وتقوم الإدارة على أسس المناقشة المنطقية الديمقراطية. كانت الاجتماعات تدار على قواعد روبرتز لإدارة المجتمعات الديمقراطية».

«تعلمنا فى قسم الصبيان الخضوع لرأى الأغلبية حتى لو تضارب هذا الرأى مع رأينا الشخصى. كما تدربنا على قبول الرأى الآخر، وهى فكرة لم تكن منتشرة فى المجتمع المصرى حيث يتشبث كل شخص فيه برأيه فى أثناء المناقشة، وقبول الرأى الآخر علامة من علامات الديمقراطية وظاهرة مهمة جدا فى الحياة الاجتماعية الديمقراطية».

«أتاحت لى الأنشطة الرياضية والاجتماعية أن أتدرج وأرأس نادى رمسيس ومن بعده أصبحت العمدة الأول لقسم الصبيان سنة ١٩٣٨، وكان مركزى يشبه مركز رئيس الوزراء فى المجتمع الكبير».

«أنشأ المرحوم جمال شوقى فى جمعية الشبان المسيحية جماعة الموسيقى الكلاسيكية، وكان من بين أعضائها المرحوم الدكتور فؤاد نجيب وحليم الضبع الذى عين بعد ذلك أستاذا للموسيقى الشعبية بأمريكا، وأوفد فى بعثة طويلة الأجل إلى إفريقيا لتسجيل طبول وموسيقى القبائل هناك».

(١٠)

ويبدو أن الدكتور أرنست سليمان شلبى كان يشعر بالنقص الذى يعترى مذكراته فى جانب الحديث عن أساتذته، ويبدو لى أيضاً أنه بطريقة غير واعية ظن أنه يمكن له أن يعوض هذا النقص بالحديث عن «ذلك» التومرجى «الكبير» الذى تعلم منه الكثير، وهو يتحدث عنه وعن خبراته بامتنان كبير لفضله، وبتقدير واضح لقدراته، لكنه سرعان ما يتحفظ على هذا النوع من الطب القائم على الخبرة دون علم:

«... تخرجت من كلية الطب فى ديسمبر ١٩٤٥ وأصبحت طبيبا يخاطبنى الناس باحترام بكلمة «دكتور»، وعجبت لذلك أشد العجب خصوصا حين كان يصدر من حسن، تومرجى القسم القديم. كان حسن يعرف أشياء كثيرة لا أعرفها وله خبرة عظيمة لا أدريها. وكان مع ذلك

يحترمنى احتراما شديدا أعجب له وأنا فى سن أصغر أبنائه على الأقل.
وكنت أرى فى هذا التومرجى ميزات أحترمه من أجلها لخبرته العملية دون دراسة تقليدية. فمثلا فى ليلة من الليالى استدعيت لإسعاف مريض أجريت له عملية فى الصباح السابق، انتفخ بطنه وانحبس الغاز فيه، وكاد أن ينفجر. وقفت أمامه عديم الحيلة وبكل بساطة اقترح هذا التومرجى اقتراحا بسيطا وبتواضع تام، أن نضع فى شرج هذا المريض أنبوبة كان فيه شفاؤه وكان فيه خلاصى، وكنت لم أسمع بها فى المحاضرات أو فى الكتب».

«وكان أيضا يرشدنى، أن أكتب «غذاء عادى» وليس «غذاء خفيف» للمرضى الفلاحين، لأن الغذاء العادى يحتوى على قطعة لحم يهتم بها الفلاح أكثر مما يهتم بالبيض واللبن والبالوظة والمهلبية التى هى الأكل الخفيف الذى كنت أعتقد أنه أنسب له من الجهة الصحية».

. . . .

وسرعان ما يستدرك الدكتور أرنست ويقول:

«إلا أن إعجابى بهذا التومرجى يقف عند هذا الحد لأنى لا أومن بالتجربة التى لا تقوم على أساس علمى، وكثيرا ما تكون كلمة «خبرة» غطاء يخفى جهلا أو عدم التزام بالطريقة العلمية السليمة فى تحليل الأشياء، وقد تعلمت أن الخبرة غير المبنية على الأسس العلمية تكتنفها أخطاء جسيمة».

(١١)

ولا يبدى الدكتور أرنست سليمان شلبى فى هذه المذكرات اعتزازه إلا بعدد قليل من أساتذة الطب الذين تلمذ لهم، وهو لا يخصص من كتابه حديثا إلا عن اثنين من هؤلاء الأساتذة، وأول هذين هو الدكتور محمد كامل حسين الذى فتح عينه فى زمن مبكر على ما نسميه فى العلم: ظاهرة التزامن العشوائى، ويلخص الدكتور أرنست هذه الفكرة فى قوله:

«... ألقى علينا من ستين سنة الفيلسوف الأديب ورائد جراحة العظام الدكتور محمد كامل حسين محاضرة أوضح لنا فيها التأنى فى البحث عن الارتباط الحقيقى للظواهر، فقال فيها: «إن عدد الأتوبيس زاد بنسبة ٢٠٪ فى العقد الأخير، كما زاد عدد عمليات استئصال الزائدة الدودية بنسبة ٢٠٪ أيضا فى نفس العقد. فهل معنى ذلك أن الأتوبيس سبب في زيادة عمليات الزائدة الدودية؟».

وسرعان ما يعقب الدكتور أرنست على هذه الحكمة البسيطة البالغة فيقول:

«ولصق هذا المثل بذاكرتى وأكرره لطلبتى «إن تزامن ظاهرة مع أخرى لا يعنى أن بينهما علاقة سببية، قيل أخيرا إن النبيذ الأحمر يحمى من مرض القلب، إلا أنه ثبت بالدراسة أن ذلك يرجع لأسباب أخرى».

ومع هذا الاعتزاز الواضح بمحمد كامل حسين فإن الدكتور أرنست شلبى حين يشير إلى بردية أدوين سميث لا يذكر فضل محمد كامل

حسين فى التعريف بهذه البردية وشرح محتواها وقيمتها العلمية، ولعله لم يطالع مقال محمد كامل حسين عن هذه البردية.

(١٢)

أما أستاذ الطب الثانى الذى يحدثنا عنه الدكتور أرنست شلبى فهو أستاذ علم الفسيولوجيا الشهير «أنريب»، وهو يقدم لحديثه عن هذا الأستاذ بما هو معروف من تاريخه العلمى، ثم يستطرد إلى ذكرياته عن تلمذته له، لكنه قبل هذا يتحدث فى استطراد عن أحد أساتذة أنريب وهو الفيلسوف الفرنسى الشهير كلود برنار:

«... كان أنريب عالما روسيا وأستاذ الفسيولوجيا فى كلية الطب قصر العينى، وكان تلميذا فى أول حياته لبافلوف ثم انتقل إلى باريس واشتغل فى معمل أبحاث كلود برنار، رائد الفسيولوجى فى فرنسا بل وفيلسوف فرنسا. وكان برنار فسيولوجيا ملهما يسترشد بإلهامه الحل الصحيح لأى مشكلة يقابلها، فلا يضيع جهده فى تجارب كثيرة حتى يصل إلى الحقيقة، بل يلهم عقله إلى سبب الحقيقة أو حل المشكلة من ثانى أو ثالث تجربة، وكانت المشاهدة والتجربة فى دمه، فمثلا اشترى فى بدء النهار كبد حيوان للأكل فى العشاء ولم يطهه بل تركه طول النهار وطلب من مساعدته أن تحدد كمية من الجلايكوجن Gly cogen† والنشويات الحيوانية Carbohydrates وكمية الجلوكوز فى أول النهار وآخره، فوجد فرقا عظيما دون تدخل الإنسان. فقد تحول أغلب

الجلايكوجن إلى جلوكوز فى نهاية اليوم واهتدى إلى أن هذا هو سبب حلاوة طعم الكبد إذا ترك بدون طبخ لمدة ما وكرر هذه التجربة لإثبات ذلك».

وبعد فقرات يقول الدكتور أرنست شلبى:

«ولكن أهم ما أثر فىّ أن أنريب كان لا يقول قـولا إلا وأثبته عمليا، ولا يقول حـقيقة علـمية إلا وشرح لنا كـيف تم التوصل إليهـا، وكان [لذلك تأثير كبير] على تفكير طلبته، وكنت متيـقظا لهذه الحقيقة معجبا بها ومعجبا به إعجابا كبيرا».

(١٣)

ومن الإنصاف أن نشـير إلى حقـيقة أن أرنست شلبى شـلبى يعوضنا عن نقص الحديث المفـتقد عن أساتذته بحديث جـميل وطريف وموح عن مجموعة أصدقائه:

«... كنا شلة من الأصـدقاء لا تتجـاوز عشـرة أفراد نسمى أنـفسنا «العظام» وبالإنـجليـزية The Bones منهـا دعابة!! ومنها غـرور، كنا نجتـمع فى منزل أحـدنا كل أسبوع نـتناقش فى أمور الدنيـا والسيـاسة والعلم ويلخص لنا أحـدنا مقالة مـهمة أو كـتابا مهـم أو نظرية هامة أو معلومة علمية هامة، يعقبه السمر والعشاء بعد ذلك».

«ألقى الدكتور رشـدى سعيد سلسلة من المحـاضرات عن تاريخ نهر النيل القديم وتحويل مـجراه عبر العصـور الجيولوجية، وأصـبحت بعد ذلك نواة كتاب ثمين فى المكتبة المصرية».

«وألقى الدكتور أمين موسى جاد أستاذ الحشرات بجامعة القاهرة، سلسلة محاضرات عن الحشرات أظهرت لنا أن عالم الحشرات لا يقل أهمية وعجباً وإثارة عن عالم الحيوان وعالم الأسماك وعالم الأشجار أو على الأقل يضاهيها».

«كما ألقى الدكتور على فؤاد والدكتور عبد المنعم شوقى محاضرات عن الأحوال الاجتماعية والمشروعات الاجتماعية فى مصر حيث كان الأول شخصا مرموقا فى وزارة الشئون الاجتماعية والثانى عميدا لكلية الآداب فى جامعة أسيوط».

....

ربما جاز لنا أن نستطرد هنا لنذكر أن كلية الآداب فى جامعة أسيوط كانت قد أنشئت فى مدينة المنيا، فلما أسست جامعة المنيا انفصلت كلية الآداب بالمنيا عن جامعة أسيوط وأصبح الدكتور عبد المنعم شوقى عميداً لها، ثم أنشئت كلية جديدة للآداب فى أسيوط.

ونعود إلى حديث الدكتور أرنست شلبى عن مجموعة «العظام» ونشاط كل عضو من أعضائها، لنطالع صورة من صور التفوق الثقافى والحضارى الذى تمتع به جيل أرنست شلبى، وهو التفوق الذى ساعدهم على الاحتفاظ بمكانتهم فى المجتمع على الرغم من توالى الأجيال المتعاقبة، ونحن ندرك من قراءة هذه الفقرة ومثيلاتها أن التكوين الثقافى واسع الأفق يظل حاضراً فى أذهان أصحابه بكل تفصيلاته مهما تقادم بهم العمر:

«. . . قام الدكتور حلمى غالى، الذى أصبح فيما بعد وكيل الوزارة للشئون النفسية فى وزارة الصحة، بسلسلة محاضرات عن المخدرات والإدمان استفدنا منها جميعا دون شك».

«كما قام الأستاذ ماهر عبد الله، الخبير باليونسكو بالأمم المتحدة، بشرح وسائل تعليم الكبار بمركز سرس الليان، وقد دعانا إلى زيارة هذا المركز لمشاهدة هذه الوسائل التعليمية من بصرية وسمعية وخلافها وتطبيقها علميا، وقد تقبل المصريون الذين طبقت عليهم هذه الوسائل واستفادوا منها. وقد طبقت هذه الوسائل بعد ذلك فى عدد من دول العالم الثالث».

«وقام الدكتور سمير حنا صادق وكان أشدنا حماسا لنظرية التطور بشرح واف عن خروج الحيوانات من المحيط إلى الأرض اليابسة فى العصر الكامبرى، وفسر بذلك أن دماء الحيوانات الحارة تعادل تسع فى الألف من محلول الملح لكنها تتحد فى الضغط الأوزموزى مع المحيط فى ذلك الوقت وليس الآن، كما شرح ضرورة تكوين الكلى لتنقية السموم من دماء الحيوانات بكمية أقل من الماء، فالسمكة تحتاج إلى مائتى لتر من الماء يدر بجسمها لتطهيرها من السموم فلا داعى للكلية، الماء متوافر وإخراجه سهل أما عن خروج الحيوان إلى اليابسة فتعقدت الأمور واضطر إلى تركيز السموم ووجود الكلى لأداء هذه المهمة».

«أما أنا فقد أخذت مقتطفات من محاضرات الدكتور أنريب، أستاذ الفسيولوجيا فى كلية الطب، لتلخيصها وإلقائها على زملائى».

(١٤)

ولا تخلو مذكـرات الدكتور أرنست شلبى، على قصـرها، من إلمام طبى جيد بمشكلات المجتمع الحادة، وعلى الرغم من أن صاحب هذه المذكـرات لم يكن مضطراً إلى إبداء آرائه الشـخصية أو المـهنية فيـما يتعلق بالمخدرات، فإننا نراه حريصـاً على أن يرفع صوتا خفيفا يطالب فيه أو يطالب من خلاله بمحاولة تغيير نظرة المشرع المصرى إلى بعض المواد المصنـفة على أنها مخدرات، ونحن نلاحظ أن لـلدكتور أرنست نظرة خاصة إلى المادة المخدرة المـعروفة باسم «الحشيش» وهو يفصل القول فى هذا الشأن إلى أن يصل إلى قوله:

«... الخلاصة أن الحشيش يعطى سعادة لفترة مؤقتة، وفى الماضى كان عدد كبير من الناس يتعاطاه يوم الخميس الأول من كل شهر لسماع حفلة أم كلثـوم الشهرية ويمـتنعون باقى الشهـر عن تعاطيه دون شـعور بالحرمان منه، أى أن الإدمان ضعيف».

ويحاول الدكتور أرنست شلبى أن يؤصل لـلفكرة التى يدعو إليها فى التساهل مع الحشيش فيقول:

«... تتـساهل بعض الدول المـتقـدمـة مثل الدنمـارك وهولندا مع متعاطى الحشيش (الماريجوانا) وتتشـدد مع المتجرين فيه. أما كندا فقد صرحت بـاستعـماله طبـيا لتـخفـيف آلام مرضى السـرطان والأمراض المستعـصية والمؤلمة، فيزيل آلامـهم ويرفع من معنوياتهم ويخفف من اكتئابهم دون أعـراض جانبية مهمة. والإشكال أن المـريض مسموح له

باستعمال الحشيش لكنه لا يجده فى السوق لأنه ممنوع قانونا، وسمحت السلطات الكندية للمرضى بزراعته فى حدائق منازلهم، إلا أن البوليس يصادره إذا ضبطه، فانطبق عليهم المثل الشعبى: «مكسور ما تأكل.. سليم ما تكسر.. وكل لما تشبع».

(١٥)

ويلتفت الدكتور أرنست شلبى إلى السبب الحقيقى الذى وقف فى وجه «المحاولة العلمية» للإفادة من الخواص الطبية لمادة الحشيش، وعلى الرغم من جاذبية الفكرة التى يشرحها الدكتور أرنست شلبى باقتدار، فإنها لا تمثل عائقاً حقيقياً أمام مثل هذا التوجه، وبخاصة إذا ما عرفنا أن فى وسع هذه الشركات أن تطور بعض المنتجات الطبيعية إلى صورة تعرضها على أفضل وجه فى خضم المركبات الدوائية الجديرة بالتقدير:

«... وهناك دول متقدمة أخرى تطلب المزيد من التجارب على الحشيش قبل إباحته للعلاج، لكن هذه التجارب مكلفة للغاية ولا تقوم بها إلا شركات الأدوية الكبرى التى تبتكرها، فتستعيد بذلك ما أنفقته ببيع الدواء بثمن باهظ، والقانون يسمح لها باحتكاره لسنوات محددة. أما فى حالة الحشيش فلن تستعيد ما صرفته لأن الحشيش لا تحميه قوانين الاحتكار وثمنه إذا أطلق بيعه سيكون زهيدا والتمسك بإجراء هذه التجارب بيروقراطية لا فائدة منها، لأن كثيرا من الأدوية دخل السوق دون هذه التجارب مثل الساليسيلات المستعمل من مائة سنة،

والديجيتالا من أكثر من ذلك اعتمادا على الزمن نفسه الذى أظهر فوائدهما وأضرارهما».

ويصل الدكتور أرنست شلبى إلى عرض وجهة نظره بوضوح فيقول:

«... الحشيش موجود ومستعمل من عشرات السنين ولم تظهر له أعراض جانبية خطيرة، بل إن شدة الإدمان به ضعيفة لأنه يمكن لمتعاطيه الامتناع عنه مدة طويلة دون ظهور أعراض مقلقة. فيمكن اعتباره أحد هذه الأدوية التى أثبت الزمن فائدتها دون تجارب، ولكن البيروقراطية بالمرصاد فلابد من التجارب والتجارب تكلف كثيرا والشركات ممتنعة عن هذه التجارب لعدم جدواها تجاريا، فيجب حل الموضوع بطريقة أخرى».

(١٦)

والشاهد أن رأى الدكتور أرنست شلبى فى هذه الجزئية يتوافق مع فلسفته الليبرالية فى التعامل مع المخدرات، ونحن نراه ينتقد فى أدب شديد القانون الذى سنته الثورة لمحاربة المخدرات لافتا النظر بطريقة ذكية إلى الآثار العكسية والتلقائية للقوانين المتشددة، وهو يقول فى هذا المعنى:

«أصدرت ثورة ٢٣ يوليو قانونا لمحاربة تجار المخدرات قضى بإعدامهم، فبعد أن كان المروجون يتهربون من الشرطة أقدموا على قتل رجال الشرطة، فالعقوبة واحدة (الإعدام) وبيدهم أسلحة حديثة تفوق ما

بيد رجال الشـرطة من أسلحة عتيـقة. فتردد رجال الشـرطة فى الهجوم على المهـربين خوفا عـلى حياتهم. هذا من جـهة، ومن جهـة أخرى يقضى القـانون المصرى بإعـادة استئـناف حكم الإعدام ممـا يطيل مدة المحـاكمـات ويعطى الفرصة للـمحامـين لإيجاد ثغـرات فى القانون، وكانت النتيـجة زيادة انتشار المخدرات، فـالعقاب يجب أن يتناسب مع الجريمة، تناسب الدواء مع الداء، وإلا انقلب إلى ضده».

....

وبناء على كل هذه المعلومات التى «سـربها » الدكتور أرنست شلبى فى ذكاء ومهارة نراه يدعو إلى إخراج الحشيش من دائرة التجريم، وهو يقول فى هذا المعنى:

«يفكر عـدد من الدول فـى إطلاق الحـشـيش وإخـراجـه من دائرة الجريمة، فيـتحرر بذلك عدد كبير من وصمـة الإجرام، وكذلك يخرج عدد كبـير من الشبـاب من سطوة عصابات التهـريب التى قد تؤدى بهم إلى اعتناق المخدرات الأقوى والأخطر. فقد عمدت هذه العصابات إلى تقديم المخدرات للشـباب مجانا حتى يدمن عليهـا ويصبح آلة طيعة فى يدهم يجبرونهم على الترويج ويبتزون أموالهم».

«كمـا أن إطلاق الحشيش يرفع عـبئا كـبيرا من على عـاتق البوليس فيـتمكن من التفـرغ للمخدرات الأخـطر ولمكافحة الجـريمة عمـوما، وإطلاق الحشيش يفلس مهربيه ويقلل من جرائم الرشوة وغيرها».

«والخلاصة أن يصبح متعاطى الحشيش مواطنا عاديا كالمدخن أو شارب الكحول، وأهم فوائد إطلاق الحشيش هو استعماله طبيا فى حالات السرطان والأمراض المؤلمة، فهو يزيل الآلام والاكتئاب ويسبب انتعاشا نفسيا ويفتح الشهية لهؤلاء البؤساء دون حدوث أعراض جانبية تذكر».

(١٧)

وينطلق الدكتور أرنست شلبى فى تفكيره فى هذا الصدد إلى محاولة فتح أعيننا على الصورة الأخرى من صور التعامل «الرسمى» مع المخدرات، وتتمثل هذه الصورة فى الآراء الجريئة المنادية بإطلاق المخدرات جميعاً، وهى آراء ذكية لها ما يبررها من المنطق، ونحن نرى الدكتور أرنست شلبى وهو يجيد استعراض المبررات الدافعة إلى المناداة بمثل هذه الآراء، وكأنه يتحمس للأخذ بمثل هذه الآراء:

« . . . هناك آراء جريئة تنادى بإطلاق المخدرات جميعا، ومنطقهم فى ذلك أن الأموال الطائلة التى تصرفها الدولة فى مكافحة هذه المخدرات التى تبلغ ملايين بل بلايين الدولارات، لو صرفت فى تربية الأبناء وتحذيرهم واستعمال الأساليب الحديثة فى مكافحة الإدمان دعائيا، لأمكن التحكم فى الإدمان كما نجحت الحملة ضد التدخين إلى حد ما. كما يقضى على الجرائم المتعلقة بالإدمان وعلى الرشوة والفساد، وتنتهى بذلك إمبراطورية المهربين فى يوم وليلة. وحينئذ يمكن

إقناع الفلاحين بزراعة محاصيل أخرى خلاف المخدرات، فحتى الآن تغض الحكومة الأمريكية الطرف عن زراعة الأفيون فى أفغانستان لأنها المورد الوحيد لشريحة كبيرة من الفلاحين الأفغان».

. . . .

ويصل الدكتور أرنست شلبى بعد هذا إلى أن يحذرنا من أن نفرط فى التفاؤل والتعويل على إمكان الاقتناع «الحكومى» بمثل هذه الآراء، وهو يجمل الأسباب المنطقية فى عبارة قصيرة محملة بكل معانى الحقيقة وجوانبها:

«هذه الأفكار الجريئة تستحق الدراسة وبها تتقدم الأمم، لكن ستكون هناك مقاومة شديدة من مراكز قوى تستفيد باستمرار من الوضع الحالى».

(١٨)

ربما جاز لى أن أستطرد هنا لأشير إلى أنى بعد أن وصل هذا الكتاب إلى مرحلة الطباعة، طالعت مقالا فى جريدة «الحياة» اللندنية (نشر فى ١٩ سبتمبر ٢٠٠٤) للدكتور روجر أوين مدير مركز دراسات الشرق الأوسط فى جامعة هارفارد بعنوان «دور مصر فى الحظر العالمى على الحشيشة»، وقد اطلعت فى هذا المقال لأول مرة على حقيقة لم أكن أعرفها، بل إنى لازلت حتى الآن لا أعرف الدكتور محمد عبد السلام الجندى الذى أشار إليه المقال نقلا عن الكتاب البريطانى الجديد الذى يثبت لمصر الفضل فى تحريم الحشيش.

والحق أننى أجدنى مقصراً لو أنى لم أنقل للقارئ هذا المقال بنصه.

يقول الدكتور روجر أوين:

«يلقى كتاب صدر مؤخرا بعنوان «القنب البريطانى» للكاتب البريطانى جيمس ميللز، ضوءا مثيرا للاهتمام على دور الحكومة المصرية الرئيسى فى وضع القنب - المعروف أيضا بالقنب الهندى أو الحشيشة - على لائحة البضائع المحظورة التى أصدرتها عصبة الأمم أوائل ١٩٢٥، أى قبل ما يقرب من ثمانين سنة. ويعود الفضل فى هذا الأنتصار الصغير لدبلوماسية العالم الثالث إلى حد مهم إلى الدكتور محمد عبد السلام الجندى رئيس الوفد المصرى إلى المؤتمر الدولى الثانى عن الأفيون فى جنيف، الدبلوماسى الذى كان أيضا السكرتير الأول فى السفارتين المصريتين فى باريس وبروكسل».

«بدأ الجندى حملته بخطاب قوى فى اليوم الثانى لانعقاد المؤتمر فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٢٤، مناشدا المجتمع الدولى بحرارة وضع الحشيشة - فى أقل تقدير - على قدم المساواة مع الأفيون من حيث الضرر، ثم كرر النداء نفسه بعد يومين بما يكفى من القوة للحصول على دعم عدد من الوفود الأخرى، من بينها الأمريكى، والتغلب على الاعتراض البريطانى بأن القضية خارجة عن جدول أعمال المؤتمر، ودفعه ذلك إلى تقديم مقترح رسمى بحظر الحشيشة، ودعمه بما بدا عرضا مقنعا للأدلة الطبية المصرية التى ربطت الإدمان على الحشيشة بالأمراض النفسية».

«وأنهى الجندى كلمته بطلب الدعم من المجتمع الدولى لمنع المتاجرة بهذه المادة، وإذ شعر بأن غالبية الدول المتمثلة فى المؤتمر تفتقر إلى الخبرة بالحشيشة، حاول إثارة اهتمامها بالتأكيد على أن هذا المخدر سيحتل مكان الكوكايين فى حال عدم توفر الأخير فى تلك المجتمعات. كما أكد أن عدم حظر المادة سينال بشدة من صدقية عصبة الأمم خارج أوروبا وقال: «أعرف عقلية الشعوب الشرقية، وأخشى أن يسود القول بأن سبب عدم التعامل مع هذه القضية عدم تأثيرها على الأوروبيين».

«مساهمة الدكتور الجندى الأخيرة كانت صياغته لمسودة اقتراح يطلب من المؤتمر حظر استعمال وبيع وتجارة الحشيشة إلا لغايات طبية، ورغم التعديلات المخففة من الاقتراح من البريطانيين والهنود، فقد كانت النتيجة الحظر العام على تصدير الحشيشة إلى بلدان مثل مصر تعتبرها محظورة. منذ ذلك الحين - كما نعلم - استمر وجود الحشيشة على قوائم المخدرات المحظورة لدى غالبية الدول».

«فى كتابه يقدم ميللز أيضا معلومات قيمة عن بعض العناصر التى سهّلت مهمة الجندى، من ذلك أنه تبين أن العديد من الدول الممثلة فى مؤتمر جنيف كانت لها أسبابها الخاصة لإثارة قضية الحشيشة. كما يشير إلى الدوافع الممكنة لبعض المسئولين البريطانيين فى الحكومة المصرية للحصول على مساعدة المجتمع الدولى لمحاولتهم وقف توريد الحشيشة إلى مصر - مثلا - من خلال الضغط على دول مثل فرنسا،

لرعاياها فى مصر امتيازات قانونية معينة تعميق قدرة الحكومة المصرية على ملاحقتهم قضائيا بتهم تهريب المخدرات».

«النقطة الأخيرة تتعلق باكتشاف ميللز للطريقة التى استعمل بها الدكتور الجندى الإحصاءات التى قام بها جون وينرايت المدير البريطانى لمستشفيات الأمراض العقلية فى مصر بين ١٨٩٥و١٩٢٣. فقد بدا أن الإحصاءات تبرهن على تلازم بين استعمال الحشيش والأمراض النفسية، على الرغم من أن ميللز يشير محقا إلى أن العلاقة التى وجدها وينرايت بين الاثنين قامت على تشخيص وينرايت البعيد عن الموثوقية للعامل الذى أطلق الاختلالات العقلية لدى مرضاه».

«رغم ذلك هناك أوجه أخرى مهمة لهذه القضية يغفلها ميللز، من بينها التأثير الواضح للشعور الوطنى على أداء الدكتور الجندى، فقد شهدت مصر فى ١٩٢٤ الانتخابات الاشتراعية التى قادت إلى تشكيل الحكومة المستقلة الأولى بقيادة سعد زغلول وحزب الوفد، ثم اضطرت الحكومة إلى الاستقالة فى تشرين الثانى (نوفمبر) من السنة نفسها بعد العقوبات التى فرضتها بريطانيا ردا على اغتيال السير لى ستاك، البريطانى الذى كان قائد الجيش المصرى. [نتوقف هنا لنصحح ما ذكره الدكتور روجر أوين لنشير إلى أنه لم يكن قائدا للجيش المصرى، وإنما فى منصب حاكم السودان] من هنا عندما أخبر الجندى المؤتمر الثانى للأفيون أنها كانت المرة الأولى التى تتمثل فيها مصر فى مؤتمر تعقده عصبة الأمم باثنين من أبنائها دون حضور أجنبى، فقد كان يشير إلى

الاستقلال الذى حققته مصر فى المجتمع الدولى فى الوقت الذى كانت حرية تصرفها تتعرض لهجوم من قبل البريطانيين، وربما كان الجندى، مثل كثيرين من المصريين وقتها، يتطلع إلى مساندة عصبة الأمم ضد البريطانيين فى تلك المرحلة الصعبة».

«يخطئ ميللز أيضا عندما يعطى الانطباع بوحدة موقف المسئولين البريطانيين فى مصر، فقد كانت هناك فى الواقع خلافات مهمة حول سياسة مكافحة المخدرات، من ذلك أن توماس راسل باشا، قائد شرطة القاهرة الواسع النفوذ، كان يبدى تسامحا كبيرا مع استعمال الفلاحين للحشيشة، خصوصا كعقار ضد البلهارسيا، فيما كان بالغ الاهتمام بمكافحة ما سمى وقتها «المخدرات البيضاء» - أى الأفيون والهيروين والكوكايين - بالمقابل يبدو أن الهم الأول لدى مدير الدائرة الأوروبية البريطانى فى وزارة الداخلية المصرية كان الإحراج الذى سببه فشل الوزارة فى وقف تهريب الحشيشة أكثر من تأثيرها الضار».

«ختاما.. يغفل ميللز نواحى كثيرة من السياق الدولى للقضية سهّلت مهمة الدكتور الجندى، فقد لاحظ محقا استعداد المندوب الأمريكى لمساندة موقف مصر تجاه الحشيشة مقابل دعم المصريين للموقف الأمريكى المتشدد ضد الأفيون، إلا أن هذا كان جزءا من الصورة الأكبر، إذ كان قرار أمريكا عدم الانضمام إلى عصبة الأمم لا يزال ممكن المراجعة، لذا وجدت دول أوروبية عديدة أن من مصلحتها استرضاء أمريكا إلى الحد الأقصى أملا بمراجعة الكونجرس لموقفه من الانضمام. ما لا يقل أهمية عن ذلك أن العشرينيات شهدت ذروة

محاولات إقامة نظام تعاون دولى لحظر المتاجرة بالمنتجات المضرة، من ضمنها - وهو ما يثير اهتماما خاصا - الأسلحة المنتجة من قبل الشركات الخاصة».

«مع ذلك ليس لهذه الاعتبارات أن تقلل من إنجاز الدكتور الجندى، خصوصا مع اقتراب الذكرى الثمانينية لتحقيقه. ومهما كان الرأى فى الإنجاز فهو بالتأكيد من بين تأثيرات مصر الأهم على صحة وسعادة الإنسان فى العالم الحديث».

. . . .

. . . .

هكذا نرى فى هذا المقال موضوع الحقيقة التى أشار إليها الدكتور أرنست فيما يخص العلاقة بين الحشيش والكوكايين، لكن بصورة مختلفة فى العرض. فالدكتور الجندى يرى أنَّ الحشيش سيحل محل الكوكايين ولهذا يطالب بتحريمه!!، أم الدكتور أرنست فهو يرى أن منع الحشيش سيدفع بالمدنين إلى الكوكايين ولهذا يطالب بغض النظر عنه!!.

(١٩)

وللدكتور أرنست شلبى نظرات مهمة فى تأمل تاريخ الطب، وهو يشير إلى أنه قد اكتشفها بخبرته الطويلة وبممارسته للتعليم الطبى، ومن هذا التفاته إلى أحد عوامل نجاح وتفوق الطب الفرعونى وهو ممارسة التشريح:

«ويقودنا الكلام إلى طب الفراعنة [وأنه كان] مبنيا على المشاهدة والأشياء العلمية، فليس فيه خزعبلات أو غيبيات».

....

«من أهم ما ساعد الفراعنة على الطب هو أن ديانتهم كانت تسمح بل وتأمر بتشريح الجثة لتحنيطها، وكان ذلك قبل تشريح الجثث فى أوروبا مثلا بمئات السنين. وكانت الأديان تجمع على عدم تشريح الجثث».

....

«وكان للمصريين علم غزير بتشريح الجثث المصرية، وكانت لهم ملاحظات تدل على عمق معرفتهم بتشريح الجثث. فمثلا كان يقال عن النبض إنه قياس لسرعة القلب، وهو أمر لم يكتشف إلا بعد ذلك بوصف هارفى عن علاقة النبض بالقلب».

«وأذكر أن محاضرا أوروبيا حضر إلى كلية طب قصر العينى لإلقاء محاضرة عن الجلطة الشريانية يقول فيها: إن المصرى القديم وصف الجلطة، وقال فى مستهل محاضرته: «إن الطبيب المصرى القديم كان يدرك هذا المرض فوصفه بأن المريض يشعر بألم شديد فى صدره، وبرودة فى الأطراف، واصفرار فى الوجه، وعرق بارد، وشعور بقرب النهاية، فإذا وجدت هذا أسند ظهر هذا المريض إلى حجر وطمئنه لأن حالته شديدة قد تؤدى بحياته، فقد أدرك المصرى القديم خطورة

العلامات كما قال المحاضر الأوروبى، ولا أدرى مصدر هذه [المحاضرات]، فلم أطلع عليها شخصيا لكنها وصف دقيق لمرض انسداد الشريان التاجى ولا يختلف كثيرا عن الوصف الحديث لهذا المرض».

(٢٠)

وتحفل مذكرات الدكتور أرنست شلبى على قصرها بروح الأستاذ القادر على نقل خلاصة تجربته لتلاميذه، ويبدو هذا الخلق أكثر وضوحاً فيما يتعلق بالفترة التى قضاها صاحب المذكرات طبيبا فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وهو ينبّهنا في مذكراته إلى خطورة ما قد لا نلتفت إليه فى بعض الأحيان من ضرورة إجراء التحليلات المؤيدة لقراراتنا التشخيصية والعلاجية مهما كانت هذه التشخيصات بدهية فيقول:

«... وفى يوم من الأيام دخلت مريضة فى الطوارئ تشكو من آلام وتقلصات فى العضلات والتواء فى عضلات الساق، وبالكشف عليها اكتشفت أن فى رقبتها جرحا يدل على أنها عملت عملية استئصال الغدة الدرقية، فشخصت أن العملية التى كانت عملتها من أربعة أو خمسة أيام أثرت على الغدة الجاردرقية المختصة بتمثيل الكالسيوم، وأن ما عندها هو نقص فى الكالسيوم المتأين نتجت عنه هذه التقلصات العضلية، وهو أمر معروف فى بعض مضاعفات عملية الغدة الدرقية، فقمت فى الحال بإعطائها حقنتين من الكالسيوم فذهبت آلامها وعادت

إلى حالتـها الأولى. فى اليوم التالى تـوقعت تقديرا من الأستـاذ عندما سردت له قصـتها، إلا أنه ثار وماج وقـال: كيف تعطيها كـالسيوم دون برهان؟ فقلت له: أنا رجل بسـيط، هذه السيدة عملت عـملية من أربعة أيام فى الغـدة الدرقيـة ومن المضـاعفـات المشـهورة أن تصاب الـغدة الجـاردرقيـة، ولو [مؤقـتاً]، بعـد العمـلية مـما ينتج عن ذلك التـواء العضلات وتقلصـاتها ، فأعطيتهـا الكالسيوم وشفيـت، فما الخطأ هنا؟ فرد علىّ وقال: الخطأ أنك لم تأخذ عينة لتـحليلها وإثبات أنه فعلا كان عندها نقص فى الكالسـيوم المـتغـيب قبل إعطائهـا العلاج. فتـعلمت الدرس وقلت له: لا بأس ستتكرر الحالة وسأكـرر ذلك، وفعلا جاءتها نوبة من التقلصـات الشديدة بعد ذلك وأخذت عينـة من دمها وثبت أن الكالسيـوم كان ناقصـا فى دمها فأعطـيتها الكالسـيوم وبعد أيام شـفيت والحمد لله».

□

وفى موضع آخر من مـواضع حديثه عن تجربته فى العمل طبـياً فى الولايات المتحدة الأمريكية ينبهنا إلى ما قد تجلبه الخلفيات الناشئة عن الالتزام بالقـيم الأخلاقيـة التقليدية أو الشـرقية من طغـيان على السلوك المهنى الذى لابد من الالتزام به:

«... وفى ليلة أخـرى دخلت بعد منـتصف الليل فـتاة فى منتـهى الجمـال، شابة يافعة، رشـيقة، جمـيلة، عندها مرض بأحد صمـامات قلبها، فاستقبلتها وفحصتها وكـتبت لها مشاهدة كما نسميها وعملت لها

رسم قلب، وأخذت منهـا عينات من البول إلا أنى لم أعمل لهـا أشعة فى تلك الليلة ـ بعـد منتـصف اليل، وفى ثانى يوم قدمـتهـا للأستـاذ فسألنى: لمـاذا لم تعمل لها أشعة؟ فتلجلجت ولم أجب، فـسألنى مرة أخرى فقلت: هذه فـتاة جميلة جدا فـخشيت أن أختلى بهـا فى حجرة مظلمة وحدنا فتـسير الإشاعات ويسير القيل والقـال، فانتظرت الصباح حتى يكـون هناك شخص ثالث معـنا أو تتاح فرصـة أخرى، فـضحك الجمـيع ضحكا عـاليا من هذا العذر وقـال: هذا ليس عذرا، فـوجود شخص فى حجـرة مظلمة مع فتاة لا يثير [قـولا أو قيلا] هنا، ودهشت لذلك جدا».

□

وفى موضع ثالث ينبهنا الدكتور أرنست شلبى من خلال قصة طريفة سريعة إلى خطورة الاسـتنتاج القائم على خلفيـاتنا الثقافية وافـتراضاتنا المبنية عليها دون إدراك للخلفيات الثقافية التى تحكم علاقات الآخرين:

«. . . واستقبلت يوما سيدة فى العقد الخامس أو السادس من عمرها تشكو من أعراض جلطـة فى الشريان التاجى، وبعـد الفحص أعطيتـها العلاج اللازم حتى اسـتقرت حالتها وهدأت أعصـابها وكادت أن تنام، فقلت للشاب اليافع المرافق لهـا أن ينصرف إلى المنزل مطمْئنا ويحضر اليوم الثانى لزيارة والدته وسـيجدها فى حالة جيدة، فانتـفضت مذعورة وصاحت: والدته! أنا زوجته! كـيف تقول والدته. وتعلمت درسا أن لا أجازف وأفـترض أشـياء لا أعـرفهـا. . . ولم أقع فى هذا الخطأ طوال عمرى نتيجة لهذه الحادثة الفريدة».

(٢١)

ويحفل كتاب أرنست شلبى بكثير من الطرائف التى صادفها فى ممارساته الطبية الطويلة كأستاذ وكمعلم للأمراض الباطنة، ولعل أبرز هذه القصص قصة «الفلاريا» التى لا يُمكن أن تُرى إلا ما بين الساعة الثانية والثالثة صباحا، وهو يحكى قصة الأستاذ الإنجليزى السير هنرى تايدى الذى أراد أن يشاهد هذه الظاهرة وكيف صحبه إلى إحدى قرى الجيزة:

«... مرض الفيل عبارة عن دودة تسد اللمفاويات ينتج عنها تورم الساق ويصبح الساق شبيها بساق الفيل، لذلك سمى بمرض الفيل، وهو منتشر فى إفريقيا ومنتشر أيضا [ربما يقصد الدكتور أرنست أن يقول إنه: متوطن] فى بعض ضواحى الجيزة، والدودة تسمى الفيلاريا، تنطلق هذه الدودة فى الدم ويمكن رؤيتها من عينة تؤخذ بين الساعة الثانية والثالثة صباحا، ففى هذه الفترة تظهر فيها الدودة الصغيرة فى أى عينة دم وتختفى باقى اليوم».

«هذه الظاهرة حيرت العلماء ولما جاء سير هنرى تايدى إلى كلية الطب، أراد أن يشاهد هذه الظاهرة بنفسه ليتحقق من ذلك، فدبرنا له رحلة إلى إحدى ضواحى الجيزة التى ينتشر فيها هذا المرض وأخذنا معنا الميكروسكوبات والبطاريات».

«دخلنا القرية الساعة الواحدة صباحا وكانت القرية مزدانة بالأنوار والبهرجة فى الألوان وكأنها شارع الشانزليزيه بباريس، استقبلنا العمدة

أحسن استقبال وقدم لنا الشاى أغلبه لبن وأكثره سكر، كما قدم لنا شيكولاتة ساحت فى جيوبنا، ثم استدعى الأطفال المعروف أنهم مصابون بهذه الفيلاريا وأخذنا عينات دم من أصابعهم ووضعناها تحت الميكروسكوب».

«وشاهد سير هنرى تايدى الفيلاريا وكان مسرورا بهذه المشاهدة ومندهشا أيضا».

□

ويستدعى الدكتور أرنست شلبى من معلوماته الطبية أو من معلومات زملائه وأصدقائه عن تاريخ الطب قصة طريفة فيقول:

«كان رائد علم الطفيليات السير باتريك مانسون منذ مائة عام يقوم بتجاربه ودراساته فى بلاد تركب الأفيال - الهند والسند - ويقضى إجازاته الصيفية كل عام فى انجلترا، وكان أحد مرضاه مصاباً بالفيلاريا وبهذه الظاهرة العجيبة، أى أنه لا تظهر تحت الميكروسكوب الديدان إلا إذا أخذت العينة بين الساعة الثانية والثالثة صباحا، فقرر أن يصطحب هذا المريض معه فى الباخرة إلى لندن وكان يأخذ منه العينات حسب التوقيت المحلى على الباخرة،والعجيب أن العينة تظهر إيجابية فقط بين الساعة الثانية والثالثة صباحا بتوقيت الباخرة،وكأن الفيلاريا كانت تعرف التوقيت المحلى.»

«وكان السير باتريك مانسون يدهش لهذه الظاهرة ويقال إنه على فراش الموت قال إنه يود أن يعرف سر هذه الظاهرة».

....

....

وبعد أن يروى صاحب المذكرات هذه القصة يعرض علينا فى تواضع شديد تفسيره هو لهذه الظاهرة، وهو يعترف أنه لم يختبر هذه الفكرة بطريقة علمية:

«لى فكرة بسيطة قد تفسر ذلك، وهى أن تركيب الدم فى هذه الساعات الأولى من الصباح يناسب خروج الفيلاريا من الطحال وغيره للطعام من الجلوكوز والملح والمعادن، لكن هذه الفكرة لا أعرف إن كانت صائبة أم لا، فلم أجربها ولم أدرسها».

....

(٢٢)

ويبدو الدكتور أرنست شلبى حريصاً على ألا يخلو كتاب مذكراته من بعض الحديث عن أخلاقيات الطب والممارسة الطبية، وهو يقول فى أحد مواضعه:

«... ولا يجوز أن يستهزئ الطبيب بأى شىء يتفوه به المريض أو يقلل من شأنه، حتى لو كان مضحكا. وأذكر بهذه المناسبة أن إحدى

[مريضـاتى] قالت لى إنهـا تشعـر وكأن أرنب جبلى يلعـب فى أذنها، فكتمت ابتسـامتى، فأنا لم أشاهد [أرنبـا جبليا] فى حيـاتى، فضلا عن لعبه فى الأذن، فسألتها بطريقة أخرى لتوضيح ما تشعر به».

. . . .

«وأذكر أيضـا أن مريضا أراد أن يعبـر عن الحموضـة التى تحدث له عندما يأكل أكلة معينة، فقال لى إنه يشعر بعد الوجبة وكأنه «ابتلع وابور جاز والع» وكتمت ابتسامتى أيضا».

(٢٣)

ينبهنا الـدكتور أرنست شلبى إلى تجـربة شخصـية له مع التـصريح بالتشخيص الطبى فى مواجهـة المريض الأمريكى، وربما يعجب بعض القراء ممـا تتضمنه هذه القصـة وهم يعرفون أن الأطباء الأمـريكيين قد اعتادوا على مـصارحة مرضاهم بحـقيقة المـرض، وهذا صحيح، لكن التصريح [وهذا هو ما لا نعرفه] لا يمتد إلى ما قبل مرحلة التشخيص، وهو ما ينبهنا إليه صـاحب المذكرات حين يروى تجربته الشـخصية مع إحدى الحالات فيقول:

«وفى أوائل فترة إقامتى فى المستشفى كان فى المرور مريض يحتمل أن يكون عنده جذام، وتناقش الأطباء حـوله، فتطوعت وقلت إن هناك احتمـال جذام، فداس على رجلى زمـيلى لدرجة آلمتنى، كمـا قرصنى آخر قرصة شديدة جـدا فى كتفى. دهشت لذلك، وعرفت بعد ذلك أن

كلمة جذام لا يمكن النطق بها أمام المريض هكذا بسهولة لأنها قد تؤثر في نفسيته تأثيرا شديدا، كما أنه ممنوع استعمال كلمات السرطان، والزهري، والسيلان، ولايرجى منه الشفاء.. ويستعمل بدلا منها كلمات رمزية أو حركية كما يقال حتى لا يفهمها المريض ويتأثر بها».

«ففي «بلفيو» تعلمت درسا لا أنساه فلا أفوه بكلمة قد تؤثر على قضية المريض مما يؤثر بالتالي على شفائه، لأن المريض يفهم كل كلمة بعكس الحال في مصر، فنحن في مصر نتكلم الإنجليزية أمام المريض ونعتقد أنه لا يفهم ما نقوله فنأخذ حريتنا في الكلام».

(٢٤)

وتحفل مذكرات الدكتور أرنست شلبي بتوجه واضح نحو ممارسة الثقافة العلمية وبخاصة فيما يتعلق بتبسيط المعلومات الطبية المعقدة، وهو على سبيل المثال يضرب ثلاثة أمثلة طريفة يقرب بها لقرائه أو لمرضاه فهم أثر الكوليسترول على الأوعية الدموية فيقول:

«... حدث أن بعض أسرى الحرب الأمريكان في فيتنام مكثوا في فيتنام فترة يأكلون فيها قليلاً من الأرز وعديما من الدهون الحيوانية، فأجريت لبعضهم دراسات على الشرايين التاجية بعد عودتهم من الأسر فاتضح أن الشرايين قد اتسعت والكوليسترول تآكل بل وزال نهائيا من باطن الشريان التاجي نتيجة لهذا الصيام والامتناع عن الدهون الحيوانية والأكل بكمية ضئيلة في الأسر».

....

«يجيئنى فى العيادة بعض المرضى المسيحيين فى أثناء الصيام المسيحى حيث الامتناع عن المأكولات الحيوانية واللبن والزبد لفترة وجيزة، ولاحظت أن فى هذه الفترة ينقص الكوليسترول لكن يرتفع مرة أخرى عند الإفطار».

. . . .

«وفى الحرب العالمية الثانية صرفت الحكومة الاسكندنافية لمرضى قرحة المعدة لتر لبن كل يوم لكل مريض حسب البروتوكول الموصوف لمرضى القرحة فى ذلك الوقت، وبعد انتهاء الحرب عملوا الدراسات واتضح أن الذى صرف له لتر لبن كل يوم سدت شرايينه أو كادت، والذى لم يصرف له لبن بقيت شرايينه مفتوحة وكأن الزبد فى اللبن هو السبب فى انسداد الشريان».

(٢٥)

ولا يخلو كتاب الدكتور أرنست سليمان شلبى من بعض الآراء السياسية الصريحة أو المقنعة، وهو على سبيل المثال يحاول أن يقيم شخصية الرئيس عبد الناصر ما بين الاستبداد والديمقراطية فيقول:

«... وبعدها بسنة ظهر جمال عبد الناصر على المسرح صريحا، وهو القائد الأصلى للثورة، وجاء معه حب الشعب الشديد الذى لم يستغله جمال عبد الناصر، بل اعتمد على القوة العسكرية وهذا خطأ وقع فيه لا أدرى لماذا. فلو سلم نفسه للشعب لوضعه فى أعلى منصب [يقصد: فى أعلى مكانة]».

«كانت شعبيته جارفة ولم يدرك ذلك، وكان يعتمد على العسكريين دون الشعب، وكان اعتماده على العسكريين يؤدى إلى ما أدى إليه من دكتاتورية كريهة لطخت طهارة حكمه ونزاهة مقصده واعتزازه بعروبته دون مبرر. وكانت شعبيته فى البلاد العربية تفوق شعبيته فى مصر، فلو اعتمد على الشعب لكان له شأن آخر، ولقد يكون انتهى إلى ديمقراطية سليمة بدلا من الدكتاتورية العسكرية الكريهة التى وقع فى حبالها».

(٢٦)

ونصل إلى بعض الجوانب الشخصية فى مذكرات الدكتور أرنست، ومن الطريف أن الدكتور أرنست سليمان شلبى يبدو وهو يتعامل مع اسمه هو بقدر من « الدهشة » ، كما أنه يروى أنه كان يجيد استغلال اسم أبيه حين كان فى نيويورك ليكسب ثقة اليهود وذلك بأن يجعل اسم أبيه بمثابة اسم العائلة مستغنيا عن اسم العائلة، وفيما قبل هذا فإنه يتمنى لو لم يكن اسمه على نحو ما سمى: «أرنست»، ويتمنى لو كان اسمه «هلالا»، وهاتان هما الفقرتان اللتان يصارحنا فيهما صاحب المذكرات برأيه .

الفقرة الأولى ترد ضمن حديثه عن تشريح الموتى فى مدينة نيويورك:

....

«إذا توفى مريض فى المستشفى، فمن واجب الطبيب المعالج أن يحاول محاولة جدية مع أسرة المريض أن تسمح له بتشريح الجثة

لمعرفة إذا كان التشخيص سليما أم لا، ولأخذ عينات من الأحشاء وغيرها لخدمة العلم. وكان هذا الإجراء ويقال له postmortem مهما جدا علميا، وله حجرة خاصة يجتمع فيها الطبيب مع أسرة المريض ليحاول إقناعهم بهذا الإجراء».

«ومن عادات اليهود الذين يكونون ثلث سكان نيويورك عدم المساس بالجثة، وكان من الصعب تشريح الجثث عند اليهود، وكان اسمي هناك «أرنست سليمان» ولم استعمل اسم «شلبي» إلا بعد ذلك».

«فكلمة «سليمان» توحي بأني يهودي وكان ذلك موضع ثقة من اليهود فيّ».

«ونجحت مع بعضهم بتشريح الجثة على أساس أني يهودي ضليع بالأمور الدينية والطبية، فلم يجدوا [مانعاً] من تشريح الجثة تحت هذا الوهم، ولحسد إخواني الزملاء لأني كنت أتمتع بهذه الإشاعة [يقصد: الميزة]».

أما الفقرة الثانية وهي التي يتحدث فيها عن الاسم البديل الذي كان من الممكن أن يسمى به فتأتي في بداية الكتاب على النحو التالي:

. . . .

«ولدت يوم ١٧ أبريل سنة ١٩٢٣، ووافق ذلك أول رمضان المعظم واحتفل الناس بظهور الهلال، أراد جدي أن يبشر والدي بأنه أنجب ذكرا فقال له: زوجتك أنجبت هلالا، ظن والدي أنهم أطلقوا عليّ اسم «هلال»، وليتهم فعلوا فكم عانيت من اسمي الأجنبي «أرنست» طوال حياتي».

(٢٧)

وفى كل صفحات كتابه يمثل أرنست شـلبى نموذجا للشجاعة الأدبية فى مواجهة النفس وذكر الأخطاء التى كاد أن يقع فيها، أو التى وقع فيها بالفعل، بل إن أرنست سليمان يصل إلى درجة من العظمة لا يصل إليها فى رأى أستاذنا العقاد إلا من استطـاع أن يسخر من نفسه، ومن ذلك ما يرويه عن أخوته فى الرضاعة لبعض الكلاب:

....

«من طرائف الأيام الأولى لولادتى، أن زاد الـلبن فى ثدى أمى زيادة كبيرة ولم يكن من الميسور شفاط فى تلك القرية البسيطة، فأحضروا لها كلابا حديثـة الولادة لإرضاعها الزائد من هذا اللبن، ولابد أن يعـتبرنى الكلاب أخا لهم فى الرضاعة».

ببليوجرافيا
المذكرات التي يتدارسها هذا الكتاب

● **الدكتور زكي سويدان:** مشوار حياتي، أهم حوادث القرن، دار الوزان للطباعة والنشر - المعادي ، ٦٦٤ صفحة، ١٩٩١ .

● **الدكتور مصطفى الرفاعي:** خواطر طبيب، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٧٦ صفحة، ١٩٩٥ .

● **الدكتور مصطفى الديواني:** قصة حياتي، مكتبة الأنجلو المصرية، ٣٩٢ صفحة، ١٩٦٥ .

● **الدكتور دمرداش أحمد:** يوميات طبيب في الأرياف، سلسلة كتابك، الكتاب ٣٨، دار المعارف، القاهرة، ٦٤ صفحة، ١٩٧٧ .

● **الدكتور أرنست سليمان شلبي:** أقاصيص وأقاصيص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٦ صفحة ، ٢٠٠٣

كتب للمؤلف

■ **الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً**

سيرة حياة المفكر المصرى الكبير محمد كامل حسين (١٩٠٢ ـ ١٩٧٧) صاحب «قرية ظالمة» و«وحدة المعرفة» و«الوادى المقدس» و«النحو المعقول» و«التحليل البيولوجى للتاريخ».
فاز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب (١٩٧٨)، صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٨، وضمت الطبعة الثانية أبواباً وفصولاً لم تضمها الطبعة الأولى.
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢.

■ **مشرفة بين الذرة والذروة**

سيرة العالم المصرى الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة (١٨٩٨ ـ ١٩٥٠)، وإنجازاته العلمية ومدرسته الرائدة وأفكاره الاجتماعية وقدراته البيانية والموسيقية، وببليوجرافيا بإنتاجه وما كتب عنه، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٠، ونال جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم (١٩٨٢).
الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١.

■ **سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى**

يستعرض الإنتاج الفكرى والأدبى للدكتور أحمد زكى (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥) فى كافة الميادين ويعرض آراءه وفلسفته فى الحياة والعلم والسياسة والفكر والاجتماع، وتتميز الطبعة الثانية باحتوائها على الببليوجرافيا الكاملة لإنتاج الدكتور أحمد زكى فى كتبه ودراساته وترجماته ومقالاته المتنوعة فى مجلات: الرسالة، والثقافة، والهلال، والاثنين، والدنيا، والعربى وغيرها.
الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢.

■ **أحمد زكى حياته وفكره وأدبه**

يضم هذا الكتاب معظم فصول الأبواب الأولى من كتاب سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٤.

■ **الدكتور على باشا إبراهيم**

سيرة حياة رائد الطب المصرى فى العصر الحديث د. على إبراهيم (١٨٨٠ ـ ١٩٤٧) وإنجازاته العلمية والحضارية، وآراؤه فى الحياة والعلم والطب والجامعة.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٥.

■ **الدكتور نجيب محفوظ**

سيرة حياة الرائد الأول لطب النساء فى العالم العربى د. نجيب محفوظ (١٨٨٢ - ١٩٧٢)، الذى أضاف إلى العلم كثيراً من الإنجازات، وعرض لفلسفته وقدراته العلمية والبحثية والبيانية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **الدكتور سليمان عزمى باشا**

سيرة حياة أول أطبائنا الباطنيين د. سليمان عزمى (١٨٨٢ - ١٩٦٦)، وتحليل لآرائه فى التعليم الطبى والجامعى، وفلسفته فى ربط الطب والتعليم الطبى بالحياة العامة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **عثمان محرم .. مهندس الحقبة الليبرالية المصرية (١٩٢٤ - ١٩٥٢)**

يستعرض المقومات العقلية والفكرية والمهنية والسياسية التى أسهمت فى صنع إنجازات المهندس الوطنى العبقرى عثمان محرم (١٨٨١ - ١٩٦٣)، ويعرض لسيرته المهنية والسياسية والوطنية، ويتدارس أوراق محنته فى أول عهد الثورة حين قدم للمحاكمة كنموذج لكباش الفداء التى أراد العهد الجديد بها أن يمحو من الأذهان مهابة وقيمة رموز العهد السابق.

مكتبة مدبولى ، ٢٠٠٤ .

■ **سيد مرعى، شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح (١٩٤٤ - ١٩٨١)**

سيرة حياة المهندس سيد مرعى (١٩١٤ - ١٩٩٢)، وإسهاماته السياسية والمهنية والزراعية فى ثلاثة عصور متتالية، وما تركته شخصيته من بصمات سياسية واجتماعية لاتزال آثارها باقية.

مكتبة مدبولى، ١٩٩٩.

■ **إسماعيل صدقى باشا (١٨٧٥ - ١٩٥٠)**

سيرة حياة واحد من أهم الشخصيات التى مرت بتاريخ مصر الحديث وأثرت فى تاريخها القومى تأثيراً كبيراً بالإيجاب والسلب، وعرض لإنجازاته الاقتصادية والحضارية، ونقد لعقليته السياسية، وتقدير لأفكاره الاستراتيجية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ١٩٨٩.

■ **صانع النصر .. المشير أحمد إسماعيل (١٩١٧ - ١٩٧٤)**

سيرة حياة قائد عسكرى متميز أتيح له أن يتحقق على يديه أعظم نصر فى تاريخ مصر المعاصر، وملامح حياته وتكوين شخصيته وإنجازاته العسكرية على مدى حياته، ويناقش النقاط الخلافية فى تاريخه.

دار جهاد، ٢٠٠٣ .

■ **مايسترو العبور .. المشير أحمد إسماعيل**

سيرة موجزة لحياة قائد القوات العربية فى حرب ١٩٧٣.

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ **سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض (١٩١٩ - ١٩٦٩)**

سيرة موجزة لحياة ألمع العسكريين العرب، وعرض سريع لأفكاره العسكرية والاستراتيجية وإسهاماته التاريخية.

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ **توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية**

إطلالة سريعة بترتيب موضوعى على شخصية توفيق الحكيم وحياته وآثاره الأدبية، من خلال رحلته فى الحياة، وتعريف موجز بآثاره الأدبية والفكرية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية، ١٩٨٨.

■ **عبداللطيف البغدادى .. شهيد النزاهة الثورية**

سيرة حياة عبداللطيف البغدادى (١٩١٧ - ٢٠٠٠) أبرز رجال عهد الثورة فى المجال التنفيذى، وتتبع لفكره الإصلاحى والسياسى، وإنجازاته الحضارية، وإسهاماته فى الحياة البرلمانية، والوزارات المختلفة، والعلاقات العربية، ومحكمة الثورة، ورؤاه الاستراتيجية والسياسية والحربية.

دار الخيال، ٢٠٠٥.

■ **مصريون معاصرون**

مجموعة من كلمات ومقالات التابين التى نشرت فى رثاء بعض المصريين المعاصرين أو إحياء ذكراهم، متضمنة أضواء موحية على بعض من الجوانب التى تبدت فى حياة وإنتاج هذه الشخصيات.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.

■ **يرحمهم الله : كلمات فى التأبين**

تراجم انطباعية تأبينية لكل من: بدرالدين أبوغازى، وصلاح عبدالصبور، ومحمد زكى عبدالقادر، ود. يحيى المشد، ومحمد فهمى عبداللطيف.

دار الأطباء، ١٩٨٤.

■ **فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين**

مجموعة من القضايا النقدية والفكرية، المرتبطة بفن كتابة التجربة الذاتية، وأساسياته، وأركانه، وتطوره، ومدى الحاجة إليه، والنقاط الخلافية فيه مع محاولة لتأصيل مذهب المؤلف فى نقد أدبيات التجارب الذاتية المنشورة فى صور مختلفة.

دار الشروق، ١٩٩٧.

■ **فى ظلال السياسة.. نجيب محفوظ .. الروائى بين المثالية والواقع**

دراسة أدبية نقدية تحليلية تستعرض الفكر السياسى لنجيب محفوظ من خلال آرائه الصريحة المباشرة وأعماله الفنية ومذكراته المتعددة، وتثبت أنه فكر متقدم تناول القضايا الوطنية برؤية واضحة ونظر ثاقب وعبّر عن وعى سياسى من طراز متميز نجا من التقولب والأيدلوجيات واستشرف الأمل فى الآفاق الرحبة لمستقبل مزدهر لأمته ونجح فى لفت النظر إلى حقيقة الإيجابيات الليبرالية التى تحققت بفضل ثورة الشعب فى ١٩١٩.

دار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **على هوامش الأدب**

مجموعة من الدراسات والبحوث فى اللغة والأدب والنقد، تحاول فهم النقد ووظيفته وتصور علاقة الإبداع بالحياة، وتحلل الوسائل الكفيلة بالارتقاء بالذوق الأدبى العام، وتناقش كثيراً من القضايا والإشكاليات التى شغلت الحياة الثقافية، وترتاد آفاقاً جديدة فى درس علاقة اللغة بالحياة فى عصر المعلومات، وفى علاقة النقد بالذوق فى حقبة تتسم بتسارع الخطى والانكفاء على الذات معاً.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.

■ **ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة**

يناقش التأثيرات المتبادلة بين السياسة والتاريخ والأدب من خلال مجموعة من الفصول الموثقة (٢٣ فصلاً) تستعرض وقائع ثقافية وأدبية ونقدية محددة بعضها مشهور وبعضها لا يتمتع بالقدر الكافى من المعرفة به.

دار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **من بين سطور حياتنا الأدبية**

خمسة من الفصول التى يضمها كتاب ثلاثية التاريخ والأدب والسياسية نشرت مبكراً.

دار الأطباء، ١٩٨٤.

■ **أدباء التنوير والتأريخ الإسلامى**

دراسة وتعريف وتقييم لجهد ثلاثة من أساتذة كلية الآداب فى الجامعة المصرية تصدوا لكتابة تاريخ الأمة الإسلامية، تلقى الدراسة الضوء على ملامح وسمات ومميزات هذه التجربة الرائدة التى أثمرت عملاً يجمع بين الأدب والتاريخ، وقد أصبح بمثابة المصدر المفضل لأهل التاريخ وتاريخ الأدب العربى، وكثير من الدراسات الإنسانية.

الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **كلمات القرآن التى لا نستعملها**

دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية مع جداول تفصيلية كاملة بالكلمات ومعانيها والآيات التى وردت فيها من خلال تصنيف لغوى دقيق مع شرح موجز لفكرة اختلاف العينات اللفظية والعوامل المؤثرة فى هذا الاختلاف.

صدر فى طبعتين : دار الأطباء، ١٩٨٤، دار الشروق، ١٩٩٧.

■ **أوراق القلب (رسائل وجدانية)**

يضم أكثر من خمس وسبعين رسالة من الرسائل القصيرة تعبر بطريقة مبتكرة عن أحوال وجدانية متباينة، وتعكس قدرة عالية على التصوير والتعبير والقبض على لحظات الخصوصية والتفرد والمفارقة فى العلاقات الإنسانية.

الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٤، الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

■ **أوهام الحب : دراسة فى عواطف الأنثى**

يتضمن خمسة وثلاثين فصلاً ترسم الملامح الجوهرية فى الطبائع الإنسانية المتباينة، وتقدم صوراً فنية ونفسية دقيقة أقرب فى طبيعتها إلى اللقطة اللحظية، كما تقدم استعراضاً دقيقاً لتقلبات الوجدان ودواعيها وتواعبها.

الطبعة الأولى، الكتاب الأول فى سلسلة كتاب الجمهورية الشهرى، أغسطس ١٩٩٩.

الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

■ **رحلات شاب مسلم**

انطباعات ذاتية عن رحلات علمية مبكرة فى أمريكا وإيطاليا والهند وبريطانيا صورت فى دقة إبداعية بعض مشاعر الاحتكاك المباشر للمؤلف مع بيئات مختلفة وحضارات متعددة، كتبت بحرص شديد على الالتزام والدقة الموحية.

صدر فى ثلاث طبعات : دار الصحوة ١٩٨٧، دار الشروق ١٩٩٥، دار جهاد ٢٠٠٣.

■ **شمس الأصيل فى أمريكا**

يتميز بأسلوب مستحدث فى كتابة الرحلات لا يصف الطبيعة كما فعل السابقون، لكنه يحاول أن يصف الحضارة، وعلى حين أن وصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة الصادقة.. فإن وصف الحضارة يستلزم كذلك أقداراً متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب.. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة.

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦، ودار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **مجلة الثقافة (١٩٣٩ ـ ١٩٥٢) تعريف وفهرسة وتوثيق**

سيرة حياة مجلة رائدة، ودراسة صحفية وأدبية تحليلية للمجلة الشهيرة التى أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بصفة أسبوعية، وتشمل فهرسة كاملة للأعداد الـ ٧٣٣، وكشافات للموضوعات التى أسهم بها الكتاب الذين بلغ عددهم أكثر من ألف، مع تراجم وافية لحوالى ١٣٠ كاتباً بارزاً واظبوا على الكتابة للمجلة، وتعد بعض النبذات البيوجرافية المقدمة عن هؤلاء بمثابة النبذات التعريفية الوحيدة المتاحة عنهم.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

■ **الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء)**

ببليوجرافيا كاملة للبحوث الطبية المنشورة فى مائة وخمسين دورية طبية مصرية (١٩٨٥ ـ ١٩٨٨)، مع معلومات ببليوجرافية كاملة وملخصات وافية للبحوث، صدر فى ثمانية أجزاء نشرتها الأكاديمية الطبية العسكرية على مدى الفترة من ١٩٨٨ وحتى ١٩٩١.

■ **مذكرات وزراء الثورة**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات عشرة من وزراء ثورة يوليو ١٩٥٢ من ذوى الانتماءات المختلفة والأدوار المتباينة، فضلاً عن اختلاف آرائهم السياسية: كمال حسن على، وسيد مرعى، وعبدالجليل العمرى، وثروت عكاشة، وإسماعيل فهمى، وعثمان أحمد عثمان، وضياء داود، وأحمد خليفة، وعبدالوهاب البرلسى، وحسن أبوباشا.

دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **المرأة والحرية : مذكرات المرأة المصرية**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لقضية الحرية فى النظام الاجتماعى من خلال قراءة متأنية لمذكرات أربعة اتجاهات كاشفة عن دور المرأة المصرية فى الحياة العامة مشاركة للزوج فى مجده، أو ممارسة للسياسة، أو للوظيفة، أو عارضة لتجربة حياة متميزة: بنت الشاطئ، وجيهان السادات، ولطيفة الزيات، وزينب الغزالى، وإنجى أفلاطون، واعتدال ممتاز، وإقبال بركة، ونوال السعداوى، وسلوى العنانى، وثريا رشدى.

دار الخيال، ٢٠٠٤.

■ **مذكرات المرأة المصرية**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «الثورة والحرية» ، دار الشروق، ١٩٩٥.

■ **نحو حكم الفرد : مذكرات الضباط الأحرار**

تصوير دقيق للفترة الأولى من حكم ثورة يوليو (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) ومقدماتها وصراعاتها والتحولات التى انتهت إليها من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات كل من: اللواء محمد نجيب، وخالد محيى الدين، وعبدالمنعم عبدالرؤوف، وجمال منصور، ومحمد عبدالفتاح أبوالفضل، وحسين حمودة.

دار الخيال، ٢٠٠٣.

■ **مذكرات الضباط الأحرار**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «نحو حكم الفرد» تضم أيضاً باباً عن مذكرات عبداللطيف البغدادى لم تتضمنه الطبعة الثانية.

دار الشروق، ١٩٩٦.

■ **محاكمة ثورة يوليو : مذكرات رجال القانون والقضاء**

دراسة لعلاقة ثورة يوليو ١٩٥٢ بالقانون، وكيف أعلت الثورة من قيمة القانون فى بعض المواقف والصراعات التى نشبت بين تنظيمات الثورة وبين رجال القضاء الوطنى وذلك من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أعلام القانون والقضاء الذين مارسوا السياسة أو شاركوا فى الحياة العامة، وتشمل مذكرات كل من: محمد عصام الدين حسونة، وممتاز نصار، ومحمد عبدالسلام، وجمال العطيفى، ومحمد عبدالسلام الزيات، وماهر برسوم، وحسن عبدالغفار.

دار الخيال، ١٩٩٩ .

■ **من أجل السلام ، مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية**

تحليل ومقارنة لرؤى مجموعة من أعلام الدبلوماسية المصرية الذين شغلوا مواقع مختلفة وعاصروا حروب مصر الدبلوماسية من أجل استعادة التراب الوطنى : أحمد عصمت عبدالمجيد، ومحمود رياض، ومحمد إبراهيم كامل، وحسين ذوالفقار صبرى، ومحمد عبدالوهاب العشماوى، وجمال بركات.

دار الخيال، ١٩٩٩.

■ **الطريق إلى النكسة ، مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧**

مجموعة فصول تاريخية نقدية تتناول استعراضاً ومدارسة لمذكرات قادة الصف الأول فى حرب يونيو ١٩٦٧ وتحليل لآرائهم ورؤاهم عن الأسباب التى صنعت الهزيمة أو أدت إليها، أو حالت دون السيطرة عليها فى الوقت المناسب، والدراسة بمثابة أوفى مرجع لمذكرات عبدالحميد الدغيدى، وعبدالمحسن كامل مرتجى، وأنور القاضى، وصلاح الحديدى، ومحمد فوزى. وبعض هذه المذكرات لم تنشر إلا فى صحف محدودة التوزيع.

دار الخيال، ٢٠٠٠ .

■ **النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣**

مرجع أساسى لا غنى عنه لدراسة أمجد المعارك العربية التى خاضتها الأمة العربية فى ١٩٧٣، يتضمن الكتاب مدارسة ضخمة عن حقائق تلك الحرب ووقائعها من منظور وطنى وعلمى أمين مترفع عن الانحياز والغرض، ويقدم نظرات غير مسبوقة فى تحليل أحداث الحرب وتطورها ويستعرض بأمانة وتدقيق مذكرات خمسة من قادة حرب أكتوبر من مستويات مختلفة شاركوا بجهد وافر فى صياغة وصناعة النصر : محمد عبدالغنى الجمسى، وسعد الشاذلى، وعبدالمنعم خليل، ويوسف عفيفى، وعادل يسرى.

دار الخيال، ٢٠٠٠ .

■ **فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢**

أوفى دراسة متاحة حتى الآن للفترة التى اصطلح على تسميتها بحرب الاستنزاف وهى فترة حافلة بالتناقضات فى الرأى والتصور والتكتيك ورواية الوقائع، ويقدم الكتاب تحقيقاً لكثير من هذه الجزئيات الخلافية من خلال مذكرات كل من: مدكور أبوالعز، ومحمد أحمد صادق، ومحمد صدقى محمود، ومحمد فوزى، والفريق صلاح الحديدى، والكتاب هو المصدر الوحيد لبعض هذه المذكرات التى لم تنشر إلا فى الصحف.

دار الخيال، ٢٠٠١ .

■ **على مشارف الثورة : مذكرات وزراء نهاية الملكية ١٩٤٩ ـ ١٩٥٢**
دراسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات خمسة من وزراء السنوات الأخيرة فى عهد الملكية ينتمون إلى اتجاهات وتوجهات مختلفة، مع تحليل أدبى تاريخى لما تضمنته المذكرات من حقائق وروايات، وتشمل مذكرات كل من: أحمد مرتضى المراغى، وكريم ثابت، وإبراهيم فرج، وصليب سامى، وعبدالرحمن الرافعى.
دار الخيال، ٢٠٠١ .

■ **عسكرة المجتمع المدنى : مذكرات الضباط خارج الجيش**
دراسة موسعة للتأثيرات العملية المباشرة وغير المباشرة لممارسة رجال القوات المسلحة للأدوار والمهام المدنية فى عهد الثورة فى مجالات الإدارة والوزارة والتنظيمات والسياسة والصحافة والقضاء والإعلام والدعوة والدبلوماسية والهندسة من خلال مدارسات مكثفة لمذكرات سمير فاضل، وأحمد طعيمة، وحلمى السعيد، ومصطفى بهجت بدوى، ورياض سامى.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.

■ **مذكرات الصحفيين .. فى خدمة السلطة**
مدارسة أدبية نقدية تاريخية لعلاقات الصحافة بالسلطة على مدى عهد الثورة انتقالاً من عصر الليبرالية إلى التأميم والتنظيم إلى انفتاح محسوب، مع تحقيق لوقائع استغلال النفوذ ومصادرة الرأى: موسى صبرى، وأحمد بهاء الدين، وعبدالستار الطويلة، وفتحى غانم، وحلمى سلام، وجلال الدين الحمامصى.
دار الخيال، ٢٠٠٢ .

■ **مذكرات المفكرين والتربويين .. تكوين العقل العربى**
مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أبرز المفكرين والتربويين الذين أسهموا فى تكوين العقل العربى، وعرض لرؤاهم التربوية والفكرية ولوجهات نظرهم فى الحياة العقلية فى مصر المعاصرة من خلال تحليل انطباعاتهم ورؤاهم فيما يتعلق بتكوين عقلياتهم وعقلية تلاميذهم وأساتذتهم ومعاصريهم. وتشمل المدارسة مذكرات: شوقى ضيف، وعبدالرحمن بدوى، ومحمد عبدالله عنان، ومحمد على العريان، وأحمد عبدالسلام الكردانى، ونادية رضوان.
دار الخيال، ٢٠٠٢ .

■ **الثورة والإحباط : مذكرات أساتذة الأدباء والأذباء**
دراسة أدبية نقدية لمجموعة من المذكرات كتبها الأدباء وأساتذة الأدب وأضاءت علاقاتهم بالسياسة والحياة العامة وتفاعلات الأدب والكتابة فى عهد الثورة، وخبراتهم الفنية والأدبية، والعوامل التى شكلت وجدانهم، والتجارب التى عكستها آثارهم الأدبية، وتضم مذكرات الدكتورين: أحمد هيكل وعلى الحديدى، والأساتذة صالح مرسى، وفتحى أبوالفضل، وجليلة رضا، وعايدة الشريف، وأمانى فريد.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤.

■ **آراء حرة فى التربية والتعليم**
يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الفصول عرض فيها المؤلف آراء حرة ومدروسة فى قضايا التربية والتعليم حاول بها أن يفتح الأبواب أمام الفهم المستقيم لهذه القضايا، وأن يقدم الحلول الأكثر مناسبة والأجدى فائدة لمشكلات مزمنة، وأن يؤصل للفهم التربوى المعاصر من خلال فكر مفتوح لا يخضع للأهواء الوقتية.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **مستقبل الجامعة المصرية**

مجموعة مختارة من الأفكار والتصورات والمقترحات التى نشرها المؤلف فى الصحافة المصرية على مدى تسع سنوات مستهدفاً تجديد الرؤى فى إصلاح الجامعة على أسس علمية دون طفرة، ومعبراً عن رؤية علمية وعملية مختلفة عن تلك المطروحة على الساحة.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ .

■ **منهجية العلوم والفنون: مذكرات الأكاديميين المؤسسين**

تحليل تاريخى وتوثيق تربوى للجانب المؤسسى فى أكاديميات التعليم المتخصص فى الشرطة والفنون والجامعات الإقليمية والاتحادات العلمية عبر مدارسة لمذكرات أربعة من الأكاديميين المؤسسين: سليمان حزين، وسمحة الخولى، وعبدالحليم منتصر، وعبدالكريم درويش.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.

■ **القاهرة تبحث عن مستقبلها**

مجموعة من المقالات والفصول استهدفت تغيير وجه القاهرة من خلال أفكار علمية وعملية تستند إلى تحليل المعلومات وتوظيفها، والقدرة على تصور البدائل وطرح الحلول انطلاقاً من رؤية رحبة الأفق، وقد تحقق بعض هذه الأفكار، ونتمنى أن يتحقق البعض الآخر لتصبح عاصمتنا فى المكانة اللائقة بها بين بقاع الدنيا.
دار المعارف، ٢٠٠٠.

■ **التنمية الممكنة: أفكار لمصر من أجل الازدهار**

مجموعة مختارة ومنتقاة من المقالات والدراسات التى كتبها ونشرها المؤلف على مدى سبع سنوات (١٩٩٤ - ٢٠٠١) طارحاً فيها أسلوبًا جديدًا لمعالجة قضايا الوطن الاقتصادية والاجتماعية، معتمداً على منهج موظف للمعلومات من أجل الانطلاق بفكر رحب يفيد من تجارب الحضارات السابقة والنظم السياسية المعاصرة، وتتناول الأفكار مناحى متعددة فى حياة الوطن ومستقبله واقتصادياته ويجمع هذه الأفكار أنها صادرة عن رؤية عملية قابلة للتنفيذ دون أن تتطلب موارد جديدة، وهو ما يدفع إلى المطالبة بالإسراع فى الأخذ بها من أجل ما ننشده من ازدهار فى مستقبل الوطن.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **مستقبلنا فى مصر: دراسات فى الإعلام والبيئة والتنمية**

مقالات ودراسات مستفيضة لبعض مشكلات الحياة العامة فى مصر، تقدم رؤى مختلفة الطابع تصدر عن فهم جديد لطبيعة الحضارة المعاصرة بعيداً عن الآثار الكلاسيكية للأفكار الأيديولوجية التى صبغت بعض مناحى الحياة العامة فى مصر بما يستحسن الخلاص منه فى ظل فكر إنسانى علمى جديد يعتمد على التعويل على العناصر الإيجابية فى الإنسان، وعلى إعلاء قيمة الحرية، والتمكين للقيم الفاضلة فى حياة المجتمع، وفهم المشكلات فى إطارها الخاص بعيداً عن التعميم، وعلى استنطاق الإحصاءات بالبعد التنموى الذكى والمحافظ فى الوقت ذاته على البيئة.
الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٧ .

■ **الصحة والطب والعلاج فى مصر**

مجموعة من المقالات والفصول والدراسات تستعرض جوهر العلاقة بين الطب والصحة والمجتمع، وتقدم لمحات عن الدين والمرض، وعن مستقبل الطب الإسلامى، وعن طب الطوارئ. كما تقدم

أفكاراً جديدة فى تطوير التعليم الطبى وتنظيم المؤسسات الطبية. وتتضمن الطبعة الثانية دراسات موسعة تستهدف تطوير الخدمات الصحية بإعادة استخدام الموارد المتاحة من خلال رؤى عصرية لسياسات العلاج والصحة.

الطبعة الأولى، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧ .

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥ .

■ **أقوى من السلطة : مذكرات أساتذة الطب**

استعراض للتاريخ الاجتماعى فى الحياة المصرية المعاصرة من خلال منظور طبى وتعليمى اصطبغ بالعلاقة المباشرة والتجربة الحية مع شخصيات السلطة المتعاقبة وتوجهاتها المتباينة على نحو ما تضيئه مذكرات الدكاترة: زكى سويدان، ومصطفى الرفاعى، ومصطفى الديوانى، ودمرداش أحمد، وأرنست سليمان شلبى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤ .

■ **الفلسطينيون ينتصرون أخيراً .. دراسات فى التنبؤ السياسى**

تقدم مجموعة المقالات والفصول التى يتضمنها الكتاب أفكار المؤلف وتصوراته لمسار الصراع العربى ـ الإسرائيلى وقضية فلسطين، وهجرة اليهود العرب إلى فلسطين، ومعضلات السياسات الفلسطينية، وأخطاء السياسات العربية فى حقب متتالية، وحقيقة العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والحركة الصهيونية وإسرائيل.

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

■ **المسلمون والأمريكان فى عصر جديد**

مجموعة من الفصول والمقالات تتميز بجسارة فكرية وعقلية كفيلة بالنفاذ إلى جوهر المشكلات والتوجهات فى السياسة العالمية، ويجاهر المؤلف بأن الدعوة إلى الإسلام أجدى بكثير من الدفاع عنه. كما يستعرض مبرراته للتنبؤ بأن أمريكا قد تعتنق الإسلام، ويلقى الضوء على الدور الذى يلعبه الدين فى الانتخابات الأمريكية وفى غيرها من مواقع الأحداث فى عصر العولمة.

دار جهاد، ٢٠٠٢ .

■ **النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠)**

مجموعة من الدراسات البيوجرافية التى يمكن وصفها بلغة البحث العلمى بأنها أصيلة وغير مسبوقة، ومجموعة من المقالات (المستندة إلى دراسات) تتناول بالبحث والتعليق تكوين شخصيات النخبة الحاكمة فى النصف الثانى من القرن العشرين وعوامل صعود هذه الشخصيات إلى مواقع المسئولية.

مكتبة مدبولى، ٢٠٠١ .

■ **قادة الشرطة فى السياسة المصرية (١٩٥٢ ـ ٢٠٠٠) دراسة تحليلية وموسوعة شخصيات**

دراسة عميقة لدور جهاز مهنى حيوى فى الحياة السياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وتعريف بيوجرافى بستين شخصية شرطية مع ذكر أدوارها التاريخية وذلك من خلال قراءات مكثفة، ومقابلات منتقاة، ودراسات عميقة.

مكتبة مدبولى، ٢٠٠٢ .

■ **البنيان الوزارى فى مصر (١٨٧٨ - ٢٠٠٠)**

المرجع الأول والأوفى فى مجاله، وهو دراسة تاريخية وفهارس كمية وتفصيلية لإنشاء وإلغاء وإدماج الوزارات والقطاعات الوزارية وتبعيات المصالح والهيئات للوزارات المختلفة، ودراسة لتوزيع المسئوليات الوزارية والوزراء الذين تعاقبوا على كل وزارة.

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار الشروق، وركزت على فترة الثورة.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠ .

■ **الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم ونوابهم ، تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم**

توثيق تاريخ الوزارات المصرية وتشكيلاتها منذ قيام الثورة ١٩٥٢، من خلال ثلاثة أبواب، الأول: ترتيبى، والثانى: زمنى، والثالث: شخصى، ويقدم معلومات عن الوزراء ورؤسائهم ونواب رؤسائهم ونوابهم وتشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم.

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦ ، ١٩٩٧ .

■ **التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة (١٩٥٢ - ١٩٨١)**

طبعة مبكرة ومختصرة من كتاب الوزراء، تقف عند نهاية حكم الرئيس السادات، وتقدم فقط بعض ما شمله البابان الثانى والثالث من كتاب الوزراء.

الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٨٦ .

■ **المحافظون**

دراسة تأسيسية تشمل قوائم كاملة وترتيبية وفهارس تفصيلية وأبجدية وزمنية ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء نظام الإدارة المحلية (١٩٦٠) وحتى نهاية القرن العشرين. مع الإشارة إلى خلفياتهم المهنية وعلاقتهم بالمناصب الوزارية والإدارية.

صدرت الطبعة الأولى عن دار الشروق، ١٩٩٦.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صناعة القرار السياسى**

فصول بيوجرافية وتاريخية فى إطار دراسة تحليلية ونقدية لصناعة القرار السياسى فى مصر، وهى دراسة لا تخلو من استرجاع ومن إحصاء ومن استقراء ومن استنباط، ومن تحقيق للروايات ومن عرض للرأى والرأى الآخر، ومن وضع المقارنات على هيئة جداول وأرقام.

دار الخيال، ٢٠٠٢.

■ **دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث**

نبذات وافية ومعلومات كاملة تاريخية عن تطور مؤسسات وهيئات التعليم الطبى المصرية فى الجامعات ومراكز البحوث ووزارة الصحة.

الجمعية المصرية للأطباء الشبان، ١٩٨٧.

■ **يوميات على مصطفى مشرفة .. يناير ١٩١٨ - يوليو ١٩١٨**

تحقيق دقيق لمخطوطة من اليوميات التى وجدت فى آثار العالم المصرى الكبير عن الشهور الأولى من فترة بعثته إلى بريطانيا وما حفلت به مشاعره من حس وطنى ودينى، وتفاعل مع صورة مختلفة من الحياة، وحوارات عقيدية وفكرية، وخبرات علمية وحضرية وثقافية مكثفة.

مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣.

■ **القاموس الطبى نوبل فى ٣ أجزاء (بالاشتراك مع أ. د. محمد عبداللطيف)**

قاموس طبى ضخم يحوى ستين ألف مصطلح يسهل من خلاله الوصول إلى المصطلح المقابل من خلال أى لغة من لغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ويشمل مسارد كاملة لكافة المصطلحات الطبية الواردة فى اللغات.

دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، القاهرة، ١٩٩٨.

■ **أمراض القلب الخلقية الصمامية ٢٠٠١**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، يستعرض الخلقية الصمامية وأسبابها وطرائق تشخيصها وعلاجها وجراحاتها ومآلها.

دار المعارف، ٢٠٠١.

■ **أمراض القلب الخلقية : الثقوب والتحويلات ٢٠٠٢**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، عرض فيه المؤلف الأمراض الناشئة عن وجود ثقوب أو تحويلات فى تشريح القلب، مع تقديم صورة وافية عنها والاستعانة بكل ما يمكن أن يصور طبيعة المرض وحقيقته وسماته والطرق المتاحة لتشخيصه وعلاجه وجراحاته.

دار المعارف، ٢٠٠١ .

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٢٥٦/٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 01 - 9542 - 1